# دون كيشوت

تأليف

سارڤانتس

ترجمة عن الفرنسيّة

صيّاح الجهيّم

تم تحميل هذا الكتاب من
منتديات إيثار
www.ithar.com



دار
الفكر اللبناني



تم تحميل هذا الكتاب من
منتدى إيثار
www.ithar.com

دار الفكر اللبناني
للطباعة والنشر والتوزيع
كورنيش بشارة الخوري - بناية تمارا
ص. ب: ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠
تلفون: ٦٤٤٤١٦ - ٦٣١٠٠٢ - ٦٣١٧٦٠
فاكس: ٦٣٠٧٥٧ - بيروت، لبنان

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الاولى ١٩٩٩

# دون كيشوت

# Don Quichotte

تـألـيـف

**ســارقــانتس**

**CERVANTÈS**

ترجمه عن الفرنسية

**صيّاح الجهيّم**

دَارُ الفِكْرِ اللبْناني

بـيروت

تم تحميل هذا الكتاب من
منتديات إيثار
www.ithar.com



http://www.ithar.com

العنوان الأصلي بالفرنسية :

HISTOIRE

DE L'ADMIRABLE

# DON QUICHOTTE

DE LA MANCHE

LIBRAIRIE HACHETTE
1926

وقد جاء في مقدمة الكتاب المنشور في عام ١٩٢٦ ما يلي :

«ولا حاجة إلى القول إن دون كيشوت الذي ننشره ليس ملخصاً وليس نصوصاً مختارة. وإنما أثبتنا فيه ما بدا لنا أنه أقدر على إثارة اهتمام قرائنا الشباب وعلى تثقيفهم، وجعلنا من ذلك كلاًّ، دون أن نمسَّ أسلوب المؤلف ودون أن نضيف إلى الأصل شيئاً من عند أنفسنا».

http://www.ithar.com

# الفصل الأول

## «قصر عائلة دون كيشوت الشهير»

في مقاطعة إسبانية تُدعى «لامانش»، كان يعيش منذ زمنٍ غير بعيد، نبيلٌ ممّن يَمْلكون رمحاً في مِسْند الأسلحة، ودرقةً عتيقة، وحصاناً هزيلاً، وبعض كلاب الصيد. كانت قطعةُ اللحم في القدر، لحم البقر لا لحم الخروف، ووجبةٌ رديئةٌ مساءً من بقايا الغداء، والعدسُ في يوم الجمعة، والبيضُ بشحم الخنزير في يوم السبت على الطريقة الإسبانية، وبعض الحمام فوق ذلك في أيام الآحاد، كان ذلك كله يُذْهِبُ ثلاثةَ أرباع الدَخْل. أما بقيةُ الدخل فيُنْفَقُ على الثياب التي تتكوّن من سترةٍ من الجوخ الجيد، مع سراويل مخمليّة، ومع البابوج لأيام الأعياد؛ وفي الأيام العادية كان يرتدي ثياباً حسنةً من القماش المحلي. وكان له في منزله ما يُشبه الخادمة القيّمة التي بلغت أربعين عاماً ونيّفاً، مهما تقلْ في ذلك، وابنةُ أخ[1] لم تبلغ العشرين، وخادمٌ يخدم في المنزل وفي الحقول، ويُعْنَى بالحصان، ويَجْمع الحطب من الغابة. كان عمرُ هذا النبيل يُناهز الخمسين، وكان ذا بنيةٍ قوية ونشيطة، ووجهٍ نحيل، وجسم جاف مَعْروفٍ، وقد تعوّد النهوضَ مبكّراً وأُولِع بالصيد. واختلف المؤلّفون في اسمه، إلا أن الظاهر أن اسمه هو «كيكزادا». لكن ذلك ليس مهماً بالنسبة إلى القصة إذا رُويت بأمانة.

---

(١) أو ابنة الأخت. المترجم.

http://www.ithar.com

في الأيام التي لم يكن نبيلنا يعلم ما يفعل فيها (وكان ذلك يستغرق على الأقل ثلاثة أرباع السنة يُقبل على قراءة كتب الفروسية بكثيرٍ من الولع واللذة حتى نسيَ كلّياً الصيدَ والعنايةَ بأعماله: وبلغ به الأمرُ حدّاً من العناد باع معه عدةَ قطعٍ من الأرض الزراعية ليشتري رواياتٍ ملأً بها بيته:

وبالإختصار، انكبّ نبيلُنا انكباباً شديداً على قراءته. فكان يقضي فيها أيامه ولياليه. ولفَرْط ما قرأ وسهر جفّ دماغُه وفَقَدَ قدرتَه على المحاكمة. امتلأ خيالُه بالقصص الفارغة التي قرأها: قصص السحر والخصومات والتحدي والقتال والمعارك والجراح والعشق والشكوى الغرامية والعذاب والآلام وغير ذلك من الهوس والشطط.

انطبعَ في عقلهِ كلُّ ما قرأَه في هذه الروايات حتى خُيِّل إليه أنْ ليس في العالم قصةٌ أكثر واقعيةً منه. كان يقول أن «السيد روي دياز» كان فارساً قوياً لكن لا تجوز مقارنتُه بفارس السيف الملتهب الذي قطع بضربة واحدة عملاقين شديديْ الضخامة إلى نصفين. وكان راضياً عن «برناردو دي كاربيو» لأنه تغلّب في ساحة «رونسيفو» على «رولان»، المسحور الذي استخدم براعة هرقل حين خنق بذراعيه «آنتيه»، ابن الأرض الخارق. وكان يُثني على العملاق «مورغان» الذي اتّسم باللطف والبشاشة وإن كان ينتمي إلى ذلك العرق المتكبر والفظّ.

أما غاميلون الخائن فكان مستعداً لأن يضحّي بخادمته وبإبنةِ أخيه لكي يكيل له مئة رفسةٍ في بطنه.

اضطرب عقلُه، وداعبتْ خيالَه أغربُ فكرةٍ تصوّرها مجنون. خُيِّل إليه أن أفضل ما يُمكن أن يَفْعله لخير الدولة ولمجده نفسِه هو أن يُصبح

http://www.ithar.com

فارساً جوّالاً، وأن يسيح في الأرض بحثاً عن المغامرات، ليُزيل جميعَ أنواع المظالم مُعرِّضاً نفسه لشتّى المخاطر، فيبلغ بذلك المجدَ الخالد. وتخيّل هذا النبيلُ المسكينُ نفسه وقد تُوِّج ملكاً بقوة ساعده، وأن مملكة «تربيزوند» هي أقل ما يمكن أن يَطْمح إليه. وسط هذه الخواطر السارة التي ملأته بالآمال لم يفكّر إلا في شيءٍ واحد وهو أن يُنفّذ ما يتمنّاه بكل ما يملك من حماسةٍ وبأسرع وقتٍ ممكن.

أول ما فعله هو صَقْلُ السلاح الذي ورثَه عن والد جدّه، بعد أن أكَله الصدأُ زمناً طويلاً في زاويةٍ من البيت. فنظّفه وأصلحه ما أمكن الإِصلاحُ، لكنه عندما رأى الخوذةَ ناقصةً ولم يبقَ منها سوى غطاء الجمجمة استخدم الكرتون بمهارةٍ وربط بعضَه ببعض وجعل منه خوذةً أو على الأقل مظهر الخوذة. وأراد أن يَخْتبر هذه الخوذة إن كانت قويةً وقادرة على مقاومة حدّ السيف، فاستلّ سيفه وحطّم بالضربة الأولى ما قَضَى ثمانية أيامٍ في صنعه. لم يُعجبه ما في هذه الخوذة من هشاشةٍ، ولكي يتفادى هذا العيبَ، صنَعَها من جديد، ووضَع في داخلها حلقاتٍ حديدية صغيرة، لكنه لم يشأ أن يختبرها مرةً أخرى لأنه اعتبرها منيعةً تَصْمد للإِختبار.

فكّر بعد ذلك في حصانه، ومع أن هذا الحيوان المسكين لم يَبْق منه سوى الجلد والعظام، إلا أنه بدا له في حالةٍ حسنةٍ جداً بحيث لم يكن ليُبادله بجواد الاسكندر أو فرس «السيد». وظل أربعة أيام يبحث عن الإِسم الذي سيُطلقه عليه، إذ ليس من المعقول، كما كان يقول في نفسه، ألا يكون لحصانِ فارسٍ مشهورٍ اسمٌ يعرفه الناسُ جميعاً. ولذلك حاول أن يجد له إسماً يبيّن كيف كان الحصان قبل أن يكون حصان الفارس الجوّال وكيف صار بعد ذلك. ورأى أنه حين غيّر وضعه هو، فمن العَدْل أن يغيّر

http://www.ithar.com




اسمَ حصانه، وأن يتُخذ له اسماً برّاقاً مناسباً لمهنته الجديدة. وبعد أن حلمَ ودار، وأضافَ وأَنْقص، وركّب وفكك، سمّاه أخيراً «روسّينانت»، وهو اسم رائعٌ، برأيه، وباهرٌ، وذو دلالةٍ، وجديرٌ بأول حصانٍ في الدنيا.

بعد أن عثرَ على اسمٍ جميلٍ لحصانه، فكّر أيضاً في العثور على اسم له نفسه. فقضى ثمانية أيامٍ أخرى وهو يحلم، وأخيراً سمّى نفسه: «دون كيشوت». لكن بطلنا لم يقف هنا. فقد تذكّر أن «اماديس» الباسل لم يكتفِ باسمه وإنما أضاف اسم وطنه ومملكته ليجعلهما شهيرين وأصبح اسمه «أماديس دي غول»، ولذلك أضاف دون كيشوت مثله اسمَ بلده إلى اسمه فأصبح اسمُه: «دون كيشوت دي لامانش»، مقتنعاً أنه بذلك يجعل أسرتَه ومكانَ ولادته معروفين وجديرين بالاحترام من الأرض بأسرها.

http://www.ithar.com

وإذن فقد صَقَل سلاحه، وعَمِل من خوذته الناقصة خوذةً كاملة، وأطلق على حصانه إسماً جميلاً، واتّخذ لنفسه إسماً مجيداً، ولم يَبْقَ عليه، في اعتقاده، إلا أن يَبْحث عن سيّدة يحبّها، لأن الفارس الجوّال إذا خلا من الحب غدا كالشجرة التي خَلَتْ من ثمرها وعَريتْ من أوراقها، وكالجسم بلا روح. وقال في نفسه: إذا ما عَرَضَ لِسوءِ الحظ أو لحسن الحظ عملاقٌ، كما يقع، في الغالب، للفرسان الجوّالين، وإذا ما صرعتُه بضربةٍ واحدة، أو قطعتُه بالسيفُ نصفين، وانتصرتُ عليه، أفلا يكون من المستحسن أن أَجدَ مَنْ أهديه هذا الانتصار، إذ يذهب العملاق ليلقى سيدتي، فيجثو أمامها ويقول لها بصوتٍ متذلّلٍ مُفْعَمٍ بالاحترام: «سيدتي، أنا عملاق «كاراكولبامبرو»، سيّد جزيرة «مالندراني»، وقد غلبني في القتال الفرديّ الفارسُ الذي لا يُقْهَر والذي لا يَفيه حقَّه المدحُ وإن طال: «دون كيشوت دي لامانش».

وبأمره جئتُ أَرتمي عند قدميْ عظمتكِ كي تتصرّفي بـي كما تتصرفين بأحد تابعيك أو عبيدك». أوه! كم كان دون كيشوت مسروراً من نفسه حين رتَّب هذا الخطابَ، وكم كان فرحُه عظيماً عندما عثر على تلك التي ستكون سيّدة قلبه! كانت، في أغلب الظن، فلاحةً في غاية الجمال، ابنةَ فلاحٍ من قريته أُغرِم بها زمناً، دون أن تكون على علمٍ بذلك ودون أن تكترث له. كانت تُدعى «الونزا لورنسو»، وهي التي جعلها منذئذٍ سيدةَ أفكاره إلى الأبد؛ ثم فتّش لها عن اسمٍ لا يقلّ نبلاً عن اسمه ويكون فيه شيءٌ من أسماء الأميرات، فسمّاها «دولسينيه دي توبوزو» لأنها كانت من هذا المكان، وأعجبه هذا الإسمُ إعجاباً لا يَقلّ عن إعجابه باسمه وباسم حصانه.

• • •

http://www.ithar.com

# «الطلعة الأولى لدون كيشوت»

لم يشأ فارسنا، بعد أن أعدَّ لكل شيءٍ عدّته، أن ينتظر أطول مما انتظر لكي يقدّم نفسَه للجمهور، معتقداً أن تأخّره لا يجعله مُذنباً ومسؤولاً عن كل ما في العالم من شرورٍ ينبغي تداركُها ومظالم لا بدّ له من إزالتها. وهكذا، فَقَبْل أن يُعلمَ أحداً بما كان يفكّر فيه، وقَبْل أن يَفْطن إنسانٌ لذلك، وفي فجر يومٍ جميلٍ شديد الحرارة من شهر تموز، تقلّد سلاحه، وامتطى حصانه، وحمل درقته، وأمسك برمحه، وخرج من الباب الخلفيّ إلى السهل، وقد استخفّه الطربُ حين رأى أن تنفيذ مشروعه العظيم يبدأ بهذه السهولة: لكن ما ان أَصبح على مئة خطوة من منزله حتى كاد وَخْزُ ضميره يردّه إلى البيت ويَصْرفه كلياً عن ذلك المشروع.

لقد تذكّر أنه لم يُكرَّس بعدُ كفارس، إذ تقضي قوانينُ الفروسية الجوّالة أنه لا ينبغي له ولا يستطيع دون ذلك، أن يُصارع فارساً آخر، وحتى عندما يكرَّس فعليه أن يحمل سلاحاً أبيض ليدلّ بذلك على أنه فارسٌ جديد، ودون شعارٍ على درقته إلى أن يستحق الشعار بقوة ساعده.

http://www.ithar.com



هـذه الخـواطـرُ حَملتْـه علـى التـردد؛ لكـن جنـونـه كـان أقـوى مـن محاكماته المنطقية جميعاً، فقرّر أن يكرَّس فارساً على يد أول رجل يصادفه، وذلك على غرار كثيرين فعلوا ذلك قبله، كما قرأ في الكتب. أما فيما يتعلّق بلون السلاح فقد نوى أن يَجْلو سلاحه حتى يصبح أشدّ بياضاً من الثلج.

وهنا ارتاح فكرُه وتابع الطريق التي يَحْلو لحصانه أن يسلكها، ظنّاً منه أن جوهر المغامرة يَكْمن في ذلك. سار النهارَ كلَّه فلم يقع له شيءٌ يستحقّ الوقوفَ عنده؛ وقد ملأه ذلك بالأسى لفَرْط ما كان يتحرّق إلى اختبار شدّة بأسه.

أخذ يتطلّع إلى جميع الجهات لعل نظره يقع على قصرٍ أو على منزل فلاح يمكنه أن يأوي إليه. وبينما هو في طريقه أَبصر نُزُلاً، فكأنما رأى نجمةً تقودُه إلى شاطىء السلامة. وحثّ حصانه بالرغم من إعيائه، وبلغ النُزلَ في الوقت الذي أَخذ فيه النهارُ يتلاشى.



صادف عند الباب شابتين، مظهرُهما مريبٌ، وكانتا ذاهبتين إلى اشبيلية مع بغّالين توقّفوا هنا في هذه الليلة. ولما كان خيالُ فارسنا المغامر مليئاً بأحلام رواياته، وكان يَحْكم على الأشياء جميعاً من هذا المنطلق، فإنه لم يكد يُبصر النُزُل حتى تمثّله قصراً بأربعة أبراج وبجسره المتحرك مع حُفَره، ومع جميع الأشياء المُلازمة للقصور التي لا ينفكّ المؤلفون يُضْفُونها عليها. توقّف على بضع خطواتٍ من هذا الحصن الجديد، وانتظر أن ينفخ القزمُ في بوقه من أعلى المرقب، لينبّه إلى وصول الفارس؛ لكنه

http://www.ithar.com

عندما رأى أن القزم لم يظهر وأن «روسينانت» أخذت تَفْقد صبرها طلباً للإسطبل، تقدّم نحو باب النُزُل حيث رأى الفتاتين الآنفتي الذكر اللتين حَسِبهما آنستين مرموقتين تتبرّدان عند باب القصر. واتّفق في تلك اللحظة أن راعي خنازير كان قريباً من القصر، بوّق ببوقه الصغير مرتين أو ثلاثاً ليجمع خنازيره، فلم يشكّ دون كيشوت أن الذي بوّق (كما كان يتمنّى) قزمٌ أَخْطَر القصرَ بمجيئه. وعلى الفور، دنا بفرحٍ لا سبيل إلى وَصْفه، من الباب الذي وقفتْ عنده الفتاتان، فخافتا من هذا الرجل المدجّج بالسلاح مع ترسه ورمحه وهَمّتا بالفرار. لكن دون كيشوت الذي لاحظ خوفهما رفَعَ واقيةَ الخوذة الكرتونية فكشف عن وجهه الجاف والمغبر وقال لهما بلطفٍ وبصوت رصين: لا تهربا، أيتها الآنستان، فليس هناك ما تَخْشيانه؛ إن نظام الفروسية التي أمارسها لا تسمح لي بإهانة أحد، فكم بالحريّ الآنسات الجميلات الفاضلات مثلكما. توّقّفتا ونظرتا بدهشة إلى هذه الصورة الغريبة لمغامرنا؛ بيد أنهما عندما سمعتاه يدعوهما آنستين، وهو أمرٌ لم يقعْ لهما من قبل، لم تتمالكا نفسيهما من الضحك؛ بحيث أن دون كيشوت الذي لم يعرف ممَّ تضحكان، غضب حقّاً وقال لهما: «التواضعُ والرزانة يليقان بالحسناوات، وهذا نصيبهنّ، أما الضحك دون سبب فهو سذاجةٌ تقترب من الجنون. ولست أقول هذا، يا آنستيّ، لكي أهينكما، إذ ليس لي في نهاية الأمر، من هدفٍ سوى خدمتكما.

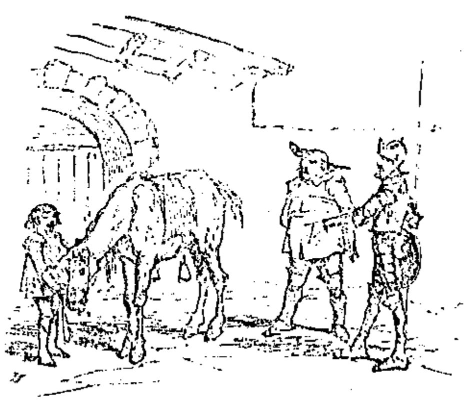
هذه الطريقةُ الجديدة في الكلام زادتْ أيضاً من رغبتهما في الضحك، فزاده ضحكُهما حزناً. ولا شك أنه ما كان ليقتصر على ذلك لولا أن شاهَدَ صاحبَ النزل يخرج. ولما رأى صاحبُ النزل هذه الصورة المشوّهة والمسلحة، على نحوٍ غريب، بالدرع والرمح والدرقة، راودته

http://www.ithar.com

الرغبةُ في الضحك بمقدار ما راودت الفتاتين. إلا أنه كان أكثر خوفاً منهما أمام عُدَّة الحرب هذه، فقرّر أن يتعامل معه باحترام وقال له: مولاي الفارس، إن كنتَ تبحث عن مأوى فلن يُعوزك شيءٌ هنا سوى السرير؛ وما سوى ذلك فهو متوافرٌ.

رأى دون كيشوت أدبَ حاكم القلعة (هكذا بدا له صاحبُ النزل والنُزل) فأجابه: «أيها السيّد سيّد القصر، أَقلُّ الأشياءِ تكفيني، ولستُ أدّعي الرقة والرهافة، ولا آبه للزينة، لأن أسلحتي هي زينتي وهي عدّتي، ولا راحةَ لي إلا في القتال».

لم يفهم صاحبُ النُزل في البداية لماذا دعاه دون كيشوت سيّد القصر، لكن بما أنه كان داهيةً أندلسياً، ولصاً مُغرقاً اللصوصية في مهنته، أجابه: «على هذا الأساس، يا سيدي، ستكون الحجارة سريراً وثيراً لسيادتك، وأنا على يقين أنك لا تنام إلا لِماماً كالحارس الليلي. وهكذا، يُمكنك أن تترجّل، وستتأكدّ من أنك ستجد هنا ما تقضي به لا ليلةً واحدة دون نوم فحسب بل سنة كاملة».



قال هذا وأمسك بِركاب دون كيشوت الذي ترجّل عن حصانه بمشقّةٍ، شأنُه شأنُ الرجل الذي لم يتناول فطوره بعد في الساعة التاسعة

http://www.ithar.com

مساء. رجا دون كيشوت صاحبَ النزل أن يأمر رجاله برعاية الحصان، مؤكداً أنْ ليس بين جميع الحيوانات التي تأكل العلفَ ما هو أفضل منه. تأمَّلَ صاحبُ النزل الحصانَ فلم يجده بهذه الجودة التي وصفه بها دون كيشوت، ولا بنصفها. وبعد أن زوّد الحصانَ بما يلزمه في الإسطبل، جاء ليرى ما يطلبه فارسُنا، فوجده يَنْزع سلاحه بمعونة الآنستين المزعومتين اللتين تصالح معهما. خَلَعتا عنه درعه، لكنهما عجزتا بالرغم من الجهد الشديد عن فكّ واقية الرقبة ولا رفع الخوذة التي كانت مربوطة بشرائط خضر لم يمكنهما حلّ عقدها دون قطعها، وهو أمرٌ لم يقبل به، بحيث قضى ليلته وخوذتُه على رأسه، ممّا جعل هيئته أغربَ هيئة وأَحْفلَها بالطرافة.

ومع ذلك كان سعيداً بطَلْعته الأولى، وجعله نجاحُها يأمل كثيراً بما سيتلوها. الشيء الوحيد الذي كان يُحزنه هو أنه لم يُكرَّسْ بعد كفارسٍ حاملٍ للسلاح، لأنه لا يستطيع قانونياً دون ذلك أن يَشرع في أية مغامرةٍ.

● ● ●

http://www.ithar.com

# «الطريقة الممتعة التي كرّس فيها النبيل دون كيشوت فارساً على يد صاحب النزل»

إن فارسنا المغامر الذي عذّبه القلقُ المُشار إليه قبل قليل، اختصر طعامه الذي لا لحم فيه، وترك المائدةَ بغتةً، وقاد صاحبَ النزل إلى الاسطبل. وبعد أن أغلق الباب جثا على ركبتيه وقال له بفرح غامر: «لن أنهض من هنا، أيها الفارس المقدام، قبل أن تَهَبني سيادتُكَ ما أطلبُه منك، وما سيؤول إلى مجدك مثلما سيؤول إلى منفعة الناس جميعاً. «دُهش صاحبُ النزل من رؤيته جاثياً عند قدميه ومن سماعه هذا الكلام الذي يخاطبه به، فنظر إليه دون أن يعلم ماذا يفعل وماذا يقول، وألحَّ عليه كي ينهض، لكن إلحاحه ذَهَب سُدىً، إلى أن وعده بتحقيق ما يأمله. أجابه دون كيشوت: «الهِبة التي أطلبُها منك والتي وعدتني بها متلطّفاً هي أن تتفضّل علي غداً منذ طلوع النهار بتكريسي فارساً وأن تسمح لي في هذه الليلة بالسهر على السلاح في كنيسة قصرك استعداداً لتلقّي صفة الفارس المجيدة التي طالما تمنّيتُها بكثيرٍ من الحماسة، والتي ستتيح لي أن أبحث عن المغامرات في جميع أرجاء العالم، فأقدّم المعونة للمحزونين، وأُعاقب الأشرار بحسب قوانين الفروسية الجوّالة التي أمارسها.

http://www.ithar.com



كان صاحبُ النزل الذي كان ماكراً، كما قلنا، قد شكّ أن في هذا الفارس شيئاً من الجنون، فلما سمع الكلمات الأخيرة ثَبَتَ شكُّه، فصمّم أن يُلبيّ طلبه، آملاً أن يجد في ذلك ما يضحكه ويسلّيه، فقال له حينئذٍ: إن مَقْصده محمودٌ، وأنه أحسن الإختيار، وأنْ لا شيء أجدرُ من ذلك بالفرسان البواسل، وهو منهم على ما يبدو من هيئته، وأنه هو نفسه ــ صاحب النزل ــ قد مارس الفروسية في شبابه، فطاف في جميع أنحاء العالم بحثاً عن المغامرات، ولم يترك قُرنةً في ضواحي ملقّه، وجزر «ريااران»، وأرباض اشبيلية، وأسواق «سيغوفيه»، وحدائق الزيتون في بلنسيه، وساحة غرناطة، وشاطىء «سان لوكار»، ومرفأ قرطبة، وفي أصغر حانات طليطلة، إلاّ جَرَّب فيها خفّةَ رجليه ويديه، وأنه اعتكف أخيراً في هذا القصر الذي يعيش فيه من دَخْله ودَخْل الآخرين، ويَسْتقبل فيه جميعَ الفرسان الجوّالين، مهما تكن صفتُهم ووضعهم، بالمحبة التي يكنّها لهم، ولكي يقاسمهم ما عنده من خيرات، في مقابل الخير الذي يؤدّونه للعالم.

وأضاف أنْ ليس في قصره كنيسةٌ للقيام بالسهر على السلاح، لأنه هَدمَ الكنيسةَ القديمة ليبني كنيسةً جديدة، لكنه يعلم أن هذا السهر يمكن أن يتمّ في أيّ مكان نشاء، ويستطيع دون كيشوت أن يسهر هذه الليلة في فناء القصر الذي كان كالمُعَدّ لهذا الغرض، وسوف يَنتهي احتفالُ التكريس

http://www.ithar.com

منذ الصباح، أي أنه سيصبح فارساً كأيّ فارس في العالم، في مدى خمس ساعات أو ست. وأضاف صاحبُ النُزل: وهل تَحْمل مالاً؟ قال دون كيشوت: هل أحمل مالاً؟ ليس معي فلسٌ واحد، ولم أقرأ في أية روايةٍ أن الفارس الجوّال يَحْمل معه مالاً. قال صاحبُ النزل: أنت مخطىءٌ في ذلك؛ فإذا كانت الكتبُ لا تذكر ذلك فلأنه أمرٌ طبيعيٌ، ولا يمكن تخيّلُ الفرسان الجوّالين بلا مال ولا قمصان غيار. وكنْ على يقين أن الفرسان الجوّالين الذين تمتلىء بهم الكتب كانت أكياس نقودهم جاهزةً إذا دعت الحاجةُ، وكانوا يحملون معهم ثياباً داخلية كافية، وعلبةً ملأى بالمرهم لدهن الجراح. فحين يخوضون تلك المعاركَ الرهيبة وسط الغابات والصحاري، لا يجدون الجرّاح الذي يضمّد لهم جراحهم في الوقت المناسب، وقد يموتون ألفَ مرةٍ قبل أن يمرّ أحدُ هؤلاء الجراحين، إلاّ أن يكون أحدُ الحكماء السَحَرة صديقاً لهم فيرسل إليهم في السحابة آنسةً أو قزماً ومعهما قمقمٌ مملوءٌ بماءٍ يمتاز بأن قطرةً واحدةً منه على طرف اللسان تَردُّ العافيةَ والنضارةَ لصاحبها، وكأنه لم يُصَبْ بسوءٍ. لكنْ بما أن ذلك لم يكن مؤكّداً، فلم يكن يفوتهم أن يأمروا تابعيهم بأن يتزوّدوا بالمال وبالأشياء الأخرى الضرورية كالمرهم وخِرَق الضماد، وإذا ما اتّفق أن الفارس الجوّال كان بلا تابعٍ، وهو شيءٌ نادرٌ جداً، فقد كان الفارس نفسه يحمل هذه العدةَ في حقيبته، ويرتّبُ وضعها على كفل الحصان بحيث لا تَظْهر للناظر. وأضاف صاحبُ النزل، وهكذا، فأنا أنصحكَ، بل آمرك بصفتك ابناً لي في الفروسية كما سأكرّسك بعد قليل، ألاّ تسير دون مالٍ ودون الأشياء الضرورية، وسترى أن راحتك ستكون أعظم عندما تفكّر في هذه الأشياء، تفكيراً أقلّ.

http://www.ithar.com

أكّد له دون كيشوت أنه سيأخذُ بنصيحته، وما لبث أن استعدّ للسهر على الأسلحة في فناءٍ واسعٍ بجانب النزل. جمع كلَّ ما معه من سلاح ووضَعه على معلفٍ، قرب البئر وحَملَ درقَته وأمسك برمحه وأخذ يتمشى أمام المعلف، وقد بدا عليه السرورُ والاعتزازُ معاً. كان الظلامُ مخيّماً عندما بدأ هذا التمرين، أما صاحبُ النزل الذي كان يشتهي أن يتلهّى فإنه أخبر جميعَ مَنْ في النُزل عن جنون هذا الرجل، عن سهره على السلاح، وعن نفاد صبره لكي يُكرَّس فارساً، فتجّمعوا وأخذوا ينظرون إليه من بعيد فرأوه يتمشى تارةً، وتارةً أخرى يتّكىء على رمحه ويطيل النظر إلى أسلحته.

بيد أن الظلام أخذ يَنْجاب، ذلك أن القمر نشَر أشعّتَه الباهرة، وغدا ممكناً أن يُرى بوضوح ما كان يفعله الفارسُ. وخطرتْ لأحد البغّالين الموجودين في النزل نزوةٌ وهي أن يسقي بغاله. وكان لا بد لذلك من رَفْع الأسلحة عن المعلف. لكن دون كيشوت الذي رآه مقبلاً صاح بصوتٍ عالٍ ينمّ على الافتخار: «أيها الفارس المتهوّر، الذي بلغتْ به الجرأة أن يقترب من سلاح أَبسل من تقلّد السيف، إياكَ أن تفعل ما لا تُحمَد عقباه، ولا تتجاسرْ، أيّاً كنتَ، على مَسِّ سلاحي إذا كنتَ لا تريد أن تدفَع حياتك ثمناً لتهوّرك». لم يكترث البغّالُ الأخرقُ لتهديد دون كيشوت؛ على العكس، تناول البغّال الأسلحة ــ وكأنما فعل ذلك عن احتقار لدون كيشوت ــ ورماها بعيداً. حينئذٍ رفع دون كيشوت عينيه إلى السماء وخاطب محبوبته ذهنيّاً، قائلاً لها: «ساعديني، يا سيدتي، في هذه المناسبة الأولى التي تَعْرض لعبدكِ، ولا تَحْرميني حمايتكِ في هذه المغامرة». قال هذا، وتخلّص من درقته، وأمسك رمحه بكلتا يديه، وطعَنَ به رأسَ هذا

قالت له الآنسةُ الظريفةُ وهي تقلّده السيف: «لِيمنحْك الله النصرَ في المعارك، أيها الفارسُ المغامر!». رجاها أن تعرّفه باسمها حتى يعلم لمن هو مَدينٌ بهذه الخطوة وحتى يتقاسم وإياها المجدَ الذي سيناله ببسالةِ ساعده. أجابت الحسناءُ أنها تُدعى: «لا تولوزا»، وأنها ابنةُ بائعٍ بالمفرّق في طليطلة، وأنها تَعْمل في دكان «سانشو بيينايا، وأنها ستكون دائماً خادمته المتواضعة أينما كانت». قال لها دون كيشوت: أرجوك، إكراماً لي، أن تتّخذي لكِ اسماً نبيلاً في المستقبل وأن تُدعَيْ منذ الآن: «دونا تولوزا». «فوعدته بذلك. ووضعتْ له الحوريةُ الأخرى مهمازَه. ودار بينهما حديثٌ مشابه: سألها ما اسمُها؛ قالت له إنها تدعى «الطحّانة» وأنها ابنة طحّانٍ محترم في «انتيكيارا». فرجاها أن تغيّر اسمها إلى اسم نبيل وشكرها شكراً جزيلاً على ما قدّمت له من خدمة. بعد انتهاء هذا الاحتفال الرائع، كان دون كيشوت يتحرّق شوقاً إلى التجوال بحثاً عن المغامرات، فأسرع إلى حصانه، وأسرجه، وامتطى صهوته، وعانق صاحب النزل وهو على ظهر حصانه، وشكره وأثنى عليه ثناءً طويلاً للفضل الذي أغدقه عليه حين كرّسه فارساً، وألقى عليه كلاماً غريباً يَصْعب نقلُه.

سَعِدَ صاحبُ النزل بالتخلص منه فردّ على ثنائه بثناءٍ وبالأسلوب ذاته، لكنه كان أكثر اقتضاباً؛ وتركه يمضي دون أن يطلب منه. نفقةَ إيوائه وإطعامه.

• • •

http://www.ithar.com

# «ما جرى للفارس الجديد عندما خرج من النزل»

بدأ النهار ينبلج عندما غادر دون كيشوت النزلَ سعيداً لأنه أصبح فارساً، وحتى حصانه أحسّ بتلك السعادة. لكنه تذكّر نصيحةَ صاحب النزل المتعلّقة بالأشياء التي لا بدّ له من التزوّد بها، فصمّم على العودة إلى بيته ليتزوّد بالمال وبالقمصان وليؤمّن مرافقاً تابعاً له؛ وكان ينوي أن يُعيّن فلاحاً من جيرانه، فقيراً ومُعْيِلاً.

عاد أَدراجَه إلى القرية، بهذه النيّة، وكأنما أحسّ الحصانُ بوجهةِ صاحبه فأخذ يجري بكثير من الخِفَّة والحركة حتى لم تكد تمس قوائمُه الأرضَ.

سار دون كيشوت قرابةَ فرسخين عندما أبصر جماعةً كبيرة من الناس آتية على الطريق نفسها، وكانوا، كما عُلِم فيما بعد، تجّاراً من طليطلة ذاهبين لشراء الحرير من «مرسيه». كانوا ستةً على جيادٍ فارهة ومعهم مظلّاتهم، وأربعة خدّامٍ على جيادهم، وثلاثة مشاة يقودون البغالَ.

لم يكد دون كيشوت يراهم حتى تخيّل أن هناك مغامرةً جديدة ولكي يقلّد الكتبَ التي قرأها قدر المستطاع خُيِّل إليه أن هذه المغامرة من المغامرات التي طالما داعبتْ أَحلامه والتي جاءت في محلّها المناسب.


http://www.ithar.com

فثبَّت نفسه في الركابين، وركّز رمحه ودرقته، واستقرّ في منتصف الطريق وقد بدا عليه الإباءُ والعُجْبُ والعزْم الصادق، وانتظر هؤلاء الذين ظنّهم فرساناً جوّالين. فلما دَنَوْا منه بحيث يَسْمعونه، صاح فيهم بكبرياء: «لا يَخْطُرَنَّ لأَحدكم أن يمرّ من هنا قبل أن يعترف أنْ ليس في سائر العالم سيدةٌ تعادل في جمالها ملكةَ «المانش» التي لا مثيلَ لها، «دولسينيه دي توبوزو».

توقّف التُجار لدى سماعهم هذه الكلمات، ليتأمّلوا الشكلَ الغريب لهذا الرجل، والكلامَ الغريب الصادر عنه. لم يَطلْ بهم الأمرُ حتى عرفوه على حقيقته؛ لكنهم أرادوا أن يعلموا ما القصدُ من الإعتراف الذي طالبهم به، كما أرادوا أن يتسلّوا، فأجابه أحدُهم وكان ظريفاً سريع النكتة: «مولاي الفارس، نحن لا نعلم من هي تلك السيدة الجميلة التي تتحدث عنها؛ أَرِنا إياها فإذا كانت جميلةً كما تقول اعترفْنا لك عن رضاً واختيار بما تشاء.

ردّ عليهم دون كيشوت:

ــ إذا ما رأيتموها فأيُّ فَضْلٍ لكم إذا اعترفتُم بحقيقةٍ ناطقةٍ من ذاتها؟ المهمُّ أن تعتقدوا ذلك دون أن تروها، وأن تُقسموا على ذلك، وأن تؤيدوا قسمكم بحمل السلاح على أيّ كان. اعترِفوا بذلك إذن على الفور، أيها المتكبّرون المتعجرفون وإلا تحدّيتكم؛ وما عليكم إلا أن تأتوا واحداً بعد الآخر كما يَقْضي بذلك نظامُ الفروسية، أو أن تأتوا جميعاً كما هي العادة لدى الناس الذين هم من طينتكم. إني انتظركم وبي كلُّ ثقةِ الرجل الذي يعلم أن الحقَّ بجانبه.

وفي الوقت نفسه جرى مسرعاً وقد مدَّ رمحه، قاصداً بكثيرٍ من الهياج الرجلَ الذي تكلم، ولولا أن الحصان تعثّر، لحسن الحظ، لأصاب

http://www.ithar.com

ذلك التاجرَ المتهوِّر من السوء ما أصابه. لقد هوى «روسينانت» أرضاً وتدحرج بعيداً مع صاحبه الذي بذل أقصى جهده لينهض، دون أن يُفلح في ذلك، لشدّة ما أعاقَتْه درقتُه وركاباه، وثقلُ أسلحته العتيقة. ولكن بينما كان يبذل جهوده سدىً، لم يكفّ لسانُه عن التهديد. كان يصرخ: لا تلوذوا بالفِرار؛ انتظروا أيها الجبناء، الغلطةُ غلطةُ حصاني لا غلطتي حين هَوَيْتُ على الأرض.

أحدُ البغَالين من خدم التجار لم يكن صبوراً، ولم يستطع أن يحتمل إهانات الفارس المسكين وتحدّياته، فانتزع منه رمحَه وكسّره وأخذ يلطم بجزئه الغليظ دون كيشوت لطماً شديد القوة حتى حطّمه، بالرغم من أسلحته، كما القمحُ تحت الرحى. وعبثاً صاح به التجارُ ليكفّ عن الضرب إلا أنه ازداد شغفاً به وأعجبته هذه اللعبةُ إلى حدٍّ لم يستطع معه أن يَحْبس نفسه عنها. وبعد أن كسر أول قطعة من الرمح لجأ إلى القطع الأخرى، واستخدمها الواحدة بعد الأخرى على النبيل المغضوب عليه، الذي ظلّ، بالرغم من سَيْل الضربات التي انهالت عليه كالبَرَد، يهدّد ويتوعّد السماءَ والأرض وقُطّاع الطرق كما ظنّ. وأخيراً تَعِب البغّالُ من الضرب، وتابع التجارُ طريقهم، وكان لهم من ذلك كله مادةً للحديث.

رأى دون كيشوت نفسه وحيداً، فحاول أن ينهض من جديد؛ لكنه إن لم يستطع أن ينهض وهو صحيح الجسم، فكيف ينهض وهو محطّم مفكّك الأوصال؟ لكنه كان، بالرغم من ذلك كله، سعيداً بهذه النكبة التي بدتْ له طبيعيةً بالنسبة إلى الفرسان الجوّالين، وكان عزاؤه في ذلك هو أنه استطاع أن يَنْسِبَ الغلطةَ إلى حصانه.

● ● ●

http://www.ithar.com

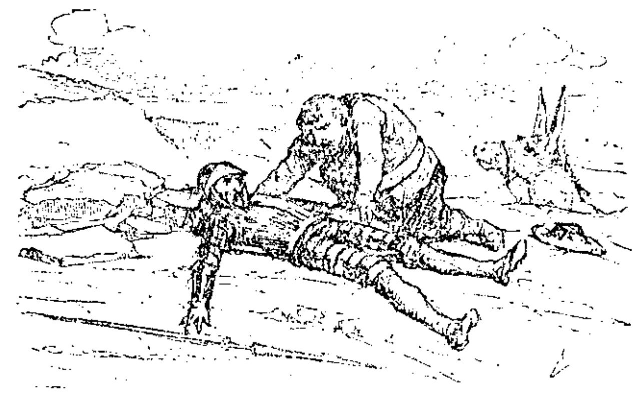
# «تتمة النكبة التي حلّت بفارسنا»

لما رأى دون كيشوت أنه لا سبيل بالفعل إلى النهوض، لجأ إلى علاجه العادي وهو أن يفكّر في مقطعٍ من كتبه، وما لبث أن عَرَضَ له جنونُه الخصب المقطعَ الذي يتناول «بودوان» والمركيز «دي مانتو» عندما ترك «شارلو» بودوان جريحاً في الجبل، وهي قصةٌ يعرفها الصغارُ والكبار. وبدت له هذه القصة كأنها جرت عمداً للحالة التي كان فيها، فبدأ يتدحرج على الأرض مثل رجل يائس، ويردّد بصوتٍ ضعيف الكلمات التي أَنطقَ المؤلِّفُ بها فارسَ الغابة: «أين أنتِ، أيتها السيدةُ، التي لا يكاد يؤثِّر فيها مصابي؛ فإما أنَّكِ لا تَرَيْنه، وإما أنَّكِ مزيَّفةٌ وغادرة».

ولما كان مستمرّاً في إلقاء ما حَفِظَه من الكتاب ووصل إلى هذا الموضع: «يا مركيز دي مانتو النبيل، يا عمي»، اتّفق أن مرّ فلاحٌ من قريته وجارٌ له يَحْمل حملاً من القمح إلى الطاحونة، وعندما رأى الرجل ممدّداً سأله مَنْ هو، وماله يشكو هذه الشكاةَ الحزينة؛ لم يَفُتْ دون كيشوت الذي كان يعتبر نفسه «بودوان» أن يعتبر الفلاحَ المركيزَ دي مانتو، عمَّه، فلم يُجب بغير الأشعار التي حفظها والتي تَروي جميعَ نكباته، وحبَّ امرأته لابن الامبراطور، كلمةً كلمة. كما جاءت في الرواية.

http://www.ithar.com

دهش الفلاحُ عند سماع مثل هذه الغرائب، فنزَع عنه واقيةَ الوجه في الخوذة التي تحطّمت من ضرَبات البغّال، وغَسلَ له وجهه الذي امتلأ بالغبار، فعرفه وصاح: «ايه! يا الهي، السيد كيشادا، (مما يدلّ على أنه كان يُسمَّى كذلك عندما كان بكامل عقله) مَنْ الذي فَعَل بك ذلك؟ مَنْ الذي أَوْصلكَ إلى هذا الوضع؟ لكن دون كيشوت استمرّ في إلقاء ما حفظه ولم يجب بكلمةٍ من عند نفسه، أيّاً كان كلامُ الرجل. رأى هذا الرجلُ الطيّبُ أنه لم يمكنه الحصول منه على أيّ شيء، فنزع عنه واقية الصدر في الدرع، والدرعَ، ليكشف عن جراحه: لكنه لم يجد جراحاً ولا آثار الضربات، وبعد أن أَنْهضه بكثيرٍ من المشقة، أَرْكبه حماره ليكون نقلُه أكثر هدوءاً. ولم يَنْسَ الأسلحةَ، فجمَعَ حتى شظايا الرمح وربطها جميعاً ووضعها على «روسينانت» الذي قاده بعنانه، وساقَ الحمارَ أمامه، وسار إلى القرية بهذه العُدّة، وهو يحلم ولا يَفْهم شيئاً من البلاهات التي كان يقولها دون كيشوت.



لم يكن دون كيشوت أقل ارتباكاً: كان محطّماً جداً بحيث لم يُحسن ركوب هذا الحيوان الوادع، وكان يئن، بين الفَيْنة والفَيْنة، أنيناً عالياً ارتفع إلى عنان السماء، ممّا دفَعَ الفلاحَ من جديد إلى أن يسأله عن الألم الذي

http://www.ithar.com

يحسّ به. فكأن الشيطان كان يتدخّل ويلتذّ في أن يَسوقَ إلى ذاكرة دون كيشوت جميعَ القصص التي لها علاقةٌ بالحالة التي كان فيها. في هذا الموضع نسيَ بودوان، لكنه تذكّر العربيّ ابن سراج، عندما أسره رودريغ دي نافاريس. فلما أعاد الفلاحُ عليه السؤالَ كيف يجد نفسه، ردّد عليه أقوال ابن سراج التي يخاطب بها رودريغ جملةً جملةً كما جاءت في رواية «ديان مونتيماجور» مطبّقاً ذلك كله على نفسه، فأثار حنقَ الفلاح بهذه الحماقات الغريبة؛ وأدرك الفلاحُ أخيراً أن هذا النبيل قد جُنَّ، فأسرع للوصول إلى القرية ليقصّر من أَمدِ الضجر الذي أَحدثتْه فيه هذه الخطبةُ الطويلة. لكن دون كيشوت ما كاد ينتهي فيها حتى بدأ كلامه من جديد على النحو التالي: «يجب أن تعلم، يا مولاي دون رودريغ دي نافاريس، أن «كزاريف» الجميلة التي حدّثتكَ عنها قبل قليل هي الآن «دولسينيه دي توبوزو» التي لا مثيل لها والتي من أجلها قمتُ وأقوم وسأقوم بأشهر مآثر الفروسية في أيامنا وفي المستقبل. أجاب الفلاح: ايه! يا سيدي، لم أكن قط رودريغ دي نافاريس، ولا المركيز دي مانتو، وإنما أنا «بيير الونزو»، جاركَ، وأنت لستَ «بودوان» ولا ابن داراكس، لكنك نبيلٌ طيّبٌ، السيد «كيشادا». ردّ عليه دون كيشوت: إني أَعرف مَنْ أنا، وأعلم جيداً أنني لا أستطيع أن أكون الذين ذكرتُهم فحسب، وإنما أستطيع أن أكون أيضاً أعيانَ فرنسا الإثني عشر، وفي الوقت نفسه البواسل التسع، لأن جميع الأفعال العظيمة لا يمكنها أن تُعادل أفعالي، ولو جُمِعَتْ معاً. هذه الخطبُ وأمثالُها رافقتهما إلى القرية التي وصلاها والنهار يوشك أن ينتهي؛ لكن الفلاح الذي لم يَشَأ أن يُرى نبيلُنا على ظهر هذه الدابة، انتظر بعضَ الوقت، فلما حلّ الظلام اصطحب دون كيشوت إلى منزله حيث كان

http://www.ithar.com

كلُّ شيء مضطرباً اضطراباً عظيماً في غياب صاحب المنزل. كان الكاهن والحلاق، وهما صديقاه الوفيّان، في المنزل، وكانت الخادمةُ تقول لهما: «حسناً! أيها السيد الكاهن بيرو بيريس (هذا هو اسم الكاهن) ما قولك في سيّدنا؟ لم نره لا هو ولا حصانه منذ ستة أيام. ولا بد أنه حمل معه درقته ورمحه وأسلحته الأخرى، لأننا لم نعثر عليها هنا. يا لي من بائسة! اسمعْ إلى ما أقوله لك، أنا على يقينٍ أن كتبَ الفروسية الملعونة التي كان يقرؤها عادة بكثيرٍ من الشغف هي التي شوّشتْ له دماغه.

قال الكاهن: «آه! أُقسم أنه لن يمرّ الغد قبل أن يُحكَم عليها بالحرق لتكون عبرةً لمن اعتبر: لقد أهلكتْ أفضل أصدقائي، لكني أتعهّد بأنها لن تُؤذي أحداً بعد الآن.

لقد قيلَ ذلك كلُّه بصوتٍ عال، حتى أن دون كيشوت والفلاح اللذين وصلا في هذا الوقت سمعاه، ولم يشك الفلاح فيما رابَه وهو أن دون كيشوت مريضٌ، فأخذ يصرخ بأعلى صوته: «يا سادتي، افتحوا الباب للمركيز دي مانتو والسيد النبيل بودوان، الذي عاد، وللمقدام «دون رودريغ دي نارفايس» حاكم «انتبكيره»، الذي يقود ابن دراكس أسيراً. فُتِح البابُ عند هذه الكلمات فتعرّف الكاهنُ والحلاقُ على صديقهما، وابنةُ الأخ عمَّها، والخادمة سيدها، وهُرعوا جميعاً إلى معانقته. قال دون كيشوت ببرودة دون أن يَقْوى على النزول عن حماره: أنا جريح بسبب غلطة حصاني: احملوني إلى الفراش، وَلْيأتِ الحكيمُ «اورغاند» حتى يُضمِّد لي جراحي. صاحتْ الخادمةُ: لقد حدّثني قلبي عن موضع الجرح. ادخل، يا سيدي، الحمد لله، واتركْ تشرّدكَ هنا؛ سنشفيك دونه. ملعونةٌ مئة ألف مرة هذه الكتب التي جرّتك إلى هذا الوضع.

http://www.ithar.com

نُقِل نبيلُنا إلى فراشه. وبينما هم يبحثون عن جراحه التي لم يجدوا لها أثراً، قال لهم: لستُ جريحاً، وإنما أنا مَدْعوكٌ، لأن حصاني سقط علي وأنا أقاتل عشرة عمالقة، ومن أبسل العمالقة في العالم. قال الكاهن: حسناً! حسناً! بدأ العمالقةُ عملهم! أقسم بكل ما هو مقدّس أن لن يبقى منها شيءٌ غداً قبل حلول الظلام.

ثم سُئِل دون كيشوت ألف سؤال، فلم يجب بشيءٍ سوى أنه طلبَ الطعامَ وأحبّ أن ينام: لم يكن بحاجةٍ إلى شيءٍ أكثر من حاجته إلى النوم. وقد استجابوا لرغبته. واستفهم الكاهنُ من الفلاح وبالتفصيل عن الطريقة التي وجده بها. فروى كلَّ شيء نقطةً نقطةً، مع جميع الغرائب التي قالها له الفارسُ حيث وجده، ثم وهو في طريقه إلى القرية: ممّا ثبّت الكاهنَ في عزمه الذي نَواه لليوم التالي، والذي واعَد من أجله المعلمَ نيكولا في منزل دون كيشوت.

• • •

http://www.ithar.com

## «الاعدام بالحرق الذي نفّذه الكاهن والحلاّق في مكتبة دون كيشوت. ورحلته الثانية»

كان بطلنا المُتعَبُ ينام نوماً عميقاً عندما دخَل الكاهنُ والحلاق المنزل وطلبا من ابنة أخيه مفتاحَ غرفة الكتب، فسلّمتهما المفتاحَ بطيب خاطرٍ. دخل الجميعُ الغرفة فوجدوا أكثر من مئة مجلّدٍ ضخم، وعدداً من المجلّدات الصغيرة، وكلّها حسنةُ التجليد ومستوفية الشروط. ولم تكد الخادمة تراهما حتى جاءت ومعها طاسٌ مملوءٌ بالماء المقدّس، وقالت للكاهن: يا سيدي الكاهن، رُشَّ هذا الماء في جميع أرجاء الغرفة لكي لا يأتي ويسحرنا أحدُ هؤلاء السَحَرة الملعونين الذين امتلأتْ بهم هذه الكتب، من غيظه لأننا نُريد طردَه من هذا العالم.

إبتسم الكاهنُ من هذه السذاجة، ودعا الحلاقَ إلى أن يرمي الكتبَ من النافذة وأن يكوّمها في الفناء لحَرْقها جميعاً أو لحَمْلها إلى الفناء الخلفي وتنفيذ الحُكم بإعدامها، تفادياً للدخان.

وهذا ما فعلته الخادمةُ بدقة في هذه الليلة؛ ومن أجل المزيد من الاحتراس، سدّ الكاهنُ والحلاقُ بابَ غرفة الكتب.

http://www.ithar.com



بعد يومين نهض دون كيشوت، وأوّلُ شيءٍ فعله هو التفتيش على كتبه: لكن بما أنه لم يجد الغرفة في المكان الذي تركها فيه، أخذ يدور في هذه الجهة وتلك، ويبحث فلا يستطيع أن يَحْزر الذي جرى؛ ذهب مئة مرة إلى مكان الباب وهو يتلمّس بيديه، وتطلّع حواليه دون أن يقول كلمة، ودون أن يفهم شيئاً من هذه المغامرة. وأخيراً سأل الخادمة، بعد أن أعياه البحثُ، في أية جهةٍ غرفة الكتب، فأجابت الخادمةُ التي كانت على علمٍ بما جرى: «أية غرفة، يا سيدي؟ كيف تبحث عمّا هو غير موجود؟ ليس في هذا البيت غرفةُ كتب ولا كتب؛ ألم يأخذ الشيطانُ كلَّ شيء. «وقالت ابنةُ الأخ: ليس الشيطان هو الذي أخذها وإنما أحدُ السَحَرةِ؛ لقد جاءَ ليلاً على سحابة» بعد ذهابكَ من المنزل وكان نازلاً على تنّين اعتلاه، ودخَل غرفتك، ولا أدري ماذا فَعَل فيها؛ لكنه طار بعد قليل من السطح، وترك البيت يعجّ بالدخان: وعندما قرّرنا أن نذهب لنعلم ما الذي فعله، لم نَرَ



http://www.ithar.com

الغرفةَ ولا الكتبَ، حتى ولا أدنى أَثرٍ يدلّ على وجودها. كلُّ ما أَذكرُه، والخادمةُ تذكر ذلك أيضاً أن ذلك الشيخ الخبيث قال بصوتٍ عالٍ وهو منصرفٌ إنه نشَرَ الفوضى التي نراها بسبب عداوته اللدودة لصاحب الكتب. وقال أيضاً إنه يُدعى الحكيم «موغناتون». قال دون كيشوت: قولي «فريستون»، ولا تقولي «موغناتون». قالت ابنةُ الأخ: «لا أدري إن كان «فرايتون» أو «فريتون». لكنني أعلم أن اسمه ينتهي بـ «تون». فردّ عليها دون كيشوت: «الحقُّ أنه ساحرٌ عالمٌ وأَلدُّ أعدائي، وهو يُضمِر لي حقداً مُميتاً لأن فنّه أَعْلَمَه أني سأقابل ذات يومٍ في قتالٍ منفرد فارساً شاباً يحبّه ويَحْميه، لكنه يَعْلم أنني سأنتصر عليه بالرغم من كل علمه، وبسبب حنقه عليّ يحاول أن يكدّر لي حياتي ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ لكن، فَلْيَعْلَم أنه مخدوعٌ مغرورٌ، وأنه لا مجال لتفادي ما أَمَرتْ به السماءُ.



http://www.ithar.com

هلّلتْ ابنةُ الأخ كثيراً، كما هلّل الكاهنُ والحلاق لنجاح الخدعة؛ لكن دون كيشوت كان بعيداً جداً عن الانصراف عن الفروسية. كان يحثّ كلَّ يوم سراً فلاّحاً من جيرانه، وهو إنسانٌ خَيِّرٌ (إن جاز الكلام كذلك عمّن هو فقير)، لكنه طائشُ العقل. وأخيراً أغراه بالكلام الحلو والوعود المعسولة، وأغراه إغراء شديداً بحيث أقنعه أن يكون تابعاً له. وقال له دون كيشوت بين أشياء أخرى: إنه لا ينبغي أن يخشى شيئاً حين يأتي معه؛ وأنه سيربح الكثير ولن يخسر شيئاً، وأنه ربما أعطاه بدلاً من القش والزبل اللذين سيتركهما، حُكمَ إحدى الجزر. بهذه الوعود وغيرها من الوعود المؤكّدة غُرِّر بـ «سانشو بانسا» (هذا هو اسم الفلاّح) فترك امرأته وأولاده وتبع جاره بصفته مرافقاً تابعاً له وحاملاً لسلاحه.

بعد أن أمّن دون كيشوت تابعاً له، صَرَف همّه إلى توفير المال، فباع أرضاً، ورهَن أخرى، وخَسِر فيما باع واشترى، وجَمَعَ مبلغاً وافراً. وتزوّد أيضاً بدرقةٍ استعارها من أحد أصدقائه، وأصلح خوذته على قدر المستطاع وأَبلغَ مرافقَه باليوم وبالساعة اللذين يَنْوي السفرَ فيهما لكي يتزوّد هو أيضاً بالعدّة الضرورية له: لكنه حرص على أن يأمره، على الخصوص، بأن يتزوّد بخرجٍ. أجاب «سانشو» أنه سيفعل ذلك، وأنه يرغب في الإتيان بحماره، وهو حمار شديدُ القوة وإن لم يتعوّد السير الكثير. استوقف ذِكْرُ الحمار «دون كيشوت»، الذي اعتقد أنه لا ينبغي أن يَسْمح لتابعه أن يأتي بحماره؛ ذلك أنه بعد أن استعرض في ذاكرته جميعَ الفرسان الذين كان يعرفهم لم يجد أحداً منهم يتبعه حاملُ السلاح على حماره. ومع ذلك، فقد قَبِل، وفي نيّته أن يمنحه مطيّةً أفضل في أول مناسبةٍ يُسقِط فيها فارساً فظّاً خشناً عن جواده. وتزوّد أيضاً بقمصانٍ وبأشياء أخرى ضروريّة، تبعاً


http://www.ithar.com

للنصيحة التي قدّمها له صاحبُ النزل. نُفِّذ ذلك كله سرّاً، فلم يودِّع سانشو زوجتَه وأولاده، ولم يذكر دون كيشوت شيئاً لخادمته وابنة أخيه، وخرج الرجلان ليلاً من قريتهما، وأغذّا السير بحيث اعتقدا، عند مطلع الصباح، أنْ لن يَلْحقَ بهما أحدٌ يرى من واجبه اللحاق بهما.



كان سانشو بانسا يسير على ظهر حماره كالشيخ الجليل ومعه خرجُه ومطَرتُه، وهو نافذ الصبر لكي يرى نفسه حاكماً للجزيرة التي وعَدَه بها سيّدُه. سلك دون كيشوت الدربَ الذي سلكه في المرة الأولى، أي عبر سهول «مونتيل» بصعوبةٍ أقلّ من المرة الأولى، لأن الوقت كان مبكّراً وأن أشعة الشمس المائلة لم تضايقه كثيراً.

سارا زمناً دون أن يفوها بكلمة؛ لكن سانشو بانسا الذي لا يستطيع أن يبقى زمناً طويلاً دون كلام، فَتَح فمه أخيراً وقال لسيّده: «سيدي الفارس الجوّال، تذكَّرْ، أرجوكَ، الجزيرةَ التي وَعَدْتَني بها؛ لأنني سأحكمها على أحسن وجه مهما تكنْ كبيرة» فأجابه دون كيشوت: يجب أن تعلم أن ثَمّةَ عادةً مارسها، في كلّ الأزمنة، الفرسانُ الجوّالون وهي أن يمنحوا حاملي سلاحهم حُكمَ الجزر والممالك التي يحتلّونها؛ وأنا مصمِّمٌ

http://www.ithar.com

على ألاّ أَدَعَ هذه العادةَ المحمودَةَ تَضيع، بل إني أنوي أن أمضي في الأمور إلى أبعد من ذلك. فبدلاً من أن أولئك الفرسان كانوا لا يكافئون مرافقيهم إلا إذا طعنوا في السن وعجزوا عن الخدمة، سيكون من الممكن إذا ظللنا على قيد الحياة، أن أكسب، قبل مرور ستة أيام، مملكةً مترامية الأطراف يرتبط بها الكثيرُ من الممالك، وأن أكون قادراً على تنصيبك ملكاً على إحداها: ولا تَحْسَبْ أن ذلك أمرٌ غريب، فمثل هذه الحظوظ كثيراً ما تقع للفرسان الجوّالين، وتقع بوسائل مجهولة جداً وبسهولة فائقة بحيث انني قد أمنحك أكثر ممّا وعدتُك به. قال سانشو: بناءً على ذلك، لو كنتُ ملكاً بمعجزة من المعجزات التي تُحسن فعلها، لأصبحتْ «جان كوتيير»، زوجتي، ملكةً على أقل تقدير، ولأصبح أولادنا أولياء للعهد. ـ أجاب دون كيشوت:



ـ ومَنْ يشكّ في ذلك؟ ردّ عليه سانشو: أنا أشك شكاً قليلاً، لأنني أرى أن السماء لو أمطرتْ تيجاناً لما وجدنا تاجاً يناسب رأسَ امرأتي؛ الواقع، يا سيدي، أنها لا تساوي بصلةً فكيف تكون ملكةً، ومرتبة «كونت» أكثر ملاءمةً لها، وأيضاً ليكنْ اللهُ في عوننا، قال دون كيشوت: توكّلْ على الله في كل شيء، وسوف يمنحكَ أفضل ما يلائمك. قال سانشو: سأكون كذلك، يا سيدي، وأنا أُفوّض الأمرَ إليك، وأنت السيد الكريم الذي يَعْرف كيف يُعطيني ما يلزمني، وعلى قدر ما يمكنني حمله.

• • •

## «النجــاح الــذي أحــرزه البــاســل دون كيشوت في المغامرة الرهيبة التي لم يسمَع بمثلها، مغامرة طواحين الهواء، والمعـركـة الضـاريـة ضـد عشـريـن بغّـالاً»

في أثناء هذا الحديث، اكتشف دون كيشوت ومرافقُه من بعيد ثلاثين أو أربعين طاحونة هواء، وما أن رآها الفارس حتى قال: إن القدر يقودنا خيراً مما كنّا نأمل يا صديقي سانشو؛ هل ترى جماعة العمالقة الضخام تلك؟ إني أنوي قتالهم والفتكَ بهم. ولْنَبْدأ بالإثراء من غنائمهم، فذلك أمرٌ مشروعٌ، وعندما نُزيل من وجه الأرض هذه الفئةَ الفاسدة فإنما نخدم الله. قال سانشو بانسا: «وأين العمالقة؟» ــ قال دون كيشوت: هؤلاء الذين تراهم هناك بأذرعهم الطويلة التي لا يقلّ طولُها عند بعضهم عن فرسخين ــ أجاب سانشو: احترسْ، يا سيدي، فما تراه هناك ليس عمالقةً وإنما هو طواحين الهواء، وما تظنّه أذرعاً إنما هو أجنحة الطواحين التي يحرّكها الريح ليُدير الطواحين.

ــ قال دون كيشوت: يتّضح لي أنَّك خالٍ من الخبرة فيما يتّصل بالفروسية. هؤلاء هم العمالقة، وإذا كنتَ خائفاً فانسحبْ من هنا وقفْ جانباً متضرِّعاً؛ أما أنا فسوف أهاجمهم، وإن كانت المعركة غير متكافئة.


http://www.ithar.com



قال هذا وهَمَز حصانَه، مع أن سانشو كان على يقينٍ أنها طواحين الهواء وليست عمالقة. كانت عمالقة حقّاً عند دون كيشوت فلم يسمع صراخ مرافقه. وكان كلما اقترب منها ازداد إيماناً بأنها عمالقة، وأخذ يَصْرخ بملء صوته: «لا تهربوا، أيها الجبناء! أيتها الكائنات النذلة والخسيسة؛ «لا تهربوا، فالذي ترونه يَشْرع في قتالكم فارسٌ وحيد». وهبَّ شيءٌ من الهواء في تلك اللحظة وأخذت الأجنحةُ الضخمة تتحرك. قال دون كيشوت وهو يُضاعف من شدّة صراخه: عبثاً تحرّكين تلك الأذرع التي تفوق بعددها أذرع العملاق «بريياريه»، فسوف تنالين جزاءَكِ عمّا قليل. وفي الوقت نفسه تضرّع من كل قلبه لسيّدته «دولسينيه»، ورجاها أن تهبَّ لنجدته أمام هذا الخطر الداهم، ثم تغطّى بدرقته وسدّد رمحه، وجرى بكل قوة «روسينانت» فحَمَل على أقرب الطواحين إليه، ولقيَ أحدَ


http://www.ithar.com

الأجنحة، لكن الهواء ثار حينئذٍ فحمل الجناح في دورانه الرمحَ وقطّعه قطعاً، ورمى الفارس والحصان بعيداً جداً في الحقل، وهما في حالة سيئةٍ للغاية.

هُرِع سانشو جَرْياً على حماره، ورأى أن سيّده لا يَقْوى على الحركة لأن سقوطه على الأرض كان شديداً. قال سانشو: «ليكن الله في عَوْننا. ألم أقل لكَ إنك يجب أن تنتبه لما تفعل وأنها كانت طواحينَ هواء؟ ومَنْ يمكنه أن يشكّ في ذلك إلا مَنْ كان في عقله خَلَلٌ». قال دون كيشوت: «اسكتْ، يا صاحبي، إن حِرْفةَ الحرب عرضةٌ لنزوات القدر، أكثر من غيرها، فهي في تقلّب مستمرّ. لكن أتريد أن أقول لك ما أفكّر فيه؟ وما أقوله هو الحقيقة بلا مِراءٍ: إن الساحر «فريستون»، الذي نهَبَ كتبي وغرفةَ الكتب حوّل عمالقتَه إلى طواحين ليَسْلبني النَصرَ الذي كنتُ سأُحرزه، لفَرط ما هو كارهٌ لي ساخطٌ علي؛ لكنْ لا بدّ في نهاية الأمر من أن يَخْضع علمُه لحدّ سيفي». ــ أجاب سانشو: «فلتكن مشيئةُ الله، يا سيدي!:» ثم ساعده على النهوض، كما ساعده على اعتلاء الحصان الذي كان كأن كتفه نصفُ مخلوعة. وسارا في طريق «لابيس» وهما يتحدّثان عن هذه المغامرة؛ وإنما اختار دون كيشوت هذه الطريق لأنها كثيرة العبور، ولأن من غير الممكن، كما قال، ألاّ يلقيا فيها الكثير من المغامرات.

حينئذٍ قال سانشو: «ألم يحن وقتُ الطعام، يا سيدي؟ يبدو لي أن ذلك لا يَخْطر ببالك». ــ أجاب دون كيشوت: «لستُ جائعاً الآن، أما أنت فتستطيع أن تأكل إذا كنتَ تشتهي ذلك». اعتدل دون سانشو، بعد هذا الإذن، في جلسته على حماره، وأَخرجَ من خرجه ما حمله، ومضى يأكل خلف سيده، ويحتسي من مطرته بين الحين والآخر بلذةٍ تثير شهيّة


http://www.ithar.com

كل من يراه. وبينما هو ذاهب هكذا، مزدرداً لُقَمه، متذكّراً وعودَ سيده لا أسرتَه، مستبعداً أن تكون هذه المهنة قاسيةً، لم يكن يتخيّل سوى المتعة بالبحث عن المغامرات مهما تكن مليئةً بالمخاطر.



قَضَيا ليلتهما تحت الأشجار، وقطع دون كيشوت غصناً جافّاً قوياً يصلح لأن يكون رمحاً، وفيه ركّز رأس الرمح الذي انتزعه من بقايا الرمح السابق. مضى الليلُ ولم تغمض له عينٌ، مفكّراً دائماً في «دولسينيه»،



http://www.ithar.com

لكي يُقلِّد ما قرأه في الروايات حيث يقضي الفرسانِ لياليَهم في الغابات والصحاري وهم يتحادثون عن ذكرى محبوباتهم. لكن سانشو الذي كان أكثر نزوعاً ماديّاً لم يَقْضِ ليلته مثله. كانت معدتُه ملأى فأَغْفى، وظلَّ في غفوته ممدّداً على الأرض حتى شروق الشمس التي ما كان لأشعتها التي انصبّت على عينيه أن توقظه، وما كان لزقزقة العصافير في كل مكان أن تنبّهه، لولا أن ناداه سيّدُه بأعلى صوته خمس مرّات أو ستّاً. وما أن نهض المرافق اليَقظ حتى تصدّى لزجاجة الخمر، ولكن بكثيرٍ من الأسف لأنه رآها أخفّ مما كانت عليه في مساء اليوم الذي فات، ولأنه لم يَرَ من وسيلة لإصلاح ما أصابها من نقصٍ في الطريق. لم يهتم دون كيشوت بتناول فطوره، فقد شبع من خواطره عن محبوبته، وكانت خواطرَ غضّةً شهيّةً أَغْنته عن الطعام. ركبَ كلٌّ منهما دابته، واستأنفا سيرهما على طريق مرفأ «لابيس»، فوقعا عليه في حوالي الساعة الثامنة. صاح دون كيشوت: «هاهنا، يا صديقي، سانشو، تستطيع أن تَغْرف المغامرات غَرْفاً. لكن اصغِ إليّ، إني انبّهكَ، إياك أن تستلَّ سيفكَ عندما ترى أعظمَ الخطر مُحدقاً بـي، إلا إذا رأيتَ الأوباش والأنذال من أمثالكَ يهاجمونني: ففي هذه الحالة يمكنك أن تُبادر إلى نجدتي؛ أما الفرسان فلا تسمح لك قوانينُ الفروسية أن تتصدّى لهم بأية طريقةٍ من الطرق، إلى أن تُكرَّس فارساً. ــ قال سانشو: «تأكّدْ يا سيدي، إنني سأُطيعكَ بدقة، ولا سيما أنني مُسالمٌ جداً بطبعي وأنني عدوٌ لدودٌ للمشاجرات. والواقع أنني فيما يتّصل بالدفاع عن نفسي عندما أُهاجَم، لن أهتمّ بالقوانين لأن القوانين الإلـهية والبشرية تسمح لكل واحد بأن يدافع عن نفسه». قال دون كيشوت: «أوافقك على ذلك؛ أما أن تُنجدني ضد الفرسان فليس لك إلاّ أن تَدْعوَ لي. وعلى كل

حال، يجب عليك أن تكبح بسالتَك الطبيعية». قال سانشو: «ألم أقل لك إني سأتقيّد بذلك. وأنا أعدك أن أراعي هذه التوصية كما أراعي يومَ الأحد».

عندما انتهيا من هذا الكلام وجدا نفسيهما في مرجٍ مليءٍ بالعشب النديّ، وكان يسقيه جدولٌ جميل. دعاهما خريرُ الماء وجمالُ المكان وتضارتُه إلى أن يتخلصا من حرّ الظهيرة فيه. فترجّلا وتركا روسينانت والحمار يرعيان حيث يحلو لهما، وأَنزلا الخرجَ فأكلا معاً، دون تكلّف، ممّا فيه. لم يكلِّف سانشو نفسه أن يضع شِكالاً لروسينانت، إذ عهدُه به هادئاً وريِّضاً ويمكنه تركُه على سجيته، ورسنُه على عنقه، كما يُقال؛ لكن ما إن قطع بضع خطوات في هذا المرج حتى أبصرَ دون كيشوت وسانشو من بُعدٍ حوالي عشرين بغّالاً منهمكين في إنزال السرج والمتاع عنه.

قال دون كيشوت: «يا صديقي، سانشو، يبدو لي أن هؤلاء ليسوا فرساناً لكنهم أوباشٌ أفظاظ؛ ويمكنك أن تُساعدني على الانتقام للإهانة التي ألحقوها بي عندما هاجموا حصاني. قال سانشو: «هيه! أيّ انتقام هذا، وهم عشرون ونحن اثنان فقط. ولا أعلم أيضاً إن كان يجب أن نُعَدَّ واحداً ونصف. ــ أجاب دون كيشوت: «إني أساوي عشرين، أنا وحدي» ولم يتريّثْ أكثر من ذلك. فاستلّ سيفه، وهاجم البَغّالين بقوة، فلما رآه سانشو، ثارت حميّتُه، وجرَّدَ سيفَه وحَمَل على الأعداء. ضرب دون كيشوت ضربة كبيرة بالسيف أولَ من وقَع تحت يده، فشقّ طوقَه الجلدي وقدَّ جزءاً كبيراً من كتفه؛ وكاد يجرب حظّه مع آخر، لولا أن البغّالين الذين خجلوا من أن يُرهَقوا على أيدي رجلين، لجؤوا إلى عصيّهم



http://www.ithar.com

وأحاطوا بالفارس وبمرافقه وأوسعوهما ضرباً بهمةٍ ونشاطٍ عجيبين. وبما أنهم كانوا يفعلون ذلك بحماسةٍ فقد انتهوا من العملية بسرعة؛ سقط سانشو أرضاً من هجمتهم الثانية عليه وانهيالهم عليه بالضرب كلّ بدوره، ولم تنفع شجاعةُ دون كيشوت وبراعتُه، فقد أصابه ما أصاب مرافقه، ذلك أنه انقلب بين قائمتي روسينانت الذي لم يستطع النهوضَ بعد. لم يبقَ للبغالين ما يفعلونه، وخافوا من أن يكونوا قد أسرفوا فحمّلوا متاعهم على عجل وتابعوا طريقهم.

كان سانشو بانسا أول المغامريْن الذي تاب إلى رشده، فزحف إلى جانب سيّده وقال له بصوت ضعيف وشاكٍ: «سيّدي دون كيشوت! آه! سيدي دون كيشوت! «أجابه الفارس بلهجة أقلّ ما يقال فيها أنها جديرةٌ بالشفقة: «ماذا تريد، يا صديقي، سانشو؟» ــ قال سانشو: «أَما من وسيلةٍ لكي تعطيني جرعتين من ذلك الشراب الشافي، بلسم «فيرابرا»، إن كنتَ تحمل بالمصادفة شيئاً منه؟ فربما شفى العظامَ المكسورة كما يشفي الجراح الأخرى». أجاب دون كيشوت: «يا صديقي، لو كان معي شيءٌ منه لما احتجنا إلى أي شيءٍ آخر. وأنا أقسم لك، قسمَ الفارسِ الجوّال، إنني سأحصل عليه قبل يومين، إذا ظل لي يدان أستخدمهما». فردّ سانشو: «قبل يومين! وكم يلزمنا من الوقت، في اعتقادك، لكي نصبح قادرين على الحركة؟» ــ قال الفارس المحطَّم: «الحقيقة أني لا أدري ماذا أقول عن الطريقة التي أحسّ بها نفسي. لكني استحقّ ما جرى لي، وعليّ أن أتحمل مسؤوليته، لأنني حملتُ السيف بتهوّرٍ على أناسٍ لم يُكرَّسوا كفرسان. ولا شكّ عندي أن القدر لم يسمح بهذا العقاب الذي نالني إلا لأني خالفتُ قوانين الفروسية؛ ولذلك فإني أنبّهك، يا صديقي سانشو،



http://www.ithar.com

مرةً واحدة وإلى الأبد، ومن أجل مصلحتنا المشتركة، أنه إذا ما أهاننا أمثال هؤلاء الحقراء، فلا تنتظرني حتى أسلّ السيفَ عليهم، لأني لن أفعل شيئاً من ذلك؛ لكن بما أن القضية قضيتك، اشهرْ سيفكَ واقتَصَّ منهم كما تشاء. وإذا اتّفق وجاء فارسٌ إلى نجدتهم، أوه! فسوف أدافع عنك بأفضل طريقة! وأنت تعلم ما في ذراعي من قوة، وقد رأيتَ الأدلّةَ القاطعةَ على ذلك».

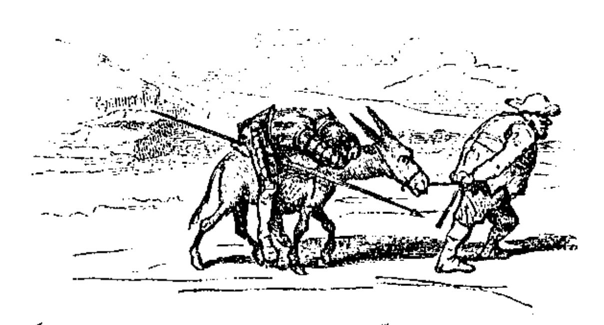
لم يجد سانشو رأيَ سيده صائباً بل رأى أن هناك مجالاً للطعن عليه، فأجابه: «لا أحب المشاجرات، وأنا أستطيع، والحمد لله، أن أَغفر الإهانة، لأن لي امرأةً وأولاداً. وليكنْ معلوماً، إذا شئت، انني لن أشهر سيفي، لا على الفارس ولا على الفلاح؛ وأنني أغفر لهم أمام الله جميع الإهانات الماضية، وجميع الإهانات التي يمكن أن يُقدمِ عليها، في المستقبل، أصنافُ البشر، أغنياء كانوا أم فقراء، نبلاء كانوا أم من عامة الشعب، ومن أي وضع أو شرط». ــ استأنف دون كيشوت كلامه: لو كنتُ على يقينٍ من أن نَفَسي لن ينقطعَ، ولو تركني الوجعُ الذي أحسُّ به في جنبي أتكلّم على هواي، لأَفْهمتكَ على الفور أنك لا تَعْرف ماذا تقول! ألا تعلم أن حياة الفرسان الجوّالين عُرْضةٌ لأَلْف حادثٍ مزعج، وأنهم يشعرون دون انقطاعٍ تقريباً بوجهيْ القَدَر، بحُلو الدهر ومرّه؟ فليس بينهم مَنْ لا يستطيع في كل لحظةٍ أن يصبح ملكاً أو امبراطوراً، كما رأينا ذلك غالباً، ولولا الوجعُ الذي أحسُّه لرويتُ لك قصة كثيرين اعتلوا العرش ببسالتهم وحدها. ولكن ليس بينهم مَنْ هو مُعْفَىً من تقلّبات الدهر وسوء الحظ، ويمكنني أن أُريك كيف أن كثيرين من هؤلاء قد وقعوا في مصائب غريبة.

http://www.ithar.com

ألم يقعْ «اماديس الغول» العظيم تحت سلطان الساحر «اركالاوس» ألدّ أعدائه، أوليسَ من المؤكَّد أن هذا الساحر الغادر قد جلَدَه مئتيْ جلدة بعد أن ربطه بعمود في فناء القصر؟ لكن لندعْ هذا الكلام الذي لا طائل تحته ولنحاولْ، نحن الإثنين، أن نستمدَّ القوة من ضعفنا. لِننظرْ أَولاً ماذا أصاب روسينانت. ويبدو لي أن هذا الحيوان المسكين شارك بقسطٍ وافرٍ في هذه المغامرة. قال سانشو: «الواقع أنه مريضٌ حقاً. وكيف يَخْلو من المرض وهو لا يقل عن غيره في الفروسية الجوّالة؟ ليس هذا هو ما يدهشني، وإنما أن دابتي نَجتْ بجلدها دون أن تُصاب بشعرةٍ واحدةٍ، في حين أننا لم يبق لنا، نحن الثلاثة، ضلعٌ سليم». ــ ردّ عليه دون كيشوت قائلاً: «في أعظم الدواهي، يترك القدرُ باباً للخروج منها، وهذا الحيوان الركيك سينوب عن روسينانت المصاب لكي ينقلني من هذا المكان إلى أحد القصور لأُضمَّد فيه. ولستُ أَجدُ عاراً في ركوب مثل هذه الدابة، فأنا أذكرُ أنني قرأت أن «سيلين» العجوز، الأب المُعيل للإله «باخوس» قد ركب حماراً جميلاً، وكان مرتاحاً جداً، عندما دخل المدينةَ ذات الأبواب المئة. ــ قال سانشو: لو كنتَ تستطيع أن تركب الحمار كما ركبه لكان ذلك شيئاً حسناً، لكن هناك فرقاً بين وضعية الإنسان على حصانه ووضعيته وهو ممدّدٌ بالعرض وكأنه كيسٌ من الطحين، لأنني أعتقد أنك لا يمكن أن تَعْلوه بغير هذه الوضعيّة. ــ فردّ عليه دون كيشوت: إن المُزعجات التي قد تنجم من المعارك ليست عاراً؛ وهكذا، لا تردّ عليّ، يا صديقي «بانسا» أكثر مما رددتَ، وحاولْ فقط أن تنهض، وضَعْني على حمارك كما يتيسّر لك، ولنرحلْ من هذا المكان قبل أن يُداهمنا الليلُ.



http://www.ithar.com



لم ينهض سانشو إلا بمشقّة، وظل منحني الظهر كالقَوْس دون أن يتمكن من الانتصاب. وكان عليه، وهو في هذه الوضعيّة أن يذهب ويأتي بالحمار الذي استغلّ حريته في هذا النهار فنأى عن المكان بعيداً ونَعِمَ بخيرات الآخرين. وبعد أن هيّأ سانشو الحمار، حاول أن يُنْهِض «روسينانت»، ولم يَخْلُ ذلك من المشقة لكلا الإثنين. كان العرق يتقطّر من سانشو، ولو عرف «روسينانت» الكلامَ لاشتكى بمرارة أشدّ من صاحبه وخادمه. وأخيراً، وبعد جهودٍ وصياح، وضَعَ سانشو دون كيشوت بالعَرْض على الحمار، ورَبَط الحصان به، وأمسك بمقوده واتجه نحوما اعتقد أنه الطريق العامة. مرّتْ ثلاثة أرباع الساعة، وحينئذٍ اكتشفا، لحسن حظهما، نُزلاً، عدَّه دون كيشوت، قصراً بالرغم من مظهره الهزيل. كان مرافقه يؤكّد بعناد أنه نُزُلٌ والفارس يؤكّد أنه قصر؛ ودام النقاش الحادُّ طويلاً بينهما فلم يَنْتِهِ حتى وجدا نفسيهما على بابه، ومنه دخَل سانشو بقافلته الصغيرة، دون أن يكلّف نفسه معرفةَ مَنْ المُصيب ومَنْ المخطىء.

• • •

http://www.ithar.com

# «ما جرى لدون كيشوت في النزل الذي عدّه قصراً»

دهش صاحبُ النزل حين رأى هذا الرجل ممدّداً على الحمار، فسأل سانشو عمّا به، وأجاب سانشو أن ما به ليس شيئاً هاماً، وأنه سقط من أعلى الجبل إلى سفحه، وأن أضلعه مكسّرة قليلاً. وكانت امرأةُ صاحبِ النزل امرأةً محسنةً، خلافاً للنساء اللواتي هنّ في مهنتها، وكانت تشارك القريبَ في أحزانه؛ ولذلك لم تكد ترى دون كيشوت حتى فكّرت في تخفيف آلامه، وساعدتها فتاةٌ لها لا بأس بشخصها.

وكانت تَخْدم في النزل نفسه فتاةٌ «استوريةٌ»، عريضة الوجه، مسطّحة قفا الرأس، لها أنف أفطس، وعينٌ حولاء، وعينٌ لا تكاد ترى فيها؛ كانت حازمةً، وكانت لدونةُ جسدها تعوّض عما يَنْقصها من محاسن. كانت قامتها لا تتجاوز ثلاث أقدام، وكانت كتفاها تُثقلان بقية جسدها بحيث يشقّ عليها النظر إلى الأعلى. هذه الخادمة اللطيفة ساعدت ابنة صاحب النزل على تضميد دون كيشوت، وبعد ذلك أعدّتا له سريراً سيّئاً جداً في موضعٍ لم يكن يصلح، على الأرجح، إلا لخزن العَلَف.


http://www.ithar.com



لم تلبث صاحبةُ النزل وابنتُها أن وضعتا له لَزَقاتٍ من قدميه حتى رأسه، على ضوء مصباح حملته الاستوريةُ التي تُدعى «ماريتورن». وعندما رأت صاحبة النزلِ الرضوض في كل مكانٍ من جسمه قالت: «الحقيقة أن هذه الرضوض أشبه بآثار الضَرْب منها بالسقوط». ــ قال سانشو: مع ذلك فهي ليست من آثار الضرب، وإنما لأن الصخرةَ كانت مسنّنةً، فترك كلّ سنّ منها رضّتَه. وأضاف: على كل حال، احتفظي، من فضلك، بشيءٍ من كتّان الضماد؛ فإن لنا به حاجة، لأن خاصرتيّ تؤلمانني أيضاً.

ــ قالت صاحبة النزل: وأنت أيضاً وقعتَ.

ــ أجاب دون سانشو: لا لم أقع، وإنما أُصِبْتُ، من جرّاء الرعب الذي حلَّ بـي، عندما رأيت معلّمي يسقط، بشيءٍ في جسدي كله لم أدرِ ما هو، وكأنني تلقّيتُ ألفَ ضربة عصا.

ــ قالت «ماريتورن» حينئذٍ: وما اسمُه، معلّمُك؟

http://www.ithar.com

ـ أجاب سانشو: «دون كيشوت دي لامانش»، الفارسُ الجوّال، وأحد أصدق الفرسان الذين رأيناهم منذ زمن بعيد.

ـ قالت الاستوارية: فارسٌ جوّال؟ وما معنى ذلك؟

ـ قال سانشو: ماذا! أأنت جديدةٌ إلى هذا الحدّ في هذا العالم؟ اعلمي، يا أختي العزيزة، أن الفارس الجوّال شيءٌ يُرى دائماً وهو يوشك أن يُصبح امبراطوراً أو أن يُوسَعَ ضرباً؛ يُرى اليوم أكثر المخلوقات بؤساً، ويُرى غداً وهو مالكٌ لثلاث ممالك أو أربع يُعطيها مُرافقَه.

كان دون كيشوت يُصيخُ السمعَ للحديث، فظنّ أن من الأدب أن يُشارك فيه، فاعتدل في جلوسه على قدر استطاعته، وتناول يدَ صاحبةَ النُزل بمودّةٍ وقال لها: «صدّقيني، يا سيدتي الحسناء، أنك يمكن أن تعدّي نفسك سعيدةً إذْ أَتيحتْ لك الفرصةُ لاستقبالي في قصرك. ولن أُضيف شيئاً على ذلك لأنه لا يَليق بالفارس أن يَمْدح نفسه؛ لكن مرافقي الأمين سيُعْلمكِ مَنْ أنا. كلُّ ما أقوله لك هو أنني سأحتفظ بذكرى أفعالك الحميدة ما حييتُ، ولن أُفوّت أبداً المناسبات التي أُظهر فيها امتناني لجميلِكِ.

وأضاف وهو ينظر نظرةَ غرامٍ لابنة صاحبة النزل: ليت الحبَّ لم يُخضعني لقوانينه، وليت عينيْ الفاتنة التي لم تحفظ الوداد لم تسلبني حريتي! إذن لضحّيتُ بها عن طيب قلب على قدمي هذه الآنسة الحسناء.

ذُهلتْ صاحبةُ النزل وابنتُها «وماريتون» الطيبة عندما سَمِعْنَ كلامَ فارسنا الذي لم يَفْهمْنَه وكأنه باليونانية، وإن لم يَشْككْنَ أنه ثناءٌ وعروضٌ عاطفية؛ وبما أن هذه اللغةَ كانت جديدةً كلّياً، فإنهن لم يفعلن شيئاً سوى


http://www.ithar.com

أنهن كنّ يتبادلْنَ النظرات أو يَنْظرن إليه نفسه كرجلٍ من نوعٍ خاص. ومع ذلك فقد شكرْنَه على عروضه بلغة النُزُل الريفية؛ وبعد أن حيّيْنَه بكثير من التواضع خَرَجْنَ. لكن ماريتون قبل ذلك عُنِيتْ بتضميد سانشو الذي كانت حاجتُه إلى الضماد لا تقلُّ عن حاجة سيّده.

نهض سانشو الذي لم يستطع النومَ قبل بزوغ الفجر، وصاح غيرَ مرةٍ من الألم الذي كان يحسّ به، ومضى يتلمّس طريقه بحثاً عن صاحب النزل، وقال له: «يا سيدي، كن مَنْ شئتَ، وأَحْسِنْ إلينا بإعطائنا شيئاً من نبتة ندى البحر والخمر والملح والزيت؛ نحنُ بحاجة إلى ذلكَ كي نضمّد أحد أفضل فرساننا الجوّالين في العالم». عند سماع صاحب النزل هذا الكلام من سانشو عرَفَه على حقيقته، لكنه أعطاه مع ذلك كلَّ ما طلبه؛ حَمَل سانشو ذلك كله إلى سيده دون كيشوت فوضع ذلك كله في وعاء وغَلاه حتى نضج المركّب الذي أراده، طلب زجاجةً ليضعه فيها؛ لكنه لم يجد في النزل زجاجةً فاستعان بوعاء صغير من الصفيح كان يُوضَع فيه الزيتُ، تبرّع به صاحب النزل وتَلاَ بعد ذلك أكثر من مئة مرة صلاةَ «أبانا»، و«السلام عليك يا مريم»، والخلاص، ودستور الإيمان، مُرْفقاً كلَّ كلمة بعلامة الصليب على شكل مُبارَكَةٍ.

عندما انتهى دون كيشوت من صُنع هذا المركَّب، أراد أن يختبره من ساعته؛ وبدلاً من أن يَدْهَن به جروحَه بأَناةٍ ابتلع مقدار كأس كاملةٍ كما يُبْتَلع الشرابُ الشافي للجروح. لكنه لم يكد يتناول هذه الجرعةَ حتى أخذ يتقيّأ بكل قوة حتى لم يبق له شيءٌ في معدته؛ سبّب له المجهود الذي بذلَه عرقاً خفيفاً. فطلَبَ أن يُغطّوه وأن يَدَعوه ليستريح. نام ثلاث ساعات كاملة، أحسّ بعدها أن وجعه قد سكن، ولم يشكّ لحظةً أن ذلك ناتجٌ عن


http://www.ithar.com

مفعول ذلك البلسم الثمين، بلسم «الفيرابرا»، وأنه سيكون قادراً، بمعونة هذا المركّب، على الشروع في أخطر المغامرات دون أن يخشى شيئاً.

أما «سانشو بانسا» الذي رأى أن شفاء سيّده كان أعجوبةً، رجاه بإلحاح أن يدعه يتناول ما بقي في الوعاء؛ فقبلَ دون كيشوت. أمسك «سانشو» الوعاء بعروتيه وابتلعَ كميةً حسنة منه، أي بمقدار سيّده. لكن معدته كانت رقيقة جداً، فقَبْل أن يفعل الدواءُ فعله، اعترى هذا الرجلَ المسكينَ الغثيانُ والتعرّقُ الشديدان، وأُصيب بالغمّ المفرط حتى لم يشكّ بأن ساعته الأخيرة قد دَنَتْ؛ وفي هذه الحالة التي يُرثى لها لم يكفّ عن لَعْن البلسم والخائن الذي أعطاه إياه.

ــ قال له سيّده بجِدٍّ: يا صديقي سانشو، عُدَّني أوّلَ مخدوعٍ على الأرض إن لم يكن كل ما حصَلَ لك إنما حصَلَ لأنك لم تُكرَّس فارساً بعد. وأنا اعتبر أن هذا البلسم غيرُ صالح! لا للفرسان.

ــ أجاب سانشو: قلْ لي بحقّ الشيطان، ما الذي فعلتُه بك حتى تركتَني أذوقه فقط؟ ولِمَ لم تقلْ لي رأيك هذا إلا عندما أشرفتُ على الهلاك؟ في هذه الأثناء، فَعَل بلسمُ «الفيرابرا» مفعوله، وفَقَد جميعُ الحاضرين الأملَ في حياة المرافق المسكين؛ وبعد ساعة من هذه العاصفة، ألفى نفسه ضعيفاً مهدوداً حتى لم يكد يَقْوى على التنفّس، بدلاً من أن يخفّ ألمُه كما حدث لمعلّمه. لكن دون كيشوت أحسَّ، كما قلت، بعودة قواه إليه، فلم يشأ أن يُضيّع لحظةً في البحث عن المغامرات. قال لسانشو إنه لا بد من السفر، وأسرج على الفور حصانة بنفسه، ووضعَ على الحمار بردعته، وسانشو على البردعّة، بعد أن ساعده



http://www.ithar.com

على ارتداء ملابسه، ثم اعتلى حصانه وأمسك بنصفِ رمح رآه في زاويةٍ، وكان قوياً قوةً كافية لأن يُستَخْدَم كرمحٍ.

ومن نحو عشرين شخصاً كانوا في النزل، لم يَبْقَ واحدٌ إلا نظرَ إليه بدهشةٍ ولا سيّما ابنة صاحب النزل التي كانت تتأمّله بفضولٍ أكثر من غيرها. إذ لم تر مَنْ يُشبهه قط، أما هو فقد فسّر نظراتها تفسيراً مناسباً له، وكانت عيناه مُعلّقتين بها، وكان بين الحين والآخر يتنهّد تنهّداً صاعداً من أعماق أحشائه، وكان وحده يعرف الباعثَ على التنهّد، ذلك أنهم رأوه محطّماً عشيةَ أمس فتصوّروا سبب التنهّد وعَزَوْه إلى ألم جراحه.

عندما اعتلى بَطَلانا دابتيهما، كان أول ما فعله دون كيشوت أنه وقف عند عتبة الباب، ونادى صاحبَ النزل وقال له بصوت جهوري ورصين: أيها السيد، صاحب القصر، سأكون جاحداً إن لم أتذكر كلَّ اللطف والرقة اللذين تلقيتهما في قصرك. وإذا استطعتُ أن أقابل كلَّ هذا الشرف والفضل بالانتقام لك من إهانةٍ لحقتكَ فاعلمْ جيداً أن مهمّتي هي مساعدة الضعفاء ومعاقبة الخوَنة. فتِّشْ إذن في ذاكرتك، وإذا كان لك ما تشكوه من أحدهم، فما عليك إلا أن تُخبرني بذلك؛ وأنا أعاهدكَ، باسم الفروسية التي كُرِّستُ في نظام هيئتها، أنني سأثأر لتلك الإهانة».

أجاب صاحبُ النزل بالرزانة ذاتها: «أيها السيد الفارس، لستُ بحاجةٍ، والحمد لله، إلى الانتقام من أحد؛ وعندما أُهان، فبوسعي الانتقام لنفسي. كل ما أطلبه منك هو أن تدفع لي نفقة هذه الليلة التي قضيتها في النزل، وكذلك ثمن العلف والشوفان اللذين أكلتْهما دابتاكما. إذ لا يجوز أن يخرج المرءُ من النزل دون أن يدفع النفقة.

ــ ردّ دون كيشوت: ماذا!! هذا نُزُلٌ؟

http://www.ithar.com

ـ قال صاحب النزل: نعم، ولا شك، ومن أفضل النزل.



ـ وأردف الفارس: لقد خُدِعْتُ حتى هذه الساعة. والحقيقة أني حسبتُه قصراً، وقصراً ذا أهمية. لكن بما أنه نُزُلٌ فلا بدّ أن تغفر لي في هذه اللحظة إذا لم أدفع النفقة؛ ولا ينبغي لي أن أخالف نظام الفرسان الجوّالين الذين أَعلمُ عنهم علمَ اليقين دون أن أقرأ حتى الآن العكس، أنهم لم يَدْفعوا شيئاً في النُزل، لأن العقل يقضي كما تقضي العادةُ، أن تُولَمَ لهم الولائم في كل مكان مجّاناً.

مقابل الأعمال الفذّة التي يفعلونها وهم يبحثون عن المغامرات ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، مشاةً وفرساناً، ويموتون تارةً من الجوع والعطش،



http://www.ithar.com

وتـارةً أخـرى مـن البـرد والحـرّ، ويتعـرّضـون دائمـاً لجميـع المُـزعجـات الموجودة على الأرض.

ــ فأجابه صاحبُ النزل: ذلك من هَذَر الفروسية التي لا شأن لي بها؛ ادفعْ لي فقط ما يتوجّب لي، ودعني من هذه القصص، فلست أُعطي مالي هكذا. ــ قال دون كيشوت: أنتَ مغرورٌ وصاحبُ نزل خبيث. ثم حنى رمحه، وهزَ فرسه بكلتا قدميه، وخرج من النزل دون أن يَعْترضه أحدٌ، وسار بعض الوقت دون أن ينظر إن كان مرافقُه يتبعه. وعندما رأى صاحبُ النزل أنه لا يمكن أن يأمل شيئاً من دون كيشوت، تشبّث بسانشو ليدفع له النفقة؛ لكنه أقسم أنه لن يدفع شيئاً كسيّده، وأنه لا يجوز إنكار امتيازه، بصفته مرافقاً للفارس الجوّال. وعبثاً غضب صاحبُ النزل وهدّد بأنه سيأخذ حقّه بيديه إن لم يدفع، وسيندم على ذلك طويلاً؛ وأقسم سانشو بنظام الفروسية الذي تلقّاه من سيّده أنه لن يدفع فلساً واحداً حتى لو سُلِخَ جلدُه، حتى لا يُقال ما سيلومه عليه مرافقو الفرسان الآتون عندما يذكرونه وهو أنه ضيّع بخطِئِه حقاً رائعاً وعادلاً.

ولسوء حظ المنكود الحظ سانشو، كان في النزل بعض بائعي الجوخ مـن قـرطبـة وبـائعـي الثيـاب الـرثّـة مـن سيغـوفيـا، وكلهـم أشـداء حازمون، حَدَتْهم روحٌ واحدة، فدَنَوْا منه، وأنزلوه عن حماره، بينما ذهب أحدهم يبحث عن غطاء سرير. وُضع سانشو المسكين في وسط الغطاء، ولما رأوا أن سقف الغرفة لم يكن علوُّه كافياً لتنفيذ مَقْصدهم، خرجوا إلى الفناء الذي كان في علوه فَضْلةٌ. أمسك أربعةٌ أقوياء منهم بأطراف الغطاء الأربعة وأخذوا يرمونه في الهواء ويعيدون رميه حتى اثنتي عشرة قدماً أو خمس عشرة في الهواء.



كانت الصرخات الرهيبة التي يطلقها المخدوعُ المسكين تَبْلغ مسامع سيّده الذي ظنّ أن السماء تدعوه إلى مغامرة جديدة؛ لكنه سرعان ما أدرك أن هذا الصراخ آتٍ من مرافقه، فأرخى العنان «لروسينانت» نحو النزل الذي وجده مُغلقاً. ولما كان يدور بحثاً عن مدخلٍ رأى من فوق جدران الفناء التي لم تكن مرتفعةً، سانشو وهو يصعد ويهبط على موجات الهواء بكثير من الرشاقة والخفة، ولولا الغضب الذي كان يتملّكه لما تمالك



http://www.ithar.com

نفسه من الضحك. لكن هذا اللعب لم يَرُقْ له مع ما هو فيه من سوء المزاج، وحاول عدة مرات أن يَثب ظهر جواده إلى أعلى الجدار، لكنه عَدَلَ عن ذلك لأنه كان مرضوضاً، حتى لم يكنْ بمقدوره أن يضع رجله على الأرض. كلّ ما استطاع أن يقوله هو شَتْم الخدّاعين وتحدّيهم بأقوال لا يمكن كتابتُها: لكن هؤلاء الساخرين القُساة لم يكفّوا عن فعلتهم وازدادوا ضحكاً؛ ولم يستفد سانشو أيضاً لا من رجائه ولا من تهديده، وبعد أن فترت همتهم مرتين أو ثلاثاً، تركوه من الإعياء، وغطّوه بسترته، وأعادوه محفوفاً بالمحبة إلى الموضع الذي أخذوه منه، أي إلى ظهر حماره.

أما «ماريتورن» المُشفقة التي لم تستطع أن ترى دون ألم المعاملة القاسية التي عُومل بها سانشو، فقد حملتْ إليه من فورها إبريقاً من الماء البارد استقتْه من البئر، وبينما كان يرفع الماءَ إلى فمه، أوقفه صوتُ معلّمه، الذي كان يُناديه من وراء الجدار: «يا بني، يا سانشو، لا تشربْ من هذا الماء، لا تَشْرب، يا ولدي، وإلاّ متَّ؛ أليس معي ها هنا البلسم الإلٰهي الذي سيشفيك في لحظة؟ «وأراه وعاء الصفيح وهو يقول ذلك. أَدار سانشو رأسه عند سماعه هذه الصرخات ونظر إليه بطرف عينه وقال: «أنسيتَ، يا سيدي، أنني لستُ فارساً؟ احتفظْ بشرابك لعصبة الشياطين، ودعْني وشأني» وفي الوقت نفسه أَخذ يشرب؛ لكنه عندما أحسّ لدى أول جرعة أن ما يشربه ليس سوى ماء، لم يستطع أن يمتنع عن الشرب، ورجا «ماريتورن» أن تأتيه بشيء من الخمر: وهو ما فعلته بقلبٍ راضٍ، ودفعتْ ثمنه من مالها الخاص. ولذلك قيل عنها: أن فيها شيئاً صالحاً، وإن كان غيرُها أكثر محاسبةً للنفس منها.

http://www.ithar.com

بعد أن شرب سانشو اقتيدَ بالتكريم إلى باب النزل، ومضى مسرعاً بحماره، ومسروراً جداً وخرج دون أن يدفع شيئاً، وإن كان على حساب خاصرتيه وكتفيه وهما الضامنان العاديان. نعم إن خُرْجَه ظلّ كَرَهْنٍ، لكنه طار فرحاً لم يفطن معه للخرج. وعندما رأى صاحبُ النزل أن سانشو في الخارج أراد أن يُغلق الباب بالمغلاق. لكن الخدّاعين الذين لم يكونوا يبالون بفارسنا، حتى لو كان من فرسان الطاولة المستديرة، رفضوا إغلاقَ الباب، ولعلهم ما كانوا ليَغْضبوا لو سنحت لهم فرصةُ التلهّي بالسيد كما تلهّوا بالخادم.

● ● ●



http://www.ithar.com

## الفصل التاسع

# «الاستيلاء على خوذة مانبران»

بينما كان دون كيشوت ومرافقه يَخْرجان من النُزل، قال الفارس لسانشو: «يا صديقي، سانشو، كان القدرُ، كما رأيتَ، معاكساً لنا حتى الآن، وقد خرجنا من هذا النزل بعد أن أُسيئت معاملتُنا كثيراً. ولذلك سأتّخذ منذ الآن اسماً هو «فارس الوجه الحزين» اقتداءً بـ «دون غالادر» الذي دعا نفسَه «الفارس المحروم». ولم يكد يلفظ هذه الكلمات حتى أبصر خيّالاً يضع على رأسه شيئاً يلمع وكأنه من الذهب. فصاح: يا صديقي سانشو أتعلم أن لا شيءَ أصحّ من الأمثال؟ فهي حِكَمٌ مُستمدّةٌ من التجربة، ولا سيّما المثَل الذي يقول: إن الشيطان لا يكون دائماً عند باب المسكين. أقول لك ذلك لأننا إذا كنا قد أُسيئتْ معاملتُنا في الليلة الفائتة، فإن مغامرة مؤكّدة النجاح تَعْرض لنا في هذه الساعة، وهي تُقدّم لنا مجداً عظيماً لا بدّ من الحصول عليه. هوذا، على الأرجح، الذي يحمل خوذةَ «مانبران» الفخمة؛ إنه مُقبلٌ علينا، وأنت تعلم القَسَم الذي أَقْسمتُه. ــ أجاب سانشو: انتبهْ، يا سيدي، لما تقول وانتبه أكثر من ذلك لما ستفعل. ــ استأنف بطلُنا كلامه: ــ كيف تريد أن أُخطىء، أيها الحقيرُ الكافر الذي يشكّ في كل شيء. ألا ترى هذا الفارس المُقبل علينا على حصان أشهب مرقّط والذي يضع على رأسه خوذةً من الذهب؟ ــ أجابه مرافقُه: ما أراه

http://www.ithar.com

وأعيدُ النظر إليه هو رجلٌ يركب حماراً أشهب رمادياً، ويضع على رأسه شيئاً يلمع ــ قال دون كيشوت: حسناً، وما تراه هو خوذة «مانبران». ابتعدْ بضع خطوات، ودعْني وحدي؛ وسترى أنني، بدلاً من إضاعة الوقت في كلام «لا طائل تحته، سأُنجزُ هذه المغامرة في لحظة، واستولي على هذه الخوذة الثمينة التي طالما تمنّيتُها لي».

بيد أن من المُستحسن أن نعلم ما هذه الخوذة، وهذا الحصان وذاك الفارس الذين رآهم[1] دون كيشوت. ذلك أن في هذه المقاطعة قريتان إحداهما صغيرة جداً بحيث لم يكن فيها حلّاق؛ ولذلك كان حلّاقُ القرية الكبيرة الذي كان يهتم أيضاً بالجراحة يَخْدم القريتين. واتّفق أن رجلاً مريضاً في القرية الصغيرة احتاج إلى فَصْدٍ، وأن آخر احتاج إلى حلاقة لحيته، حتى أن الحلاق الذي قصد القرية وداهمه المطرُ في طريقه، وضع حوض الحلاقة على رأسه ليحافظ على قبّعته البالية؛ ولمّا كان الحوضُ من النحاس وجديداً، فقد شوهد وهو يلمع من على بعد نصف فرسخ. وكان الحلاق راكباً حماراً أشهب كما لاحظ سانشو بحقٍّ، وهذا هو بالذات ما خَيَّل إلى دون كيشوت أنه يرى فارساً على حصان أشهب مرقّط وعلى رأسه خوذةٌ من ذهب، لأنه كان يُوفِّق دائماً بين ما يرى وبين الغرائب التي قرأها في كتبه. وهكذا فعندما رأى الفارسَ المسكينَ يقترب جرى نحوه وقد أرخى عنان حصانه وسدّد رمحه، وعزم على أن يطعنه الطعنةَ النافذة. وصاح وقد أوشك على بلوغه: «دافعْ عن نفسك، أيها المخلوق الهزيل، أو أَعِدْ إليّ ما هو لي بحقٍّ».

---

(١) في الضمير هنا تغليب للعاقل على غير العاقل. المترجم.


http://www.ithar.com



رأى الحلاّقُ هذا الشيخ ينقضّ عليه فجأةً، دون أن يعلم لماذا، ولم يجد من وسيلةٍ لتفادي الطعنة إلا أن ينزلق عن ظهر حماره إلى الأرض؛ وسرعان ما نهض بخفةٍ وجرى في السهل بسرعة الغزال دون أن يكترث للحوض وللحمار.

عندما رأى دون كيشوت الحوضَ النحاسي ساقطاً على الأرض، رضي به ولم يطلب ما هو أكثر من ذلك، والتفت إلى مرافقه وصاح به: «يا صديقي، ليس هذا الوثنيُّ غبياً. فقد فَعَل ما يفعله حيوانُ القندس الذي علّمتُه الطبيعة كيف يتخلص من الصيادين بأن يَقْطع ما يلاحقونه من أجله: التقطْ هذه الخوذة. ـــ قال سانشو وهو يتأمل هذه الخوذة الثمينة: «ليس هذا الحوضُ سيئاً، فهو يساوي ريالاً وأكثر» وسلّمه إلى سيده الذي وضعه فوراً على رأسه، وأداره في جميع الجهات ليَعْثر على حِفافها، لكنه لم يقعْ

عليها، فقال: تباً لهذا الوثني الذي صُنعتْ هذه الخوذة الفاخرةُ له، فلا شك أن رأسه شديد الضخامة. لكن أسوأ ما فيها أن نصفها مفقودٌ. لم يتمالك سانشو نفسه من الإبتسام وهو يسمع دون كيشوت كيف يدعو حوضَ الحلاق خوذةً، وكاد يقهقه لولا أن كتفيه أحسّتا عدة مرات بغضب سيّده. سأله فارسُنا: ممَّ تضحك، يا سانشو؟ ــ أجاب سانشو: إنني أضحك من ذلك الرأس البشع الذي كان لصاحب هذه الخوذة التي تُشبه حوضَ الحلاق، كما تشبه قطرةُ الماء أختَها. ــ وأردف دون كيشوت: أتعلم فيمَ أفكّر؟ إني أفكر في أن هذه الخوذة الفريدة قد وقعت عَرَضاً بين يدي مَنْ لم يعرف قيمتها، ولم يَدْرِ ماذا يفعل بها فصهر نصفها حين رأى أنها من الذهب الخالص لَينتفع به، أما النصف الآخر فقد فعل به ما ترى، وهو، كما تقول، يشبه شبهاً لا بأس به حوضَ الحلاق. لكن، ليكنْ ما يكون؛ فأنا ــ وأنا أعرف قيمته ــ أهزأ من ذلك التحوّل الذي أصابه؛ وسوف أُصلحه وأعيد الخوذةَ كما كانت في أول مكان أجد فيه مصهراً للحداد، وأنا أزعم أنها لا تَقلُّ شأناً عن تلك التي صنعها «فولكان» لإله الحرب. ومع ذلك فسوف أضعها كما هي على رأسي، فهي خيرٌ من لا شيء، وهي على الأقل صالحةٌ لمقاومة الرَجْم بالحجارة. ــ قال سانشو: أوه! حسناً، لندعْ ذلك إلى مرةٍ أخرى، وقل لي، من فضلك، ما الذي تريد أن نفعله بذلك الحصان الأشهب المرقّط الذي يبدو وكأنه حمارٌ أشهب رمادي والذي تركه سائباً بلا صاحب هذا الشيطانُ الجوّال الذي صَرَعْتَه. وإذا ما حكمْنا عليه من سرعةِ فراره تبيّن لنا أنه لا يشتهي العودة؛ وأقسم أن هذا الحمار ليس رديئاً. قال دون كيشوت: لم أتعوّد أن أسلب الذين انتصرت عليهم شيئاً، وليس من تقاليد الفروسية أن ندعهم يمضون

مشياً على أقدامهم، إلا إذا فقد الغالبُ حصانه في المعركة؛ لأنه في هذه الحالة يحقّ له أن يستولي على حصان المغلوب، فذلك جائزٌ شرعيّاً. وهكذا، دعْ هذا الحصان، يا سانشو، أو هذا الحمار، كما تشاء؛ فمن فقَدَه لا بدّ أن يرجع ليستردّه حالماً نبتعد. ــ قال سانشو: أَودُّ، بصدقٍ، أن اقتاد هذا الحيوان، أو على الأقل أن أبادله بحماري الذي لا يبدو لي قوياً. يا سيدي، ما أَضيقَ قوانينَ فروسيتكم التي لا تَسْمح بمبادلة حمارٍ بحمار! على الأقل أَودّ لو أعلم إن كان مسموحاً مبادلة البردعة. ــ أجاب دون كيشوت: لستُ متأكداً من ذلك، وأنا أتوقّف عند الشبهة حتى استعلم بدقّة، ويمكنك أن تأخذها إن كنتَ بحاجة ضرورية لها ــ قال سانشو: «أنا بحاجةٍ ضرورية له وكأنني أريد استخدامَه لنفسي». وبناء على إذن سيِّده أجرى المبادلة، ورتّب بردعة الحلاق على حماره فبدا له حمارُه أجمل وأفضل.

بعد أن انتهيا من ذلك، تناولا فطورهما من بقايا العشاء، ولم يختارا طريقاً غير الطريق التي اختارها «روسينانت» اقتداءً بالفرسان الجوّالين، وسار الحمار في إثره سير الصديق في صحبة الصديق. بلغا الطريق العامة وسارا على غير هدى ودون قصد، حينئذٍ.

• • •

http://www.ithar.com

# «كيف حرَّر دون كيشوت جماعةً من البائسين الذين كانوا يساقون بالرغم منهم إلى حيث لا يريدُون أن يذهبوا»

رفَع دون كيشوت عينيه، ورأى حوالي اثني عشر رجلاً مُقبلين مشياً على أقدامهم، وبدوا مَنْظومين مثل حبّات المسبحة في سلسلة طويلة تشدّهم جميعاً من رقابهم، مع أغلالٍ في أذرعهم. وكان معهم أيضاً خيّالان، ورجلان ماشيان، ومع كل من الخيالين قَرَبينة بدولاب، ومع كل من الآخرينَ نبلةٌ ورمحٌ وسيفه على جانبه. ما إن رأى سانشو هذه القافلةَ المحزنة حتى قال: «ها هي ذي سلسلة المحكومين الذين يساقون ليخدموا الملك في سجن الأشغال الشاقة». ـ صاح دون كيشوت: كيف! محكومون بالأشغال الشاقة؟ أمن الممكن أن يَسْتخدم الملكُ العنفَ مع أحد. ـ أجاب سانشو: لم أقلْ ذلك، قلتُ إنهم أناسٌ حُكموا، نظراً لجرائمهم، بخدمة الملك في سجون الأشغال الشاقّة. ـ قال دون كيشوت: مهما يكن فإن هؤلاء الناس مُكْرَهون، ولا يذهبون برضاهم ـ أجاب سانشو: أما هذا فأنا أُوافقك عليه. ـ وأردف دون كيشوت: إذا كان الأمر كذلك، فإنه يَعْنيني أنا الذي مهنتُه الحيلولة دون العنف ونجدة البائسين ـ . فردّ عليه سانشو: إيه! ألا تعلم يا سيدي، أنْ لا الملك ولا



http://www.ithar.com

العـدالـةُ يستخـدمـان العنـف بحـق هـؤلاء الفـاسـديـن، وأنهـم نـالـوا مـا يستحقّونه!» في هذه الأثناء، وصلتْ السلسلةُ، ورجا دون كيشوت الحرسَ بكثير من التهذيب أن يُنبئوه بالسبب الذي من أجله اقتيد جميعُ هؤلاء المساكين. قال أحدُ الخيّالين: هؤلاء محكومون بالأشغال الشاقة وهم ذاهبون ليخدموا الملك في سجن الأشغال الشاقة؛ ولا أعلم شيئاً أكثر من ذلك، وأعتقد أنه لا حاجة بك لأن تعلم ما هو أكثر من ذلك. ــ أجاب دون كيشوت: ومع ذلك فأنتم تجبرونني على أن أستعلم من كل واحدٍ منهم عن سبب هذه المصيبة» وأضاف الكثير من علامات الأدب واللطف حتـى قـال لـه الخيّـال الآخـر: معنـا هنـا الأحكـام الصـادرة علـى هـؤلاء المساكين، لكن ليس لدينا الوقت الكافي لقراءتها، وذلك لا يستحق أن نفتح حقائبنا من أجله. وعليك، يا سيدي، أن تَسْتفهم منهم بنفسك. ولن يتأخروا عن تلبية طلبك: لأن هؤلاء الناس يقبلون بسرعة ما يُطلَبُ منهم لكي يَمْتدحوا أنفسهم.



بعد هذا الإذن الذي كان دون كيشوت سيأخذه بنفسه لو رُفِضَ طلبُه، اقترب من السلسلة، وسأل الأول ما الجريمة التي ارتكبها ليُعامَل على هذا النحو: فأجابه: ذلك لأنني كنتُ عاشقاً ــ قال فارسُنا: ماذا! من

http://www.ithar.com

أجل ذلك فقط ولا شيء غيره؟ إن كان العشاقُ يُرسَلون إلى سجون الأشغال الشاقة فيجب أن أكون أولَ المحكومين. قال السجين: لم يكن حبّي كما تظنّ. ذلك أني عشقتُ سلةً ملأى بالثياب البيضاء ولم أستطع هجرانها وكنت أضمّها معانقاً لها بحيث لو أن العدالة لم تتدخل لكانت ما تزال بين ذراعيّ. فوجئتُ متلبّساً بذلك، ولم يكن هناك من حاجةٍ للاستجواب، وحُكِمَ عليّ. وقد امتلأتْ كتفاي بالبقع من مئة جلدةٍ تلقّيتُها. وعندما أُساعدُ مدة ثلاث سنوات على حصاد المرج الكبير أكون قد أَنهيتُ ما عليّ ــ . سأله دون كيشوت: ما معنى حصاد المرج الكبير؟ ــ فأجاب السجين: هو سجن الأشغال الشاقة. وكان هذا السجين شاباً في نحو الرابعة والعشرين، من مواليد بييدراهيتا، على حدِّ قوله.

ألقى دون كيشوت السؤالَ نفسه على الثاني الذي كان حزيناً جداً ولم يَفُهْ بكلمة: أما هذا فقد أُرسل إلى السجن بصفته كناراً أسرف في الغناء. ــ استفهم دون كيشوت: كيف! وهل يُرسَل الموسيقيون إلى السجون. . أجاب السجين: نعم، يا سيدي، إذ لا شيء أشدّ خطراً من الغناء في ساعات الكَرْب. ــ قال دون كيشوت: على العكس، سمعتُ الناسَ يقولون دائماً إن من يُغنّي ألمه يَفْتِن السامعين. ــ استأنف الآخر: الأمرُ على نقيض ذلك، فمَنْ يغنّي مرةً يبكي طوال حياته. ــ قال دون كيشوت: أَعترفُ أني لا أفهم ذلك.

حينئذٍ قال أحدُ الحارسيْن: الغناءُ في الكرْب بين هؤلاء البسطاء يَعْني الإعتراف عند التعذيب. وقد عُذِّب هذا الرجلُ الغريبُ الأطوار فاعترف بجريمته وهي أنه سرق ماشيةً، ولأنه اعترف، أو غنّى كما يقولون، فقد حُكِم بست سنوات من الأشغال الشاقة، فضلاً عن مئتي



http://www.ithar.com

جلدة تلقّاها على الفور؛ وإذا كنتَ تراه حزيناً خَجِلاً فذلك لأن الآخرين يعاملونه باحتقار ويَحْرمونه الراحةَ لأنه لم يملك الشجاعة على التحمّل والإنكار، وكأن قول «لا» أصعب من قول «نعم»، وكأن المجرم لا يملك السعادةَ بتبرئته على طرف لسانه، عندما لا يكون ثمّة شهودٌ ضده. وحول هذه النقطة أرى بصراحة أنهم غير مخطئين كلَّ الخطأ.

ــ قال دون كيشوت: وهذا ما أراه أيضاً.

وانتقل دون كيشوت إلى الثالث فسأله: وأنتَ، ماذا فعلتَ؟ استجاب هذا بسرعة وقال بمرحٍ: أنا ذاهب إلى السجن لأقضي فيه خمس سنوات لحاجتي إلى عشر «دوكات» ــ قال دون كيشوت: آه! أنا أعطيك بطيب قلبٍ عشرين لأخلّصك.

ــ أجاب السجين: الواقع أن الأوان قد فات. فهي كالخردل بعد الطعام. ولو كنتُ أَملك في السجن عشرين الـ «دوكا» التي تَعْرضها علي لرشوتُ كاتبَ المحكمة، ولأَيقظتُ فكرَ النائب العام، ولكنتُ الآن في ساحة طليطلة، لا كما أنا الآن أقاد كالسلوقيّ المربوط؛ لكن صَبْراً، فلكل شيءٍ وقتُه.

وانتقل دون كيشوت إلى الرابع وكان شيخاً أشيبَ، ذا لحيةٍ طويلة بيضاء نازلة إلى صدره. وأخذ يبكي عندما سُئِل من الذي جاء به إلى السجن، ولم يُجبْ بكلمة؛ لكن السجين الذي يليه قام بمهمة الترجمان وقال: هذا العجوز المحترم سيخدم الملك في البحر لمدة أربع سنوات، بعد أن طافوا به في الشوارع طواف المنتصرين وهو في ثياب فاخرة. ــ قال سانشو: وهذا يعني، إذا لم أُخطىء، إقراره بالذنب، وإلزامه الغلّ. ــ

http://www.ithar.com

قال السجين: بالضبط، وذلك لاشتغاله بالرُقى والسحر. . . ـ قال دون كيشوت: ليس لي ما أقوله حول ذلك.

سأل دون كيشوت السجينَ الخامس ما جريمته، فأجاب بحزنٍ أقلّ من حزن الآخر، وكأن القضية لا تمسّه ، قال: أنا ذاهبٌ لخدمة جلالته لأنني بادلت بقمصاني العتيقة قمصاناً جديدة ولكوني أخذتُ قمصاناً أخرى من ناسٍ ليس لي عليهم دينٌ. وقام الدليلُ على ذلك كله. ولم تكن لي حظوةٌ ولا عندي مالٌ وأُصبْتُ بداءٍ في الحنجرة فأشرفتُ على الموت: بيد أنني لم أُحكَمْ إلا بست سنوات من الأشغال الشاقة. ولم أستأنفْ الحكمَ خوفاً مما هو أسوأ؛ وأنا مستحقٌّ لهذا العقاب؛ أُحسُّ بنفسي شاباً، والحياةُ طويلة، ومع الزمن نستطيع أن نتغلب على كل شيء. وإذا كان مع سيادتك ما تعطيه الفقراء، فسيكافئك اللهُ في السماء، وسنُعنى بالدعاء إليه على هذه الأرض لكي يمدّ في عمرك ويُسعدك في حياتك». كان هذا بلباس طالبٍ وقال عنه الحارس إنه متكلّمٌ قدير وأنه يَعْرف كثيراً من اللاتينية. وبعد هؤلاء، جاء رجلٌ حسنُ الهيئة، يبلغ الثلاثين وعينُه حولاء. وقد قُيِّد على نحو مختلفٍ عن الآخرين. كان في رجله سلسلةٌ صاعدةٌ تُحيط بجسده كله، مع حلقتين حديديتين تشدّان عنقه، إحداهما مربوطة بالسلسلة والأخرى مما يسمى قدم الصديق وهي تُبقي الرأسَ قائماً، ومنها ينزل فرعان حتى الزنار يرتبطان بقيدين يضغطان على الذراعين ولهما قفلان ضخمان؛ بحيث لا يمكنه أن يرفع يديه إلى فمه ولا أن يخفض رأسه حتى يديه. سأل دون كيشوت لمَ كانت معاملة هذا الرجل أكثر سوءاً. أجاب الحارسُ: لأنه أشد إجراماً من الآخرين جميعاً ولأنه شديد الجرأة والحيلة بحيث أننا لسنا واثقين من هربه حتى وهو في هذه الحالة. ـ حينئذٍ قال

http://www.ithar.com

هذا السجين: سيدي الفارس، إذا شئتَ أن تعطينا شيئاً فافعلْ ذلك على عجل وامض بحفظ الله: فهذا الفضول للإطلاع على حياة الآخرين يُتعبنا؛ وإذا كنتَ ترغب في معرفة حياتي فاعلم أنني «جينيس دي باسّامون»، وحياتي مكتوبة بأصابعي الخمسة في كتابٍ رائعٍ عجيب، وهو أجمل ما كُتِب في أسبانيا منذِ زمن العرب؛ لكن امضيا دون الإكثار من الكلام: فمنذ زمن بعيد ما تزال هذه التفاهات مستمرةً. عند ذلك رفَعَ الحارس عصاه ليردّ على تهديدات باسامون، لكن دون كيشوت تدخّل بينهما ورجا الحارس ألاّ يُسيء معاملته. وقال: «ومن العَدْل أن يكون الذي يداه مغلولتان حرَّ اللسان على الأقل»؛ وهنا التفت إلى السجناء الآخرين وقال لهم: «يا إخوتي، من كل ما قلتموه لي، اتّضح لي أن العقاب الذي عوقبتم به هو جزاء أخطائكم إلاّ أنكم لا تتحمّلونه دون حزن، وأنكم لا ترغبون أن تذهبوا إلى السجن، وأنكم تساقون بالرغم من إرادتكم؛ وقد يحدثُ أنّ قلّة شجاعة أحدكم عند التعذيب، ونقص المال لدى الآخر، وانعدام الحظوة التي يجدها البؤساء لدى القضاة الذين يستعجلون في مهماتهم، قد أَفْضى بكم إلى الحالة التي أنتم فيها وحَرَمكم من العدالة التي هي من حقّكم، كلّ ذلك يُجبرني على أن أُريكم أن السماء لم تُوجدني ولم تدفعني إلى اعتناق مهنة الفروسية الجوّالة إلا لأُنجد المحزونين وأخلّص الصغار من اضطهاد الكبار. لكن بما أن الحذر يقضي بأن تتم الأشياء بهدوء ودون عنف، إذا استطعنا، فإني أرجو السيد المفوّض وحرّاسكم أن يفكّوا عنكم قيودكم وأن يعيدوا لكم حريتكم؛ وسيكون هناك ناسٌ آخرون يخدمون الملك في المناسبات، وللحقيقة أقول، إنه لشيءٌ شديد القسوة أن نحوّل إلى عبيدٍ الناسَ الذين وُلدوا ومعهم حريتهم» وأضاف: «لكني، أيها السادة

الحراس، أرجوكم، ولا سيما أن هؤلاء المساكين لم يُهينوكم قط، دعوهم يتوبوا ولا تُكرِهوهم على التوبة حيث لا فضلَ لهم بالتوبة. وفي السماء عدالةٌ معنيّةٌ بعقاب الأشرار إذا لم يُصلحوا أنفسَهم، وليس من اللائق للرجال الشرفاء أن يكونوا الجلادين لغيرهم من الرجال. يا سادتي، أنا أطلب ذلك منكم بلطف وتأدّب، وإذا ما قبلتم طلبي فسوف أكون مديناً لكم، أما إذا لم تفعلوا ذلك بطيب خاطرٍ فإن هذا الرمح وهذا السيف وقوة ساعدي ستَحْملكم على فعله بالقوة». ـ أجاب المفوّض: «ها، ها! إنها لمزحة حلوة؛ وليس من رديءِ التخيّلِ أن تَطْلب منا إطلاقَ سراح سجناء الملك، وكأننا نملك سلطة إطلاق سراحهم، انصرفْ، يا سيدي؛ هيّا، تابعْ طريقَكَ، وعَدّل الحوضَ الذي على رأسك، دون أن تحشر أنفك حيث لا شغلَ لكَ.



http://www.ithar.com

ـ أجاب دون كيشوت: أنت حقيرٌ وجبانٌ صريح؛ وفي الوقت نفسه، هاجَمه بكثيرٍ من السرعة، ولم يترك له وقتاً يدافع فيه عن نفسه، فرماه أرضاً، وجَرَحَه بطعنة رمح جرحاً خطيراً. دهش الحراسُ من هذا الاعتداء المفاجىء فهاجموا معاً دون كيشوت بالسيوف والنبال وكادوا يُوقعون به لولا أن السجناء الذين رأوا الفرصة مؤاتيةً لاسترداد حريتهم فحاولوا انتهازها وجهدوا في كسر قيودهم. حدث اختلاط والتباس عظيمان حينئذٍ بين الحراس الذين كانوا يصولون تارةً على السجناء الذين كانوا يفكّون أنفسهم، وتارةً أخرى على دون كيشوت الذي لم يترك لهم راحةً، ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً حسناً. وكان سانشو في هذه الأثناء يساعد «جينيس دي باسامون» الذي رأى نفسه حراً متخلّصاً من قيوده، فارتمى على المفوّض واستولى على سلاحه، وأبلى بلاءً حسناً وأجبر، بمساعدة بقية السجناء، الحراسَ على الفرار وتَرْكِ ساحة القتال.

لم يَفْرح سانشو كثيراً بهذه المأثرة العظيمة، لأنه لم يشكّ في أن الحراس سيُعلمون شرطة «سانت هرمانداد» وسيطلبون المعونةَ العسكرية للعودة وللبحث عن المذنبين. بهذا التوجّس قال لسيده إن الوقت مؤاتٍ للتنحّي عن الطريق والاختباء في الجبال القريبة. وقال: «لأن هؤلاء الشياطين من الرُماة لن يفوتهم إعلان النفير، وسوف يطوّقوننا من جميع الجهات، وقد يقع لنا ما هو أسوأ من الخديعة ومن الجلد بالعصا.

ـ قال دون كيشوت: «هذا حسن، أما في هذه الساعة فأنا أعلم ما يجبُ فعلُه». ونادى في الوقت نفسه السجناءَ الذين سلبوا المفوضَ وتركوه عارياً، فجاؤوا إليه، وتحلّقوا حوله ليعلموا ماذا يريد.

http://www.ithar.com



قال لهم: إن مزيةَ الشرفاء هي الاعتراف بالجميل الذي تلقّوه؛ ونكرانُ الجميل أسوأ الرذائل جميعاً. لقد رأيتُم أيها السادة، ما فعلتُه لكم، رأيتُمْ فَضْلي عليكم؛ وأنا على يقين أنني لم أخدم أناساً يَجْحدون المعروف، وعليكم أن تُظهروا لي حقيقةَ ما أنتم عليه، وكلُّ ما أطلبه منكم، كردٍّ على الجميل، هو أن تضعوا من جديد السلسلة التي نزعتُها عنكم، وأن تذهبوا، وأنتم في السلسلة، إلى مدينة توبوزد وأن تقفوا بين

http://www.ithar.com

يدي «دولسينيه» وتقولوا لها: إننا جئنا من قِبَل عبدها فارس الوجه الحزين، وأن تَرْووا لها، كلمةً كلمة، كلَّ ما فعلتُه لمصلحتكم، حتى إطلاق سراحكم. وبعد ذلك، تصبحون أحراراً، ويمكنكم أن تفعلوا ما تشاؤون». أجاب «جينيس دي باسامون» عن الجميع وقال لدون كيشوت: سيدي الفارس محرّرنا، يتعذّر علينا أن تفعل ما تأمر به؛ لأننا لا نجرؤ أن نبرز جميعاً في الوَضْع الذي ذكرتَه، خوفاً من أن يُكشف أمرُنا؛ على العكس يجب أن نفترق، والأفضل لنا أن نتنكّر، حتى لا نقع بين يدي العدالة التي لا شك أنها ستُرسل من يفتّش عنّا. لكن ما يمكن أن تفعله سيادتُكَ هو أن تغيّر ما تأمرنا به، وأن نُحوِّل الضريبة الواجب أَداؤها للسيدة «دولسينيه دي توبوزو» إلى كميةٍ من الدعوات التي نتلوها من أجلها. فذلك شيءٌ يمكن أن نقوم به دون تعرّض للخطر، وفي الليل كما في النهار، إذا هربنا أو استرحنا، في السلم وفي الحرب؛ أما أن يَخْطر ببالك عودتنا إلى الحساء المصري أي العودة إلى السلسلة فلا وجهَ لهذا ولا أعتقد أنك فكّرت جيداً في هذه المسألة. ــ قال دون كيشوت، وقد التهب غضباً: أُقسم بالرب المُحيي، يا «دون جينيزيل دي بارابيلا» ودون ابن الشيطان، أو كنْ ابنَ مَنْ شئت، إنك ستذهب وحدكَ مُثْقَلاً بالسلسلة وبكل العدّة التي كانت على جسدك النبيل». بيد أن «باسامون» الذي لم يكن صبوراً، والذي كان سيّء الظن بحكمة دون كيشوت بعد العمل الذي أقدم عليه، لم يَتَحمّل أن يُعاملَ هذه المعاملة؛ فأشار بعينيه إلى أصحابه الذين سرعان ما تباعدوا بعضُهم عن بعض وأمطروا دون كيشوت بوابلٍ من الحجارة التي لم يستطع أن يحتمي منها بدرقته كما ينبغي، أو بروسينانت التي أبت أن تتحرك وكأنها من البرونز. اختبأ سانشو خلف حماره وتفادى

العاصفة بهذه الوسيلة: لكن سيده لم يتمكن من حماية نفسه وأصابته في خاصرتيه أربعة أحجار أو خمسة رمتْه أرضاً. وما لبث أن انقض عليه التلميذُ، وأخذ الحوض، وضربه به خمس ضربات أو ستّاً على كتفيه، وضربَ الحوضَ بحجر فحطّمه. وسلبه السجناءُ سترةَ الفارس التي كان يرتديها دون كيشوت فوق سلاحه، وأوشكوا أن يسلبوه سراويله لولا أن منعهم من ذلك درعُ الفخذ وواقيةُ الركبة، ولكي يُتمّوا عملهم خلّصوا دون كيشوت من معطفه، وتركوه عارياً عُريَ اليدِ، وتقاسموا فيما بينهم بقايا المعركة؛ وذهب كلٌّ في جهته وبهم شوقٌ إلى معرفة السيدة دولسينيه أكثر من عنايتهم بتحاشي: «سانت هرمانداد».

مكثَ الحمارُ وسانشو ودون كيشوت وحدهم في ساحة المعركة؛ كان الحمارُ خافضاً رأسه، محرِّكاً بين الحين والآخر أذنيه، وظاناً أن وابل الحجارة ما يزال مستمراً؛ وتمدّد روسينانت قرب صاحبه، وقد تأذّى بحجرين كبيرين؛ وكان سانشو عارياً تقريباً كما جاء إلى العالم، وقد مات خوفاً من أن يقع بين أيدي «سانت هرمانداد»، أما دون كيشوت فكان حزيناً وساخطاً من أن يرى نفسه في هذه الحالة السيئة بسبب عقوق قطّاع الطرق الذين أحسن إليهم إحساناً عظيماً.

• • •

# «ما جرى لدون كيشوت الذائع الصيت في الجبل الأسود»

عندما رأى دون كيشوت نفسه يُعامَل هذه المعاملة السيّئة، قال لمرافقه:

«سمعتُ الناسَ يقولون دائماً، يا سانشو، إن الإحسان إلى الأشرار كالكتابة على الرمال. ولو صدّقتُكَ لتحاشيْنا هذا الانزعاج: لكن قد كان ما كان، فصبراً؛ ولتَجْعلْنا التجربةُ منذ الآن حكماء.

ـ قال سانشو: الحقّ يا سيدي أنك لست حكيماً إلا بمقدار ما أنا تركيٌّ!.. لكن بما أنك قلت لي إنك لو صدّقتني لتحاشينا هذا الإنزعاج، صَدِّقْني في هذه الساعة، وستتجَنّب انزعاجاً أكبر: لأنني انبّهك بكلمة واحدة كألف كلمة، أن جميع فروسياتك لا نَفْعَ فيها مع «السانت هرمانداد»، فهي لا تكترث لجميع الفرسان الجوّالين في العالم كما لا تكترث لكلبٍ ميت. اصغ، يبدو لي أنني اسمع سهامها تَصْفر في الآذان!. قال دون كيشوت: يا سانشو، أنتَ بطبيعتك جبانٌ، ولكن لكي لا تقول إنني عنيد، وأنني لا أعمل بنصائحك، سأصدّقكَ هذه المرة وسأبتعد عن سانت هرمانداد الرهيبة التي تخافها كثيراً؛ لكن بشرط ألا


http://www.ithar.com

تقول لأحدٍ، حيّاً كنتَ أم ميتاً، إنني انسحبتُ. وأنا على كل حال، لم أتحاشَ الخطر بسبب الخوف وإنما استجابةً لرجائكَ، ولكي أسرّكَ. وإذا قلتَ غير ذلك فأنت كاذب قديماً وحديثاً، في ذلك الزمان كما في هذا الوقت، سأكذّبك وأقول إنك تكذب وستكذب فيما تقوله وتفكّر فيه، ولا تردّ علي الجواب أكثر مما فعلتَ. لأنني عندما يدور في خَلَدي أنني أبتعد وأنسحب خوفاً من خطرٍ ظاهر، ولا سيما من هذا الخطر الذي ربما كان فيه ما يُخيف، أُفضّل أن أبقى هنا إلى يوم القيامة وأنتظر بقدمٍ ثابتة لا الأخوية المقدّسة التي ذكرتَها وإنما أيضاً أخويات قبائل إسرائيل الإثنتي عشرة، وقبائل المكابيين السبع، وكاستور وبولوكس، وجميع الأخوة والإخائيات والأخويات في العالم. ـ قال سانشو: الإنسحاب غير الهرب، يا سيدي.

وتقدّم وهو يقود روسينانت ودلَفَ مع سيده إلى الغابة السوداء.

وصَلَ مغامرانا هذه الليلة إلى وسط الجبل الأسود، في المكان المقفر حيث نصحَ سانشو سيده بقضاء عدة أيام فيه، على الأقل ما دام معهما مؤونةٌ. وبدأا يستقرّان في هذه الليلة بين صخرتين وتحت أشجار السنديان، وظنّا نفسيهما بمأمنٍ وبمنأىً عن جميع أنواع الإهانات. لكن القدر أراد، والقدر يحكم ويدبّر جميعَ الأشياء على هواه، أن يفكّر «جينيس دي باسامونت»، هذا الشقيّ الذائع الصيت الذي خلّصه جنون دون كيشوت وعنفوانُه من السلسلة، والذي خاف الـ «سانت هرنانداد» وهرب منها، أن يفكّر في الإختباء بين هذه الصخور، ووصل بالذات إلى المكان الذي كان فيه دون كيشوت وسانشو اللذان عرفهما من كلامهما وتركهما ينامان. وبما أن الأشرار هم دائماً منكرون للجميل وأَفظاظ، وأن

http://www.ithar.com

الحاجة تَحْمل على التفكير في أشياء لا تخطر على بال، عمد جينيس الذي لم يكن مهذباً ولا حسن النيّة، إلى سرقة حمار سانشو أثناء نومهما، وفضّله على «روسينانت» الذي بدا له هزيلاً ولا يمكن التخلّص منه لا بيعاً ولا مبادلةً. وقبل أن يبزغ الفجرُ كان بعيداً جداً عن السيد ومرافقه، بحيث لم يكونا يستطيعان اللحاق به.

في هذه الأثناء طلع الفجرُ بوجهه الضاحك ليُبهج الأرضَ ويزينها، لكنه زاد في حزن سانشو وبشاعته، وقد خُيِّل إليه أنه سيموت من الألم عندما رأى نفسه بلا حمار. فشكا شكاةً حزينة، وتأوّه تأوّهاً مثيراً للشفقة؛ استفاق على أثر ذلك دون كيشوت، وسمعه يقول: «يابنَ أحشائي العزيز، الذي وُلِدَ في بيتي، يا لعبةَ أطفالي الظريفة، ويا لذة امرأتي، وحسد جيراني، ومُطعم نصف شخصي، لأنك بأربعة فلوس تردّها عليّ، كنتَ توفّر لي نصفَ نفقتي!».

أدرك دون كيشوت من هذا النحيب موضوعَ ألم سانشو فحاول أن يُعزّيه بكلماتٍ رقيقة وحججٍ صحيحة حول تقلّب الدهر وصروفه. لكن ذلك كله لم يُفلح إلا عندما وعده دون كيشوت أن يَمْنحه ثلاثة جحاش من خمسةٍ يملكها في بيته. عند ذلك هدأ سانشو ولم يَصْمد أمام هذه الحجة القاطعة. فمسح دموعه، وكفّ عن تنهّده ونحيبه، وشكر سيده شكراً جزيلاً على هذا المعروف الذي خصَّه به.

اغتبط دون كيشوت الذي ردّ النومُ إليه عافيتَه حين رأى نفسه وسط هذه الجبال، ولم يشكّ أن هذا المكان صالحٌ للعثور على المغامرات التي يبحث عنها. واستدعى إلى ذاكرته الأحداثَ العجيبة التي وقعتْ للفرسان

http://www.ithar.com

الجوّالين في مثل هذه العزلة، فانتشى واستخفّه الفرحُ بهذه الذكريات حتى لم يكن يهتم بشيءٍ آخر في العالم. ولم يَبْق لسانشو من همٍ عندما رأى نفسه في مأمنٍ، إلا في أن يملأ بطنه من البقايا التي أَنقذها. كان يسير خلف سيّده، ومعه الخرجُ الذي كان يَحْمله حمارُه، مُخرجاً من وقتٍ إلى آخر، نُتفاً من الخبز ليزدردها بكل قوته، دون أن يشغل باله بالمغامرات، إذ لم يكن يتخيّل مغامرةً أجمل من هذه.

قال له دون كيشوت فجأةً: «يا صديقي سانشو، سأصنعُ في هذا الجبل مأثرةً تُكسبني شهرة بين الناس، وتخلّد اسمي وتتجاوز ما فعله وما سيفعله جميعُ الفرسان الجوّالين».

سأله سانشو: «وهل هذه المأثرة، يا سيدي، محفوفةٌ بالخطر؟

ــ أجاب دون كيشوت: «لا، وإن كانت الأشياء قد تجري على نحوٍ نلقى فيه المصادفة بدل الحظ. بيد أن ذلك منوطٌ بهمتك.

ــ قال سانشو: همّتي، يا سيدي؟

ــ أجاب دون كيشوت: نعم، يا صديقي، لأنك إذا عدتَ بسرعة من المكان الذي أنوي إرسالَكَ إليه، فسوف تنتهي مشقّتي في الحال، وسوف يبدأ مجدي. لكن لماذا أشوّقك أكثر مما ينبغي؟ يجب أن تعلم، أيها المرافق الأمين، أن «أماديس دي غول» الذائع الصيت كان من أكمل الفرسان الجوّالين في العالم؛ ماذا أقول؟ أولاً، كان الوحيد، على الأقل كان الأول وأمير جميع الفرسان قبله. ولا يمكن «لبليا نيس» ولا لغيره أن يُقارَنوا به: الفرق بينهم كالفرق بين الأبيض والأسود، وليس بينهم مَنْ يستحق أن يكون مرافقاً له. وأنا أُعلمُكَ أيضاً أن الرسّام الذي يريد أن



http://www.ithar.com

يصبح شهيراً في فنه يَسْعى دائماً إلى محاكاة الفنانين الأصيلين، ويتّخذ نموذجاً له أعمالَ أعظم الرسامين الذين يعرفهم، وذلك ينبغي أن يكون قاعدةً في جميع الفنون وجميع العلوم. وإذا كان الأمرُ كذلك، فأنا أرى، أيها الصديق سانشو، أن الفارس الجوال الذي يُحاكي أماديس أفضل محاكاة هو الذي يقترب من الكمال أكثر من غيره. وأحد الأشياء التي أبرز فيها أماديس العظيم حكمته وبسالته وصموده وحبه هو أنه اعتكفَ عند «الصخرة الفقيرة» للتوبة، باسم «المظلم الجميل»، وهو اسمٌ له بالتأكيد دلالته، وهو موافق بشكل رائع للحياة التي ينوي أن يعيشها، والتي اختارها هو نفسه. ولما كنتُ أجد أن من الأيسر عليّ أن أحاكيه في توبته من أن أشقّ العمالقة المفرطي الضخامة، وأن أقطع الأفاعي، وأن أهزم الجيوش، وأبدّد الأساطيل، وأُبطل السحر، وكل ذلك تَصْلح له هذه الأماكن الموحشة، فأنا لا أريد أن أُضيّع الفرصةَ التي تَعْرض لي بشكل مؤاتٍ جداً. ــ قال سانشو: لكن، يا سيدي، ماذا تَنْوي أن تفعل في هذا المكان المقفر؟» أجاب دون كيشوت: ألم أَقلْ لك إني أَنوي أن أقتدي بأماديس فأغدو الأحمقَ، والبائس، والهائج: وأن أقتدي في الوقت نفسه «برولان» الباسل في جنونه الذي بدَرَ منه، عندما علِمَ أن انجيليك قد استسلمت لميدور بجبنٍ؛ ممّا أحزنه حزناً كبيراً حتى غدا مجنوناً، فاقتلع الأشجار، وعكّر مياهَ الينابيع، وأهلك القطعان، وقَتَل الرعاةَ، وأحرقَ أكواخَهم، ونهب خيولهم، وأَقدم على شتى الغرائب الجديرة بأن تُخَلَّد ذكراها. ومع أني لستُ عازماً على محاكاة رولان تماماً، أو أورلاند أوروتولاند (وكانت له هذه الأسماء كلها) في جنونه، فأنا أزعم، اني سأختار الأساسيّ منها وما يمكن أن يُعتبر سائراً على السنّة

http://www.ithar.com

الصحيحة. وربما اكتفيتُ بمحاكاة أماديس الذي لم يُقْدم على الجنون الصارخ والمؤذي مُقتصراً على الشكوى والنحيب فنال كثيراً من الصيت الحسن ومن المجد» الذي لا مزيدَ عليه لمُستزيد. ـ قال سانشو: يبدو لي، يا سيدي، أن الفرسان الذين كانوا يُقْدمون على هذا الجنون وتلك التوبة كان لديهم ما يبرّر ذلك؛ أما أنت، يا سيدي، فما الداعي الذي يدعوك لتصبـح مجنوناً؟ مَنْ السيدة التي احتقرتك وما العلامات التي دلّتْـك علـى أن السيـدة دولسينيـه قـد ارتكبـت حمـاقـات مـع عـربـي أو مسيحي؟

ـ صاح دون كيشوت: ايه! هذه هي النقطة الهامة، هاهنا خفايا قضيتي؛ الفارس الجوال الذي يغدو مجنوناً دون سببٍ ولا داعٍ! أليس ذلك أني أُرِي سيدتي على أي شيءٍ أنا قادر بهذه المناسبة؟ وهكذاً إذن، يا صديقي سانشو، لا تُضِع الوقتَ في صَرْفي عن مثل هذه المنافسة النادرة والسعيدة والخارقة إلى حدٍ بعيد. أنا مجنون، ومجنوناً أريد أن أكون، حتى عودتك حاملاً الجواب عن رسالةٍ أريد أن تحملها إلى السيدة دولسينيه: فإذا وجدتُها جديرةً بوفائي فسوف أَكفُّ في الوقت نفسه عن أن أكون مجنوناً وأن أمارس التوبة؛ لكنها إن لم تكن كريمةً فسأظلّ مجنوناً حتماً، وفي تلك الحالة لن أُحسّ بشيءٍ، وسأُخلّص نفسي من تلك المُعضلة، إما بالاستمتاع كرجلٍ حكيم بالخير الذي آمله من عودتك، وإما كمجنون لا يُحس بالشر الذي حملتَه إلي.

عندما أنهى كلامَه هذا، وجدا نفسيهما عند أسفل صخرة عالية جداً منفصلةٍ عمّا حولها من صخور، وكأن ذلك قد فُعِل عمداً. وكان جدولٌ صغير يسيل بتؤدةٍ على المنحدر، ويجري متلوّياً ليسقي مرجاً يحيط به.

كانت نداوةُ العشب وخضرتُه، وكميةُ الأشجار البرّية، والنباتات والأزهار التي تغطّت بها الصخرة، تجعل هذا المكان من أجمل الأمكنة في العالم. أعجب هذا الموضعُ إلى أَقْصى حدٍّ فارسَ الوجه الحزين الذي اختاره ليمارس فيه توبته، فيصبح ملكاً له، وكأنه قد فقد عقله كليّاً. صاح: «أيتها السماء، هوذا المكان الذي اخترته لأبكي الحالة المُحزنة التي أَلْجأْتِني إليها. أريد أن أذرف الدمع مدراراً حتى يزيد مياه هذا الجدول، وأن تحرّك تنهّداتي المتّصلة أوراقَ الأشجار وأغصانَها باستمرار، لأُعرِّف الناسَ جميعاً بالعذاب القاسي والمشقة المخيفة اللذين يعانيهما قلبي. اصغي، أنت، أيّاً كنتِ، آلهةً للحقول أو سكاناً لهذه الصحاري، إلى شكوى العاشق البائس الذي قاده إلى هذه الأماكن الكئيبة الغيابُ الطويلُ والغيرة الخيالية، ليبكي حظّه التعِس وليشكو بكل حريةٍ قسوة المحبوبة الغادرة التي جمعتْ فيها السماءُ جميع ما في الجمال الإنساني من مفاتن! وأنتنّ يا جنّيات الجبال والغابات، يا مَنْ تعوّدتنْ سكنى الجبال الموحشة، ساعديني على أن أشكو مصائبي، أو على الأقل، لا تَملّي من سماعها. أيا دولسينيه دي توبوزد! يا شمس أيامي وقمرَ لياليَّ ومجد آلامي، وشمال رحلاتي، وكوكب مغامراتي، ارحمي هذه الحالةَ الحزينة التي أَلجأَني إليها الغيابُ القاسي، وَلْيَعْطِفْ قلبُكِ على ثباتِ إيماني! وأنتِ أيتها الأشجار المنعزلة والقائمة التي ستصحبني منذ اليوم في عزلتي، أَفْهميني بالحفيف الحلو لأوراقك المهتزّة، وبتمايل أغصانكِ، أن حضوري لا يُزعجكِ. وأنتَ، يا مرافقي العزيز، الصاحب الوفيّ والودود في كل مغامراتي، تأمّل بعنايةٍ كلَّ ما سأفعله دون أن تنسى شيئاً مهما صغُرَ، لكي ترويه بدقةٍ للتي من أجلها فعلتُ ما فعلتُ. وأنتَ، يا روسينانت، الذي رافقني ولم

http://www.ithar.com

يفارقني وخدَمَني خدمةً نافعة لا في أيام الازدهار فحسب، بل في الأيام التي عاكسني فيها القدرُ؛ أنتَ الذي قاسمني دائماً سعادتي ونكباتي، سامحْني إذا كنتُ قد اخترتُ الوحدةَ في النكبة هذه، واعلم أنني أفارقك بأسفٍ شديد. عندما قال ذلك، ترجّل، ورفَع بسرعة السرج والمقود عن حصانه، وربّت على كفله، وقال له وهو يتنهّد: «أيها الحصان: مَنْ فَقَدَ الحريةَ يَمْنحكَ هذه الحرية. لقد امتزْتَ بمآثرك العظيمة كما كنتَ بائساً في حظّكَ، امضِ إلى حيث تشاء، وسيعرفك الناس حيثما ذهبتَ، فعلى جبينك كُتِب أنْ لا حصان «استولف» المجنّح، ولا «فرونتان» الشهير الذي كلّف «برادامانت» غالياً، يُعادلان خفّتك ونشاطكَ.

صاح سانشو هنا: ملعونٌ، ملعونٌ ألف مرة، ذاك الذي حرَمَني العنايةَ برَفْع البردعة عن حماري! كان حماري سيحصل أيضاً على لإطراء وعلى الثناء الجميل؛ ومع ذلك، فلو كان هنا، ذلك الحمارُ المسكين! لِمَ أَرفعُ عنه بردعته؟ ما علاقتُه بجنون العاشقين واليائسين، بما أن صاحبه (الذي كان أنا) لم يكن قط عاشقاً أو يائساً؟ لكن قلْ لي يا سيدي، إذا كان سفري وجنونُك حقيقيّين، أتعتقد أن من غير المناسب أن تُبقي السَرْجَ على «روسينانت»، لكي يُعوّض عن فَقْد حماري، ولكي لا تدوم رحلتي طويلاً؟ وإذا ما ذهبتُ ماشياً على قدميّ فإني لا أدري متى أَصلُ ومتى أعود، لأنني لا أحسن المشيَ على قدميّ.

ــ أجاب دون كيشوت: افعلْ ما تريد، يبدو لي أنك لستَ مخطئاً تماماً. على كل حال: ستذهب بعد ثلاثة أيام، وسوف أستبقيكَ كلَّ هذه المدة لكي ترى ما أفعله لسيدتي ولكي تَنْقل إليها ما ترى.

قال سانشو: وماذا يمكنني أن أرى أكثر مما رأيتُ؟

ـــ أجـاب دون كيشـوت: الحقيقـة أنـك بعيـدٌ جـداً عـن إدراك مـا سيجري؛ أفلا ينبغي أن أمزّق ثيابـي، وأن أرمي سلاحي قطعةً قطعة، وأن أقفز على الصخور ورأسي إلى الأدنى، وأن أفعل آلاف الأشياء من هذا النوع مما سيثير إعجابَكَ؟

ـــ قال سانشو: حبّاً بالله، يا سيدي، احترسْ عندما تقفز هذه القفزات؛ إذ يمكن أن تَصْدِم برأسك صخرةً منذ أول مرة فتكون قد أنهيتَ توبتَك! أما إذا كانت هذه الوثبات ضروريةً جداً، وأن الأمور لا يمكن أن تتم دونها، فأنا أرى أن تكتفي ـــ بما أن ذلك كله تصنّعٌ ومجرّد محاكاة ـــ أن تُجريَها في الماء وعلى الفراش، ولن أتوانى عن إخبار السيدة دولسينيه بأنك فعلتَ ذلك على صخورٍ مسنّنةٍ وصلبةٍ كالحديد.

ـــ أجاب دون كيشوت: أشكرك على حسن نيّتك؛ لكن يجب أن تعلم أن ذلك ليس تصنّعاً وإنما هو عمل جادٌّ، لأن التصرّف على نحوٍ آخر جنايةٌ بحق قوانين الفروسية التي تمنعنا من الكذب تحت طائلة الإعلان بأننا غير جديرين بالفروسية؛ وتمنعنا أن نَفْعل شيئاً عن شيءٍ آخر فذلك هو الكَذب؛ ولذلك فإن وَثَباتي ستكون حقيقيةً، فعلية، دائمة، وصحيحة، دون أيّ خداع. ومع ذلك فمن المُستحسن أن تترك لي شيئاً من خِرق الضماد لأضمّد بها جراحي لأننا فقدنا البلسمَ.

بعد أن قال دون كيشوت هذه الكلمات كتب على أوراق مذكّراته الرسالة التالية:

http://www.ithar.com

## رسالة دون كيشوت إلى «دولسينيه»

«الذي طُعِن حتى بَلَغتْ الطعنةُ اللحمَ الحيَّ بسنانِ غيابكِ المسرف الحِدّة، والذي جرحه الحب في النقطة الأكثر حساسيةً من قلبه، يتمنى لكِ



العافيةَ التي لا يَنْعمَ بها، يا «دولسينيه دي توبوزو» اللطيفة. وإذا كان جمالكِ يحتقرني، وإذا لم تعرب فضيلتك عن ميلها لمصلحتي، وإذا ما استمر ازدراؤكِ لي، فمن المستحيل أن أقاوم كلّ هذه الآلام، مع أني تعوّدتُ الآلام، لأن قوة الألم أعظم من قوتي. وسيقدّم لكِ مرافقي الأمين سانشو تقريراً دقيقاً، أيتها الحسناء الغادرة، والعدوّ الفائقة اللطف، عن الحالة التي أنا فيها بسببكِ، وعن العذاب الذي أعاني منه. وإذا كنتِ تملكين ما يكفي من العطف لكي تمدّي يدك إلى معونتي فسوف تقومين بعمل عادلٍ جدير بكِ وبي، وإذا أَفْضَلْتِ علي أَنْقذتِ ثروةً هي لكِ؛ وإلاّ فافعلي ما تشائين: وحين أُنهي حياتي سأُرضي قسوتكِ ورغباتي.

المخلص لكِ حتى الموت : فارس الوجه الحزين

http://www.ithar.com

صاح سانشو: أُقسم أن هذه أجمل رسالةٍ رأيتُها! إيه! تبّاً لي! ما أحسن ما تقول كلَّ ما تريد أن تقوله، وما أحسن ترصيعك لهذه الجملة: فارس الوجه الحزين! أقسم أنك الشيطان بذاته، وما مِنْ شيءٍ في العالم لا تعرفه.

ــ قال دون كيشوت: يجب أن يعرف المرءُ كلَّ شيءٍ في هذه المهنة التي أمارسها.

ــ قال سانشو: وإذن فاكتبْ في الوجه الآخر التوكيلَ بالجحاش الثلاثة ووقِّعْ بوضوحٍ لكي يُعلَمَ أن الخطّ هو خطّك.

قال دون كيشوت: قَبِلتُ ذلك..

وبعد أن كتبَ قرأ:

«يابنةَ أخي: أَعطي سانشو بانسا، مرافقي بهذا التوكيل ثلاثة جحاش من خمسة تركتُها في بيتي. وقد تسلمتُ ثمنها منه. وسوف أسجّلها عندي عندما يصلني إيصال المذكور سانشو.

حُرِّر في أعماق الجبل الأسود،
في ٢٦ آب من السنة الجارية.

ــ قال سانشو: الرسالة حسنةٌ جداً هكذا، يا سيدي، ولم يَبْق إلا أن توقّع.

ــ أجاب دون كيشوت: لا يجب أن أوقّعها، وسأوقّع بالأحرف الأولى فقط وهذا كافٍ لثلاث مئة حمار.

ــ قال سانشو: إني أعتمد في ذلك عليكَ، وأنا ذاهب لأسرج

http://www.ithar.com

روسينانت؛ فاستعدّ لمباركتي. لأنني أنوي أن أسافر بعد قليل، دون أن أتلهّى برؤية أعمال الجنون التي ستنفّذها، وسأقول إنني رأيتُ الكثير، وأنا واثق من أنها ستُسَرّ.

ـ قال دون كيشوت: أريد، على الأقل، يا سانشو، أن تراني عارياً. ومن الضروري أن أقوم أمامك بعشرة أو بعشرتين من الأعمال الجنوبية التي سأُنجزها في لحظةٍ لكي تتمكن من القَسَم بضميرٍ مطمئن عن جميع الأعمال التي تريدَ إضافتها، وأؤكد لك أنك لا يمكن أن تذكر نصف ما قد أفعله.

ـ أضاف سانشو بسرعة: أوه! أنا واثقٌ من ذلك؛ لكن، يا سيدي، حبّاً بالله، لا تدعْني أراكَ عارياً؛ فسوف تثير شفقتي، ولن أتمالك نفسي من البكاء. ويكفيني ما ذرفتُه هذه الليلة على حماري المسكين من دموع، ولا أريد أن أعود إلى البكاء. لكن إن كان لا بدّ من رؤيتك وأنت تقوم بتلك الأعمال الجنونية، فافعلْها بسرعة، واخْتَرْ منها أول ما يمرّ بذهنك دون تفنّن؛ وإن كان لا حاجة بي في نهاية الأمر، إلى ذلك كله. وكما قلت لكَ، سيكون ذلك على حساب وقتِ سفري. لكن بماذا ستعيش، يا سيدي، حتى عودتي؟

ـ قال دون كيشوت: لا تَحسبْ حساباً لذلك؛ فقد عزمتُ ألاّ أتغذى بغير أعشاب هذه الحقول، وثمار هذه الأشجار. إن لبَّ قضيتي يكمن في الموت جوعاً وفي مثل هذا التقشّف.

ـ قال سانشو: بهذه المناسبة يا سيدي، هل تعلم أنني أخشى ألاّ أتعرّف هذا المكان لدى عودتي، لفَرْط ما هو مخفيٌّ وصعبٌ؟

http://www.ithar.com



ـ أجاب دون كيشوت: لاحظْه جيداً، أما أنا فلن أبتعدَ عن هذا الموضع وما حوله، وسأصعد بين وقت وآخر إلى أعلى الصخور لكي تتمكن من رؤيتي أو لكي أكتشفك على الدروب. ولكن، من أجل أمانٍ أكبر، ما عليكَ إلا أن تقطع كميةً من أغصان الوزال ثم توزعها كل ستّ خطوات إلى أن تدخل السهلَ. وستكون لك هذه الأغصان معالمَ تُرشدك، اقتداءً بابن «بيرسيه» ليخرج من تيه «كريت».

ـ قال سانشو: سأفعل ذلك على الفور، وبعد أن قطع رزْمة الأغصان، تلقّى مباركة سيده، وقد بكى كلاهما من التحنن، ثم اعتلى ظهرَ «روسينانت».

قال له دون كيشوت: يا صديقي سانشو، أوصيك بجوادي الوفي، واعْتَنِ به كما تعتني بـي.

http://www.ithar.com

ودّع سانشو مرةً أخرى سيده، ومضى في طريقه، ناثراً أغصانَ الوزّال كما نصحه سيدُه.

لم يكد يبتعد حتى عاد أدراجه، وعندما سأله دون كيشوت ماذا يريد، أجابه: يبدو لي، يا سيدي، أن الحق يكون بجانبك في بعض الأحيان، وقد قلت لي بالذات أنني يجب أن أكون شاهداً يشهد بعضَ أعمالك الجنونية، وذلك لكي أُقسم صادقاً أنني رأيتك تقوم بها، وإن كان مشروع توبتك كبيراً جداً.

ـ قال دون كيشوت: أولم أقل لك ذلك، يا سانشو؟ انتظرْ قليلاً فَقَبْل أن تنهي تلاوةَ دستور الإيمان أكون قد قمتُ بستةٍ منها.

وفي الوقت نفسه خلع قميصه الذي لا كمّ له، وتعرّى حتى الزنار، وقفز قفزتين في الهواء، ثم انقلب قلبتين ورأسُه إلى الأدنى ورجلاه إلى فوق، حتى إن سانشو لوى عنانَ حصانه بسرعةٍ حتى لا يرى، وانصرف راضياً عن أنه سيستطيع أن يقسم، دون أن يَخِزَه ضميرُه، أن سيده كان مجنوناً على الدوام. وينبغي أن نتابعه في رحلته الآن التي لن تطول حتى عودته.

• • •

http://www.ithar.com

# «كيف أن الحلّاق والكاهن اللّذين صحبتهما الأميرة «ميكو ميكون» فرغوا من إخراج دون كيشوت من الجبل الأسود»

عندما خَرَجَ سانشو من الجبل، سلكَ طريقَ «توبوزو»، وفي اليوم التالي عند الظهر، كان قريباً من النزل التي وقعتْ له فيها مصيبةُ التنطيط في الهواء. ولم يكد يتعرّفه حتى أحسّ برعشةٍ ما، وتصوّر نفسه في الهواء مرة أخرى، فحدّثته نفسُه بتجاوزها مع أن الوقت هو وقتُ الغداء، وأن المرافق المسكين لم يأكل شيئاً منذ زمنٍ بعيد. بيد أن الضرورة ضغطت عليه، فتقدّم نحو النزل، وبينما كان يتساءل أيدخل أم لا، خَرجَ منه رجلان ظنّا أنهما يعرفانه، وقال أحدُهما للآخر: «سيدي الكاهن، أليس هذا هو سانشو بانسا التي قالت عنه القيّمة الخادمةُ أن مغامرنا قد اصطحبه ليكون مرافقاً له.

أجاب الكاهن: هو بعينه، وهذا حصان دون كيشوت.

كانا حلاقَ قريته وكاهنَها. وعندما عرفاه اقتربا منه، وناداه الكاهنُ باسمه سانشو، وسأله أين ترك دون كيشوت. فعرفها سانشو على الفور،

http://www.ithar.com

وصمّم أن يخفي المكان والحالة اللذين ترك فيهما سيّده. قال لهما: «إن سيدي مشغولٌ في موضعٍ ما في قضيةٍ عظيمة الأهمية لا أجرؤ على الإفصاح عنهما ولو تعرّضتُ حياتي للخطر.

ـ قال الحلاق: لا، لا، سانشو بانسا، يا صديقي، لا يمكنك التخلّص منا بهذه السهولة. وإذا لم تقل لنا أين تركتَ دون كيشوت فسنعتقد أنك قتلتَه لتسلبه حصانه. وبكلمة واحدة قلْ لنا أين سيّدكَ، وإلا فهيّا إلى السجن.

ـ قال سانشو: يا سيدي، لا حاجة إلى التهديد، فلستُ الرجل الذي يَقْتل أو يسرق، أنا مسيحي، «وسيدي في أعماق الجبل يمارس التوبةَ على قدر استطاعته».

وأخبرهم دون أن يتوقّف بالحالة التي تركه فيها وبالمغامرات التي وقعت له. وأنه، ذاهبٌ ليحمل رسالةٌ من دون كيشوت إلى السيدة «دولسينيه دي توبوزو»، بنت «لوران كورشييلو» وكان دون كيشوت مُوَلَّهاً بها.

دهش الحلاقُ والكاهن ممّا قال لهما سانشو، ومع أنهما كانا على علمٍ بجنون دون كيشوت، إلا أنهما لم يكفّا عن التعجّب من أنه يضيف كلَّ يوم غرائبَ جديدة، وطلبا أن يريا الرسالةَ التي كتبها دون كيشوت لدولسينيه، وبعد أن قَرَآها، أُصيبا بارتباكٍ شديد فهما يعرفناه مسبقاً معرفةً واسعة ويعلمان فضلاً عن ذلك أنه لا ينبغي التفكير في ردّه إلى طريق الصواب؛ وبعد أن فكّرا في الأمر طويلاً، اتّفقا أنه تنبغي مسايرتُه في جنونه، والانتفاع نوعاً ما بهَوَسه لإرجاعه إلى بيته.



قال الحلاق مخاطباً الكاهن. يجب أن تذهب بسرعة كلّية إلى الشابة دوروتي قريبته التي تملك الكثير من الكياسة والحيلة كما أنها ذات فكرٍ مُرْهف. أَقنعْها بأن تتنكّر بلباس أميرة جوّالة، وتكون أنت، إذا لزمَ الأمرُ، كاهن كنيستها وأنا مرافقك. وعندي بالذات في حقيبتي لحيةٌ مُستعارة هي جزءٌ من سلعي، وأنا استعملها كما يُستعملَ القناع. وليس على «دوروتي» إلا أن تتذرّع بحماية فارس الوجه الحزين لتكون على يقين من رده إلينا.

شاطره الكاهنُ رأيه بفرحٍ، ولم يطلْ به الأمر حتى عاد بقريبته التي قالت لهم إنها قرأت الكثير من روايات الفروسية وأنها على علمٍ بأسلوبها. لم تشأ أن تُطيل الكلام، فأخرجت من سفطها تنورة من القماش الجميل وثوباً نسائياً فضفاضاً من البروكار الأخضر المزدان باللآلىء وبتطريزاتٍ أخرى؛ وبعد أن تزّينت بهما، بدت لهم جميعاً عظيمة التألّق والجمال ولم يكفّوا عن تأملها.

http://www.ithar.com

أكثر من وجد «دوروتي» على هواه كان سانشو بانسا؛ لم يَشْبع من النظر إليها، وكان كأنه في نشوة. وبادر إلى سؤال الكاهن: مَنْ هذه السيدة الجميلة، وعمّ تبحث هنا؟ ـ أجاب الكاهن: مَنْ هذه السيدة؟ آه! إنها غير ذات أهمية، يا صديقي سانشو، وليست سوى الوارثة الشرعية لمملكة «ميكوميكون» العظمى. وهي تأتي لترجو سيّدك أن يثأر لها من إهانةٍ ارتكبها بحقها عملاقٌ شرّير؛ ومن الصيت الذي نشرتْه في كل «الغينيه» بسالةُ دون كيشوت الشهير، لم تخشَ هذه الأميرةُ من القيام بهذه الرحلة الطويلة بحثاً عنه.



ـ صاح سانشو: حسناً، على الرحب والسعة، من أجل ذلك. إنه لبحثٌ موفّق ولُقْيةٌ أفضل، إذا كان سيّدي محظوظاً بسفك دم ابن الشيطان، ذلك العملاق. نعم، لا ريب أنه سيسفك دمه إن لقيَه؛ ومَنْ يَمْنعه من ذلك، إلا أن يكون شبحاً؟ لأنه، في الحقيقة، لا سلطان له على هؤلاء الناس».

وتابع كلامه: «لكن، يا سيدي الكاهن، أنا أطلب منك شيئاً واحداً: أرجوك ألا يضع سيدي في رأسه أن يصبح أسقفاً؛ إني أموت خوفاً من أن

http://www.ithar.com

تَنْصحه بذلك، وأعمل على أن يتزوّج بسرعة من هذه الأميرة لكي لا يكون أهلاً لدخول سلك الرهبنة، ولكي يذهب ويصبح امبراطوراً. بصراحة، تفكّرتُ طويلاً في ذلك، وأنا أجد غير مستحسنٍ بالنسبة إليّ أن يصبح سيدي اسقفاً لأنني لست صالحاً للكنيسة باعتباري متزوّجاً. ــ أجاب الكاهن: أنت محقّ يا سانشو وثقْ أنني سأبذل من أجل ذلك كلَّ ما في وسعي.

كان سانشو راضياً عن وعد الكاهن، وازدادت دهشةُ الكاهن من بساطة سانشو، وكيف استقرّ في خياله الجنون المُعدي الذي لسيّده. اعتلتْ دوروتي بغلةَ الكاهن، وأَحكمَ الحلاقُ لحيته المستعارة وطلبوا إلى سانشو أن يقودهم إلى موضع دون كيشوت، وأعلموه بوجوب احتراسه من أن يذكر أمامه أنه عرف الكاهنَ والحلاق لأنه إن تعرّف عليهما فلن يصّدق بعد ذلك ما سيقولانه له، وسيُضيع الفرصة لأن يصير امبراطوراً.



http://www.ithar.com

سارت الأميرةُ «ميكوميكونا» ومرافقها وسانشو قرابةَ ثلاثة أرباع الفرسخ فأبصروا دون كيشوت بين الصخور، بكامل ثيابه، لكنه لم يكن مسلّحاً. وما ان أُعلِمتْ بأنه هو حتى حَثّتْ جوادَها الملكي، وعندما أصبحوا عـلى مقربة من دون كيشوت قَذَفَ المرافقُ بنفسه وأنزل سيدّتَه التي ركعتْ أمام الفارس وعانقت فخذه بالرغم من الجهود التي بذلها الفارسُ لإنهاضها، وقالت له هذه الكلمات: «لن أنهض من هنا أيها الفارسُ المقـدام الذي لا يُقهر حتى تَهبَني من رقتك ولطفك هبةً تعود عليك بالمجد، وتعـود بالخير على أتعس الآنسات تحت الشمس وأكثرهن غمّاً. وإذا صح أن بسالتكَ وقوة ساعدك بمقدار ما اشتُهِر عنك، فإن قوانين الشرف والمهنة التي تمارسها تُلزِمُك أن تهبّ لنجدة بائسةٍ جاءت من أقاصي الأرض، تدفعها شهرةُ أفعالك المجيدة، طالبةً حمايتَك.

ــ أجاب دون كيشوت: لقد عقدتُ العزمَ، أيتها السيدة الحسناء، ألاّ أجيبكِ بكلمة واحدة وألاّ أسمعك مالم تَنْهضي.

ــ أجابت الأميرةُ المحزونة: لن أنهض أيها الفارس المجيد مالم تمنحني ما طلبتُه منكَ.

ــ قال دون كيشوت: حسناً، لقد منحتك ما تطلبين على شرط ألا يكون هناك شيء ضد مصلحة ملكي أو وطني، وضد مصالح تلك التي قيّدتْ حريتي.

ــ قالت المرأةُ الشاكيةُ: يمكنني أن أؤكّد لك أنْ ليس هناك ما يخصّ هؤلاء الذين ذكرتهم.

دنا سانشو حينئذٍ وأَسرَّ له في أذنه: «هيّا، هيّا، يا سيدي، تستطيع أن تهبها ما تطلب، وما تطلبه شيءٌ تافه. المطلوب فقط أن تَصْرع عملاقاً

فظّاً؛ والتي تخاطبك هي الأميرة «ميكوميكونا»، ملكة مملكة ميكوميكونا العظيمة في الحبشة.

ــ أجاب دون كيشوت: سيكون لها ما تشاء؛ سأفعل ما ينبغي عليّ فعلُه، وما يطلبه ضميري وقوانين مهنتي.

ثم التفت إلى الآنسة وقال لها: «انهضي، أرجوك، يا سيدتي. وقد وهبتك ما يتمنّاه حسنُكِ الرائع.

ــ ردّت عليه دوروتي بسرعة: ما أطلبه من بسالتك، أيها الفارس الذي لا مثيل له هو أن يأتي شخصُك الشهمُ على الفور معي إلى حيث سأصحبه، وأن تعدني ألاّ تلتزم أيةَ مغامرةٍ أخرى، حتى تنتقم لي من الخائن الذي نقضَ الحقَّ الإلـٰهي والإنساني واغتصب مملكتي.

ــ أجاب دون كيشوت: أَعدكِ بذلك، أيتها السيدة الرفيعةُ الشأن؛ ويمكنكِ منذ الآن أن تتشجّعي وأن تطردي الحزنَ الذي يُرهقك؛ وأنا آمل بمعونة السماء وقوة ساعدي أن أردّ إلى حوزتكِ ممالككِ التي تخصّك، بالرغم من جميع اللصوص الجبناء الذين يريدون أن يُعارضوني في ذلك. ولنضعْ يدنا في العمل على الفور؛ فالأعمالُ الحسنة لا يجب أن تُؤَجّل، والتأخرُ قلّما يُنْجح الأعمال».

بذلتْ الأميرةُ الشاكية قُصارى جهدها لتقبّل يديْ الفارس صاحب الفضل؛ لكنه وهو المهذّب والرقيق، أبى ذلك. فأنهضها، وعانقها بكل تودّد وأَمَر في الوقت نفسه، سانشو أن يُناوله سلاحه. جاء به المرافقُ من شجرةٍ عُلِّق بها كما تُعلَّق الغنيمة، وعندما رأى دون كيشوت نفسه مسلّحاً، قال: هيّا، لِنَمْضِ إلى نجدة هذه الأميرة العظيمة، وَلْنَسْتخدم البسالةَ والقوة اللتين منحتْنا إياهما السماءُ من أجل التغلّب على أعدائها».


http://www.ithar.com

حـرص الحـلاقُ الـذي ظـل راكعـاً، ألاّ يضحـك وألاّ يـدع لحيتـه المستعارة تسقط، خوفاً من إفشاء السرّ كله، وعندما رأى إسراعَ دون كيشوت لتلبية الطلب، نهضَ وأمسك الأميرةَ بيدها، بينما أمسكها دون كيشوت باليد الأخرى، ووضعاها على بغلتها. وعلى الفور اعتلى الفارس صهوة «روسينانت» الفخم، والحلاّق دابته، ومضوا في طريقهم.

كان سانشو المسكين يتبعهم سيراً على قدميه، وذكّره الإنزعاجُ الذي لقيه حماره المفقود، فتنهّد تنهّداً عظيماً. بيد أنه صَبَر على بلواه، حين رأى سيّده في طريقه إلى أن يصبح امبراطوراً عمّا قريب؛ لأنه لم يكن يشكّ بأنه سيتزوج هذه الأميرة وأنّه سيُصبح على الأقل ملكَ ميكوميكون. الشيء الوحيد الذي كدّر اللذة التي أحسّ بها في هذا التخيّل الممتع هو أن هذه المملكة تقع في أرض الزنوج وأن الناس الذين سيحكمهم زنوج؛ لكنه ما لبث أن وجد دواءً لهذا المانع. قال: «ايه! وماذا يهمّ إن كان أتباعي زنوجاً؟ بل إن ذلك أفضل. وما عليّ إلا أن أنقلهم إلى اسبانيا حيث أبيعهم وأربح من بيعهم مالاً وافراً أشتري به مركزاً ما، ثم أَعيش دون همومٍ بقيةَ أيامي. ايه! ولمَ لا؟ أأنا أصغر من أن أدير أعمالي؟ وهل يحتاج المرء إلى كثيرٍ من الفلسفة لبيع عشرين ألف عبد أو ثلاثين ألفاً؟ أوه! لا شك أني سأنجح في ذلك، من أكبرهم إلى أصغرهم، وأني سأجعلهم بيضاً أو صفراً حتى لو كانوا أشد سواداً من شيطان جهنّم! ايه! لا، لا، اقتربوا فقط وسترون إن كنت أحمق!».

كان سانشو يسير مصحوباً بهذه الخواطر السارّة، فيبدّد ضجرَه الناجم عن سيره على قدميه.

في هذه الأثناء، رأى الكاهنُ الذي ظلّ بمعزلٍ عنهم، أن يدخل على



http://www.ithar.com

المسرح. فظهر فجأةً في الطريق وصاح: أهلاً بهذا اللقاء، يا مواطني العزيز دون كيشوت دي لامانش، زهرة الرقّة وزبدتها، مَعْقل المحزونين، وجوهر الفرسان الجوّالين!».

وحين قال هذا، قبّل ساق دون كيشوت الذي دُهش ممّا فعَله هذا الرجلُ فأَمْعنَ النظرَ فيه وعرفه، وفوجىءَ برؤيته هنا. وبذل وسعه لكي يرتمي على الأرض، لكن الكاهن منعه من ذلك.

ــ قال دون كيشوت: أرجوك يا سيدي الكاهن، فليس من العدل أن أكون على حصاني في حين أن سيادتك على قدميك.

ــ أجاب الكاهن: لا أقبل أن تترجّل. وَلْتَبْقَ سيادتكَ على الحصان حيث تقوم بكثيرٍ من العجائب؛ ويكفيني أن يُردفني أحدُ هذين البغلين، إن قَبِل هذان السيّدان تحمّلي. وسأكون مرتاحاً جداً، وأنا أفضِّل صحبتكم بهذه الطريقة على أن أمتطي «البيغاز» أو الفرس الوحشية لذلك العربـي الشهير مستاش الذي ما يزال اليوم مسحوراً في ساحل «زليمه» قرب كوميلتو العظيمة.

ــ قال دون كيشوت: الحق معك، سيدي الكاهن، ولم يخطر ذلك على بالي، وأعتقد أن السيدة الأميرة ستتكرّم، حبّاً بـي، بأمر مرافقها أن يعطيك سرجَ بغلته ويكتفي بالكفل؛ إن كانت البغلة معوّدةً على هذه الطريقة.

وهكذا سارت الجماعةُ مكتملةً في طريقها إلى قصر دون كيشوت الذي لم يخامره الشك في ذلك.

• • •

http://www.ithar.com

# «قصة الأميرة ميكوميكونا من ميكوميكون في بلاد الزنوج، ومغامرات سانشو بانسا»

كان أول ما فعله فارسُ الوجه الحزين بعد مسيرتهم، هو انفراده بمرافقه ليفهم بدقة تفاصيل مهمته. أبدى سانشو الأمين في هذه المناسبة حضورَ بديهة خارقاً، والجزئياتُ التي دخل فيها سرّت سيّده ولا سيما أنه استقاها كلها من خياله. فلما فرغا من هذه النقطة الهامة بما يرضيهما كليهما، عاد إلى الجماعة.

قال الفارس مخاطباً الأميرة ميكوميكون «أتوسّل إليكِ أن تخبرينا بقصة مصائبك، إن لم تحرصي على إخفائها، وأن تقولي لنا مَنْ هم الناس الذين تشكين منهم والذين ينبغي لي أن أنتقم لكِ منهم.

ـ أجابت دوروتي: إني أقبل بذلك عن طيب قلب؛ ولكني أخشى أن أُدخِل المللَ إلى قلوبكم وأنا أروي كلَّ هذه الأشياء الكريهة.

ـ ردّ دون كيشوت بسرعة: «كلا، كلا، على العكس، سنكون ممتنّين كثيراً».

وفي الوقت نفسه، دنا الكاهن والحلاقُ من الأميرة ليسمعا القصة الخيالية التي ستقصّها؛ ودنا أيضاً سانشو الذي لم يكن في هذا المجال أقلّ جنوناً من سيّده، وأصاخ السمعَ. بعد ذلك، أصلحتْ دوروتي وضعها على ظهر البغلة كأحسن ما تستطيع لتتمكن من الكلام براحةٍ، وبعد أن سعلت وبصقت وتمخّطت، بألطف طريقة، بدأت هكذا قصّتها المحزنة:

«أولاً، يا سادتي، اعلموا أنني أُدعى...» وهنا توقّفت بعضَ الوقت لأنها لم تتذكّر الإسم الذي سمّاها به الكاهن. لكنه عندما رأى ارتباكها سارع إلى نجدتها، فقال: «ليس أمراً مدهشاً، يا سيدتي، أن تضطرب سموكِ في حكاية مصائبها، وتلك نتيجة طبيعية من نتائج الكروب الكبيرة أن تُشوِّش الخيالَ والذاكرة، وما أصاب الأميرة ميكوميكونا ليس بالشيء الطفيف، لأنها اجتازت الديار والبحار بحثاً عن الدواء.

ـ قالت دوروتي: أعترف أن صورةً رهيبة اعترضتْ ذهني فجأة حتى أني لم أدر ما أقول؛ لكني أعتقد أنني صحوتُ الآن وآمل ألا أحتاج بعد الآن إلى المعونة. تعلمون، يا سادتي، أنني الوارثة الشرعية لمملكة ميكوميكون الكبرى وأن الملك والدي الذي كان يُدعى «تيناكريو» الحكيم، والذي كان علاّمةً في السحر، عرف من علمه أن الملكة «كزاراميلاّ»، أمي، ستموت قبله وأنه سيموت بعدها بقليل، وأنني سأظل يتيمةً. وما كان ذلك ليُحزنه كثيراً باعتباره شيئاً طبيعياً سائراً على نظام الطبيعة، لولا أنه علم، في الوقت نفسه، بأنوار فنّه الذي لا يُخطىء أن عملاقاً فائق الضخامة، سيّد جزيرة كبيرة على تخوم مملكتي ويُدعى باندافيلاندو ذو الرؤية المظلمة، ولُقِّب كذلك لأنه ينظر دائماً نظرةً جانبية وكأنه أَحْول (وهو ما لا يفعله إلا عن خبثٍ، ليُرهب الذين ينظرون إليه)

http://www.ithar.com

علم أبـي، كما قلتُ، أن هذا العملاق حين يعلم أنني سأغدو يتيمة يُقرّر أن يدخل ذات يوم بجيشٍ كبير ممالكي ويسلبها جميعها مني دون أن يترك لي أقّل قريَةٍ ألجأ إليها؛ لكني يمكن أن أتفادى هذا الكَرْبَ إن تزوّجتُه، وهو أمرٌ رأى أبـي أنني لا يمكن أن أرضى به. وكان أبـي على حقّ حين فكّر كذلك، لأنني رفضتُ بتاتاً أن أتزوّج من هذا العملاق، ولن أتزوّج مقابل كل خيرات الدنيا بأي عملاقٍ مهما كان، ولو كان أكبر وأرهب. وقال لي أبـي أيضاً إنني بعد موته سأرى «باندافيلاندو» يجوس أراضيّ فلا ينبغي أبداً أن أتصدى للدفاع عنها لأن دفاعي سيكون خاسراً؛ ولكن عليّ أن أدعَ له المملكة دون مقاومة إذا شئتُ أن أخلّص نفسي وأحول دون دمار رعاياي المساكين؛ وأن أختار أكثرهم أمانةً وأمضي دون إبطاء إلى اسبانيا حيث سألقى حامياً قوياً في شخص فارسٍ جوّال معروفٍ في الأرض كلها ببسالته وقوته، ويُدعى، إذا أَسْعفْتني الذاكرةُ، دون شيكو، أو دون غيجو...

ــ قاطعها سانشو: قولي، من فضلك دون كيشوت، أو فارس الوجه الحزين.

ــ قالت دوروتي: أنتَ على صواب، هو دون كيشوت. وأضاف أبـي: إنه طويلٌ. جاف الوجه، وبكلمة واحدة، لقد صوّرك بأمانةٍ، يا سيدي، حتى إني لم أجد مشقّةً في التعرّف عليك. وليس لديّ ما أضيفه على ذلك، سوى أنني صرت أرى نفسي جالسةً على عرش آبائي بما أنك كنتَ من الرقة والكرم بحيث وعدتني بجميل فضلِكَ، وأنك ستَصْحبني إلى حيث أشاء أن أقودك، ضد الخائن «باندافيلاندو» ذو الرؤية المظلمة، وآمل أن تنتقم لي انتقاماً تاماً بأن تنتزع منه حياتَه والمملكة التي سلبني

إياها ظلماً وعدواناً. نسيتُ أن أقول لكم أن الملك تيناكريو ترك لي ورقةً مكتوبةً بأحرفٍ يونانية أو عربية لا أُحسن قراءتها يأمرني فيها انني بعد أن يعيدني إلى مملكتي الفارسُ يجب أن أقبل به زوجاً دون تأخر لو طلبَ الزواجَ مني، وأن أُملِّكه المملكةَ وشخصي رأساً.

ـ قال دون كيشوت: ما رأيُك، يا صديقي، سانشو. أَتسمع ما يُقال. كم مرةٍ حدّثتكَ عن ذلك؟ انظر الآن إن كان في حوزتنا ممالك وبنات ملوك للزواج!...

ـ قال سانشو: وهذا ما كنا ننتظره منذ زمن طويل!

ـ استأنفتْ دوروتي كلامها: هذه هي قصة مصائبي، أيها السادة. ولم يبق لي ما أقوله سوى أن جميع الذين خرجوا معي من مملكتي، لم يبق لي منهم سوى هذا المرافق ذي اللحية الطويلة. وقد هلكوا جميعاً في عاصفة قبالةَ المرفأ؛ ونجوتُ أنا ومرافقي، كلٌّ على لوحٍ خشبي، بمعجزةٍ جعلتني أعتقد أن السماء تخبّىء لي مغامرةً سعيدةً.

ـ قال دون كيشوت: لقد وجدنا تلك المغامرة أيتها السيدة الرفيعة الشأن؛ وأنا أؤكِّد ما عزمتُ على منحه، وأقسم مرة أخرى أن أتبعكِ إلى أقاصي العالم وألا أَنفصل عنك قبل أن أصارع عدوك الظالم واللدود الذي أنوي بمعونة السماء وقوة ساعدي أن أقطع رأسه، ولو كان ببسالة إله الحرب. وبعد أن أعيد إلى حوزتك مملكتَك سأترك لكِ كاملَ حريتك في أن تتصرّفي بشخصك؛ لأنني، ما دامت إرادتي خاضعةً لقوانين التي... لن أزيد على ذلك، ويستحيل عليّ أن أفكّر في الزواج، حتى ولو كان زواجاً من الفنيق.

http://www.ithar1.com



حَزِنَ سانشو بانسا الذي كان يصغي بانتباه إلى جواب سيده، من الكلمات الأخيرة التي قالها دون كيشوت، حتى إنه لم يتمالك نفسه من إظهار حزنه، فقال: أقسم بحياتي الزائلة أنك فقدتَ عقلك يا مولاي دون كيشوت. إيه! كيف يمكن أن تتساءل إن كنتَ ستتزوج هذه الأميرة العظيمةَ؟ أتظنّ أنك يمكن أن تلقى مثل هذا الحظ عند كلّ مفترقِ طريق،

http://www.ithar.com

أو هل تظن أن السيدة دولسينيه أجمل من الأميرة؟ نعم، كلّ ذلك من أجلها، وجمالها لا يُساوي نصف جمال الأميرة، وهي غير جديدة بخلع حذائها. آه! بهذه الطريق يمكنني أن أنال هذه الأمارة التي طالما انتظرتُها وطالما وعدَتني بها! الثمارُ يانعةٌ، فتزوّجْ، تزوّجْ، بحقّ جميع الشياطين وخُذْ لي هذه المملكة التي تقع تحت يدك؛ وإذا صرتَ ملكاً فاجعلْني مركيزاً أو كونتاً، وكفى». لم يُطق دون كيشوت التجديفَ الذي فاه به سانشو على سيدته دولسينيه، فرفع رمحه دون أن يقول شيئاً وأهوى به عدة مرات على رأس المرافق المتسرّع فرماه أرضاً؛ ولو لم تصرخ به دوروتي لكي يتوقّف لقضى عليه في أثناء الغضب الذي انتابه. وقال: «أتظن أيها الفلاح الحقير أنني دائماً بالمزاج الذي يتحمّل وقاحاتك وأنني سأسامحك في كل ساعة؟ لا تتخيّلْ ذلك بعد الآن، أيها الخائن المحروم؛ نعم أنت محرومٌ، دون شك، لأنك جدّفتَ على دولسينيه التي لا شبيه لها. ألا تعلم، أيها التافه، أنني استمدّ بسالتي وقوتي منها وأنني عاجز دونها عن التغلّب على طفل؟ قلْ لي، يا لسان الأفعى، مَنْ الذي استولى على هذه المملكة، ومن الذي قطع رأس ذلك العملاق، ومن الذي نصّبكَ مركيزاً، لأنني أعتبر ذلك وكأنه قد تمّ، إن لم تكن بسالةُ دولسينيه ذاتها التي استخدمتْ ساعدي لتقوم بهذه المآثر العظيمة؟ هي التي تُقاتِلُ بي وهي التي تُحرز انتصاراتي، كما أنني أحيا وأتنفّس فيها، ومنها أستمدّ كياني وحياتي. يا لك من جبان خبيث! ولا شكّ أنك جاحدٌ للنعمة؛ لقد رفعتُكَ، منذ برهةٍ فقط، من التراب إلى مرتبة السادة العظام، وها أنت تعترف بالجميل وتغتاب الذين أحسنوا إليكَ!».

http://www.ithan.com

لم يكن سانشو في حالة سيئة تمنعه من سماع كل ما قاله سيُده؛ لكنه أراد أن يكون في موضعٍ آمن ليُجيبه. نهض بسرعة ومضى فاحتمى بجواد الأميرة وقال لدون كيشوت: قلْ لي، يا سيدي، أليس صحيحاً أنك إن لم تتزوج من هذه الأميرة، فلن تكون مملكتها لك؟ وإذا كان الأمرُ كذلك فما المكافأة التي ستمنحني إياها؟ من ذلك شكوتُ، فهل أنا مخطىءٌ؟ ولماذا تُصعِّب الزواج بهذه الملكة، في حين أنها بين يديك الآن، وكأنها قد هبطتْ من السماء؟ أمّا بشأن الجمال، فلن أتعرّض لذلك، وللحقيقة أقول انهما كليهما جميلتان وإن كنتُ لم أَرَ السيدة دولسينيه.

ــ قال دون كيشوت: كيف، لم ترها، أيها الخائن؟ ألم تَحْمل إلي منذ حين جواباً من عندها؟

ــ أجاب سانشو: قلتُ إني لم أرها بما يكفي لملاحظة جمالها بالتفصيل. لكنها بالجملة جميلةٌ جداً.

ــ قال دون كيشوت: أنا أغفرُ لك الآن، واغفر لي أيضاً ذلك الإنزعاجَ الصغير الذي سبّبتُه لك: إن الحركات الأولى لا تَخْضع للإنسان.

ــ قال سانشو: أحسستُ بذلك من نفسي، فالرغبة في الكلام هي دائماً في الحركةِ الأولى التي لا أستطيع مقاومتَها؛ يجب أن أقول مرةً على الأقل ما يجري به لساني.

ــ قال دون كيشوت: مع كل ذلك، خذْ حذركَ في المستقبل من الطريقة التي تتكلّم بها؛ إذ، في نهاية الأمر لا تسلم الجرةُ في كل... ولن أزيد على ذلك شيئاً.

ــ قال سانشو: حسناً! إن الله يرى من السماء كيف يجري كلُّ شيءٍ

http://www.ithar.com

في هذا العالم؛ وسيحكم بيننا مَنْ الذي يَقْترف شراً أكبر: أنا الذي لا يُجيد الكلام أم أنت الذي لا يجيد الفعل.

ـ قالت دوروتي: كفى، يا سانشو، اذهبْ وقَبِّلْ يدَ سيدك، وأنت، أيها السيد، اطلب الصفحَ منه، وتذكّرا في مرةٍ أخرى أنكما إذا لمْتما أو مدحْتما فليكنْ ذلك بتحفّظٍ أكبر. وبخاصة لا تَغْتبْ سيدة توبوزو التي لا أعرفها والتي أودّ لو أخدمها من كل قلبي، لأن دون كيشوت الذائع الصيت يحترمها: على كل حال، ثِقْ بي، ولن تفوتك المكافأةُ».

وذهب سانشو خافض الرأس يطلب يد سيده الذي مدّها إليه بكثير من الوقار.

• • •

http://www.ithar.com

# الفصل الرابع عشر

## «دون كيشوت الذي يحمَل في قفصٍ من خشب وتحفُّ به طائفةٌ من الشياطين يعود بحزنٍ إلى قريته»

وبينما هم كذلك رأوا في الطريق رجلاً يركب حماراً مقبلاً عليهم وقد ظنّوه غجرياً عندما دنا منهم. لكن سانشو الذي كان كلما رأى حماراً، منذ فَقْد حماره، وثبَ قلبُه، لم يكد يرى الرجل حتى عرف أنه «جينيس دي باسامون» ــ وكان هو ذاته بالفعل ــ وقد تنكَّر بهيئة غجريّ؛ وكان يَفْهم لهجتهم تماماً، لكي لا يُعرَف ولكي يبيع الحمار الذي نكَّرَهُ أيضاً؛ لكن بما أن الدم النقيّ لا يمكن أن يكذب فإن سانشو تعرّف على دابته وعلى راكبها، وصاح بأعلى صوته: «آه! أيها اللص جينيسيل، دعْ لي ملكي، وراحتي وحياتي؛ أَعِدْ إليَّ حماري، ولذتّي وفرحي؛ اهربْ، اهربْ، يا قاطع الطريق؛ أغربْ عني، يا ابن اللص، وأَرِحْ ما سلبتَه. لا يحتاج إلى كثيرٍ من الكلام مَنْ يَفْهم من الإشارة؛ فمنذ أول كلمةٍ، وثب جينيس إلى الأرض وجرى بسرعة متزايدة حتى ابتعد في لحظةٍ عن أعدائه الذين لم يكلّفوا أنفسَهم اللحاق به.

دنا سانشو من حماره وعانقه بكثيرٍ من الحنان، وقال له: كيف صحتُّك، يا ولدي، يا حمار روحي، يا رفيقي العزيز، ويا صديقي


http://www.ithar.com

الوفي؟. كان يقبّله ويداعبه، وهو يقول ذلك، مثل شخصٍ أحبّه حبّاً جمّاً.
لم يعرف الحمار بمَ يُجيب، وتركَ صاحبه يقبّله ويداعبه دون أن يردّ
بكلمة. وصلت الجماعةُ في هذه الأثناء، وأبدى كلٌّ فرحَه لأن سانشو عثر
على حماره: وأثنى دون كيشوت على طبيعته الطيبة، وأكّد له الوعد الذي
وعده بالجحاش الثلاثة.



عند المساء، كانت الجماعةُ عند باب النزل الذي نُطِّطَ فيه سانشو،
ودخَلَ هذه المرة دون أن يُظهر خوفاً، إما لأن عثوره على حماره صَرَفه
عن أيّ شاغلٍ آخر، وإما لشعوره بالأمن في حضور سيّده. ولم يَفُتْ دون
كيشوت أن يُحيّي صاحبةَ النزل بأدبٍ جمٍّ ونَعَتَها بأنها السيدة صاحبة
القصر، وظنّ نفسه أسعدَ فارس في المسيحية عندما تنازلت ماريتورن
الضخمة وحملتْ مصباحاً لتدلّه على غرفته.

http://www.ithar.com

في هذه الأثناء، انفرد الكاهنُ والحلاق في غرفةٍ مجاورة لقد أدركا أنهما لم يقوما بغير نصف مهمّتهما حين جاءا بدون كيشوت إلى النزل، ففكّرا في الوسيلة التي يقودان بها دون كيشوت أخيراً إلى قريته دون أن يتعسّفا في استخدام مجاملة «دوروتي»، وكان للكاهن شرفُ الابتكار الذي تبنّياه نهائياً. بدأا بمساومة سائق عجلةٍ كان ماراً من هنا، فاستأجرا ثَوْريه وعجلته ليومين، وعملا بعد ذلك بعصيٍّ كبيرة متشابكة ما يُشبه القفصَ الكبير الكافي لاحتجاز رجلٍ مع إبقائه براحته. ثم تنكروا بأشكالٍ شتّى مع بعض الخدّام والفلاحين، ودخلوا بصمتٍ شديد غرفةَ دون كيشوت، واقتربوا بهدوءٍ منه، بينما كان ينام نوماً عميقاً، بعيداً عن التفكير في مثل هذه المغامرة، وربطوا ربطاً مُحكماً يديه ورجليه، وعندما استيقظ لم يستطعْ أن يفعل شيئاً سوى تأَمُّلِ الحالة التي كان فيها والنظر إلى جدّة هذه الوجوه الغريبة التي تحيط به.

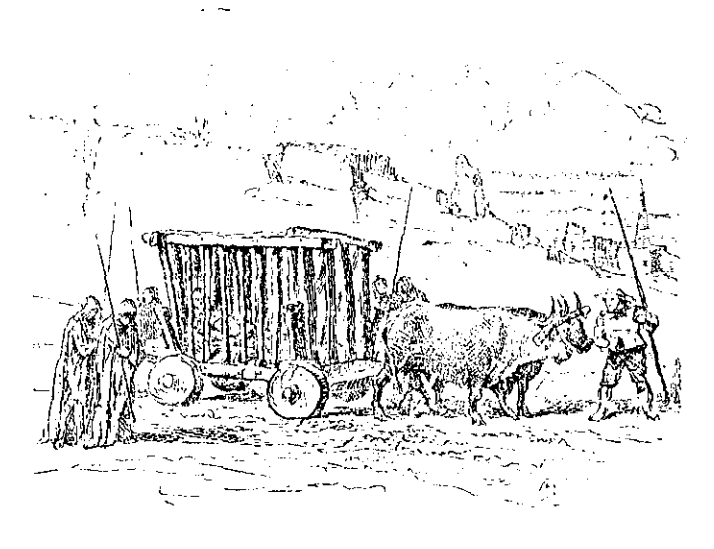
اعتقد على الفور ما مثّله له خيالهُ الغريب في كل ساعة، أن هذه هي أشباح هذا القصر المسحور وأنه هو مسحور لأنه لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ولا أن يتحرّك. كلُّ ذلك نجح بدقةٍ كما فكّر الكاهنُ الذي كان مبتكر هذه الآلة المسلّية.

بين جميع الذين حضروا هذا السرَّ، كان سانشو هو وحده بهيئته العادية، ولعله الوحيد الذي كان بعقله السليم. ومع أنه لولا قليل لجنَّ كمعلّمه إلا أنــه استطــاع أن يتعرّف على جميع هذه الوجوه المشوّهة؛ لكنه لم يفتح فمه حـتى يعرف ما الغاية من هذه الحيلة التي احتالوا بها على دون كيشوت الذي كان بدوره ينتظر ما يمكن أن يقع له دون أن يتفوّه بكلمة. جِيءَ بالقفص، ووُضِعَ في داخله، وأُحكم إغلاقُ ألواح الخشب

بحيث كان لا بدّ من جهودٍ كثيرة لكسرها، وحمله الأشباحُ على أكتافهم، وعند مخرج الغرفة سُمع صوتٌ قوي وصارخ، بقدر ما استطاع نيكولا الحلاق أن يطلقه. كان يقول: «يا فارس الوجه الحزين! لا تُدهَش من الأَسْر؛ إذ لا بدّ أن يقع ذلك حتى يُنجَز المشروعُ الذي حملتْكَ عليه عظمةُ شجاعتك بأسرع وقت. وستُرى نهايةُ هذه المغامرة العظيمة عندما يرتبط أسدُ المانش وحمامةُ توبوزيـــن البيضاء برباط القِران السعيد، بعد أن يُخضعـا رأسيهمـا البهييـن للنيـر المُفـرح، نيـر الـزواج الجميـل الـذي سيخرج منه ذاتَ يوم للنور أشبالٌ باسـلـون ينقلون براثنهم على الخطا الفذّة لأبيهم الفذّ. وينبغي أن يقع ذلك قبل أن يتصل مرتين الذي يلاحق الحوريةَ الهاربة، بالصور اللامعة لفلك البروج، سالكاً مجراه الطبيعي والسريع. وأنتَ يا أنبل المرافقين وأكثرهم طاعةً ممّن تقلّدوا السيفَ. لا تَحْزنْ ولا تيأسْ حين ترى زهــرة الفروسيـة الجوّالة وزبدتها يُخطَف أمام نور عينيك. لأنك ستراه، قبل مرور عددٍ مـن الأقمار، إذا شاء مهندسُ الطبيعة الذي لا شبيه له، في درجة سامية جداً، ورفعةٍ عظيمة بحيـث تبحـث عـن نفسـك دون أن تعـرفهـا، وبحيـث تستـمـتـع منـذئـذٍ استمتاعاً هادئاً باليقينيّة المطلقة لوعود سيّدك. وأؤكّد لك مرةً أخرى، ومـن قِبَـل الحكيمـة «منتيـرونيـانيـه» أن أعمـالـك الجبـارة لـن تبقـى دون مكافأة، وأنك سترى في زمنه ندىً خصباً من الأجور. امضِ أيها المرافق الإلٰـهي على آثار الفارس الباسل والمسحور؛ لأنـك يجب أن ترافقه إلى أن تتوقّفا عند الغاية التي رسَمها القدرُ؛ ولأنني لا يُسمحَ لي أن أقول أكثر ممّا قلتُ، وداعاً وأنا عائد إلى حيث كنتُ، إلى المكان الذي لا يعلمه سوى الله.


http://www.ithar.com

عند نهاية النبوءة شدّد الحلاّقُ صوته ثم خفضه فجأة وبلهجة الوحي الإلٰهي، فأدهشهم جميعاً إلى حدّ أن الذين كانوا على علمٍ بالخدعة خامرهم الشكُّ حول حقيقة ما سمعوا. وجد دون كيشوت عزاءً في وعود الوحي، وقد فهم معناها على الفور، وهي وعودٌ جعلتْه يأمل بأنه سيتّحد ذات يوم بالروابط المقدّسة للزواج الشرعي من الحبيبة العزيزة «دولسينيه دي توبوزو» الذي ستَلِد أحشاؤها الخصبةُ أشبالاً، أولاداً له يخلّدون مجدَ «المانش». آمنَ بذلك إيمانَه بكتب الفروسية، فتنهّد تنهّداً عميقاً وصاح بصوتٍ عالٍ وقويّ: «يا من بشّرني بهذه الأشياء العظيمة، أنتَ، أيّاً كنتَ، أرجوك، أن تَطرد عني بالتعزيم، الساحرَ الحكيم الذي يُدير شؤوني، وألا تدعني أهلك في هذا السجن الذي أُقادُ فيه، وأن تَعْمل بحيث أرى التمامَ السعيدَ للوعود الفريدة التي أعلنتَها لي؛ وريثما تتمّ تلك الوعودُ سأمجّد آلامَ أسري، ولن أنظر إلى المكان القاسي والضيّق الذي أَضطجعُ فيه لا على أنه ساحة القتال الضَنْكة والشديدة بل على أنه كفراش الزواج الناعم والوثير. أما حرصُك على تعزية سانشو بانسا، مرافقي، فأنا أشكرك



على ذلك، ولي ثقةٌ كبيرةٌ بأمانته ومودّته، وأنا على يقينٍ من أنه لن يتركني في بؤسي كما أنه لن يتركني في نعيمي. وإذا لم يسعفني الحظُّ في إعطائه الجزيرة التي وعدتُه بها، أو إعطائه شيئاً آخر بالأهمية نفسها، فهو مؤمَّنٌ دائماً بأجوره. لأنني عُنيت بأن أُعلن في وصيّتي عمّا أريد أن يُعطى، وهو شيءٌ غيرُ جدير بعظمة خدماته، ولا هو على قَدْر نيّتي، لكنه كلّ ما أستطيع أن أفعله بحسب قدرتي الحاضرة». تحنّنَ سانشو بانسا من طيب سيّده، فانحنى انحناءةً عظيمةً، تحيةً له، وقبّل يديه الاثنتين إذ لم يستطعْ أن يمسك بيدٍ واحدة بسبب الطريقة التي ربطت بها اليدان؛ وفي اللحظة نفسها وضع الأشباحُ القفصَ في العجلة.

• • •

http://www.ithar.com

# الفصل الخامس عشر

## «الذي يحتوي على أشياء شتّى»

عندما رأى دون كيشوت نفسه حبيسَ القفص وتأمّلَ في الطريقة التي يُقتاد بها، قال: «لقد قرأتُ قصصَ الفرسان الجّوالين، لكنني لم أقرأ بعد، ولا رأيتُ، ولا سمعتُ في حياتي كلها أن الفرسان المسحورين يُقادون بهذا الشكل، وبهذا البطء الذي هو عادي لدى هذه الحيوانات الثقيلة والكسولة. كانت العادةُ أن يُخْتَطَفوا في الهواء بسرعةٍ فائقةٍ تَلُفُّهم سحابةٌ مظلمةٌ، أو على عربةٍ من نار، أو على جواد مجنّح، أو على أيّ وحشٍ مشابه؛ أما أن أُقاد أنا على عجلة يجرها ثوران فأَنا أعترف أنني أموت خجلاً من جرّاء ذلك؛ لكن، ربما كانت الفروسيةُ والسحر اليوم لا يُراعيان القوانينَ القديمة. وقد يكون أنه باعتباري فارساً جديداً في العالم وأول فارس في هذا الزمن أحيا ممارسة الفروسية المدفونة في النسيان، قد ابْتُكِرَتْ بسببي أنواعٌ جديدةٌ من السحر، وطرقٌ جديدة لاقتياد المسحورين. ما رأيكَ، يا صديقي سانشو؟

ـ أجاب سانشو: لا أدري ما رأيي، لأنني لم أقرأ مثلك في الكتابات الجوّالة؛ لكنني مع ذلك أُقسم أن جميع هذه الرؤى التي تُحيط بنا ليست كاثوليكية!

ـ قال دون كيشوت: يا أبانا الأبدي! ايه! كيف تكون كاثوليكية إذا كانت الشياطين قد اتّخذت هذه الأجسام العجيبة لتضعني في هذه الحالة الغريبة. لكن إذا كنتَ تريد أن تعرف الحقيقة بنفسك فما عليك إلا أن تَلْمسهم فقط وأن تعالجهم بيديك، وسترى أنهم أجسامٌ هوائية وليس لهم من الأجسام سوى المظهر.

أجاب سانشو بسرعة: في الحقيقة، يا سيدي، لقد عالجتُهم بيدي معالجةً أكّدت لي أن الشيطان الذي يكدّ نفسه هنا هو من لحمٍ ودم، ولا أعتقد أنه يتغذّى بالهواء. ثم إن له خاصةً مختلفةً عن الخواص التي يُقال إن الشياطين تملكها وهي أن رائحة الكبريت تنبعث من فمها وكذلك غيرها من الروائح؛ لأن الشيطان هنا تفوح منه رائحة العنبر والمسك على بعد نصف فرسخ».

قال سانشو ذلك عن الحلاق الذي كان يرتدي تشكيلةً من سِلعه.

ـ قال دون كيشوت: لا تَعْجبْ من ذلك، يا صديقي سانشو: فالشياطين أَعلمُ ممّا تظنّ، وعندما تَحْمل روائح على أجسامها فهي لا تستطيع أن تشمّ شيئاً باعتبارها أرواحاً خالصة، وإذا ما أَرسلتْ رائحةً فلا يمكن إلا أن تكون شيئاً نتِناً وكريهاً. وسبب ذلك انها حيثما تذهب تجرّ جحيمَها معها، دون أن تستريح من عذاباتها؛ والرائحةُ الذكيةُ باعتبارها شيئاً يُبهج الحواس ويُريح، لا يمكن أن تنبعث من الشياطين لأنها محرومةٌ من جميع الملذّات. وعندما تتخيّل إذن أن الشيطان تفوح منه رائحةُ العنبر فإمّا أنّك مخدوع، وإمّا أنّه يريد أن يخدعَك لكي يمنعك من أن تعرفه على حقيقته.

في أثناء هذا الحوار بين السيد وخادمه، أثار دون كيشوت القلقَ لِما

http://www.ithar.com

اعتراه من شحوبٍ ورعدة؛ وخشيت الجماعةُ لحظةً من الزمن أن تكون الدعابةُ قد تجاوزت الحدّ.

رُتِّبت حزمةٌ من الكلأ في القفص لتكون فراشاً لدون كيشوت العظيم والشهير والذي لا يُقهَر، وحثَّ صاحبُ العجلة ثَوْرَيه بعد أن طلبَ إليه الكاهن ذلك. ولـم يصلوا قرية هذا النبيل المسكين إلا بعد ستة أيام بسبب بطء سَيْر هذه الحيوانات المتخلّفة. كان الوقت ظهراً، واليوم يوم الأحد، وقد تجمّع الناسُ في الساحة، وتعرّف بعضُ المشاهدين على مُواطنهم. وبينما أحاط جمهور الأهالي بالعجلة وهم يتزاحمون ليسألوا دون كيشوت عن أخباره، وليسألوا الذين رافقوه، لماذا يُقتاد دون كيشوت ومعه هذا الطاقَم، ذهب صبـيٌّ صغير ليُخبر ابنةَ الأخ والخادمة القيّمة بوصوله، وقال لهما أن السيد جاء في عجلة يجرّها ثوران وهو مضطجعٌ على الكلأ وقد غدا شديد الهزال، معروقاً وكأنه هيكلٌ عظمي أو أقلّ. كان شيئاً يدعو إلى الشفقة سماعُ هاتين السيدتين تصرخان، ورؤية الصفعات التي كانتا تصفعان بها خدودهما، وسماع اللعنات التي صبّتاها على كتب الفروسية، ثم استئنافهما ذلك كله عندما شاهدتا دون كيشوت في حالة أسوأ مما قيل لهما.

سمعتْ زوجةُ سانشو بانسا ضوضاءَ قدوم النبيل، وكانت تعلم أن زوجها تبعه بصفته مرافقاً حاملاً لأسلحته، فجاءت بين أوليات النساء مُهنّئةً، ولقيت أولاً سانشو، فقالت له: حسناً، يا زوجي، وحمارُنا هل هو في صحةٍ حسنة؟ ــ أجاب سانشو: صحتُه خيرٌ من صحة صاحبه ــ قالت: الحمد لله للنعمة التي أسبغَها عليّ! لكن أَخبرْني في هذه الساعة ما الذي ربحتَه بهذا المرافقة، يا صاحبي؛ أين التنانير التي حملتَها لي، وأين

http://www.ithar.com

الأحذية لأولادي؟ ــ أجاب سانشو: أنا لا أحمل شيئاً من هذا، يا امرأة، لكني أحمل أشياء أخرى أكثر أهميةً بكثير ــ قالت المرأة: ستسرّني أعظم سرور؛ أوه! أَرني هذه الأشياءَ التي هي أكثر أهمية، يا صديقي. أنا مشتاقةٌ إلى رؤيتها لأُفرح قلبي قليلاً وقد ظل حزيناً وحلّ به ما لا أعلم منذ أن غاب عني وجهُكَ. ــ أجاب سانشو: سأُريكِ إياها مع الزمن؛ فاصبري في الوقت الحاضر، وستكون لنا، إن شاء الله رحلةٌ ثانية نبحث فيها عن المغامرات، وسترينني عمّا قريب «كونتاً» أو حاكماً لجزيرةٍ، جزيرةٍ من الأرض اليابسة ومن أفضل الجزر، لا كتلك الجزر التي توجد بالعشرات ــ . قالت المرأة: عسى أن يسمح الله بذلك، يا زوجي. فنحن بحاجة ماسة إلى ذلك لكن ما هذه الجزر التي تتحدّث عنها. ــ أجابها سانشو: لم يُخلق العسلُ لفم الحمار. ستعلمين ذلك في الوقت المناسب، وستذهلين عندما يناديك أتباعُكِ: يا صاحبة السيادة ــ أجابت بسرعة جوان بانسا زوجة سانشو بانسا: ماذا تقول، عن السيادة والأتباع؟

ــ أجاب سانشو: لا تَسْتعجلي كثيراً لتعرفي ذلك كله، يا جوان: ففي اليوم أكثرُ من ساعة؛ يكفيكِ أنني أقول لكِ الحقيقة، فاسمعي ولا تسألي. واعلمي فقط وبصورة عابرة أنْ لا لذة في العالم أعظم من لذة المرء أن يكون مرافقاً لفارس جوّال يبحث عن المغامرات. ولا شك أن جميع المغامرات التي تقع لنا لا تأتي دائماً كما نشتهي، ومن مئة مغامرة تسعون منها تكون خاسرةً. عرفتُ ذلك بالتجربة، يا امرأة؛ اختبرتُ ذلك بنفسي، والشكرُ لله، صدّقيني: ومنها ما خُدعتُ فيها ونُطِّطْتُ، ومنها ما أُوسِعْتُ فيها ضرباً. ومع ذلك، وبالرغم من ذلك كله، فإنه لشيءٌ مفرحٌ أن يذهب المرءُ باحثاً عن الحظ متسلّقاً الجبال مخترقاً الغابات، بين

http://www.ithar.com

الأشواك والصخور، وليتكِ رأيتِ ذلك، زائراً القصور، آوياً إلى النُزُل دون أن يدفع ما يتوجّب عليه، مهما يكن الثمنُ غالياً.



بهذه الطريقة كان سانشو وزوجته يتحادثان بينما كانت ابنةُ الأخ والخادمة تخلعان عن دون كيشوت ثيابه وتُضجعانه في سريره القديم، وكان هو ينظر إليهما بعينين غشيَهما الاضطرابُ دون أن يتعرّف عليهما أو على نفسه. أوصى الكاهنُ ابنةَ الأخ أن تُعنى بعمها عنايةً كبيرة وأن تحترس بخاصةٍ من قيامه بمغامرةٍ أخرى. وروى لها المشقة التي تحمّلوها لإرجاعه إلى المنزل. وهنا عادت المرأتان إلى الصراخ أقوى من ذي قبل؛ وتفجّرتا من جديد بألف لعنةٍ على كتب الفروسية، وبلغ من حدّتهما أن تضرّعتا إلى السماء أن تُخزي في أعماق الهاوية مؤلّفي هذا الغش والشطَط. وأخيراً لم تفكّرا في غير السهر على هذا النبيل الطيب بعناية، وكانتا مذعورتين باستمرار لخشيتهما من فَقْده ثانيةً عندما يستعيد صحته؛ وقد وقع، مع ذلك ما خافتا أن يقع.

لكن أيّاً كانت العناية التي بذلها مؤلّفُ هذه القصة في البحث عن أفعال دون كيشوت في طلعته الثالثة، إلا أنه لم يتمكن من الحصول على

http://www.ithar.com

معرفةٍ دقيقة، على الأقل، خلال كتابات صحيحة. الشهرةُ وحدها، حفظت في ذاكرة شعوب «المانش» أن دون كيشوت، عندما خرج في المرة الثالثة، ذهب إلى سرقسطة، وكانت له فيها مباراةٌ شهيرة، قام فيها بأعمالٍ جديرةٍ ببسالته وبجودة أحكامه. ولم يستطع المؤلفُ أيضاً أن يَعْثر على شيء حول المغامرات الأخرى ولا حول نهاية حياته. وما كان ليعلمَ شيئاً لولا أنه التقى لحسن الحظ طبيباً قديماً كان له عنده صندوقٌ من الرصاص يقول إنه عثر عليه في أساسات صومعةٍ قديمة يُعاد بناؤها، وفيها وُجِد رقٌّ عليه أشعارٌ أسبانية بحروفٍ قوطية، تحتوي على بعض مآثر دون كيشوت، وتُشيد بجمال «دولسينيه دي توبوزو»، وتتحدّث عن قوة روسينانت، ووفاء سانشو بانسا مع أشياء أخرى خاصة. إن مؤلف هذه القصة التي لا تُصدَّق، وهو أمينٌ ومدقِّق، يَرْوي هنا كلَّ ما استطاع قراءَتَه، وهو لا يتمنّى على قارئه مكافأةً للجهد الذي بذله في تصفّح جميع سجلات «المانش»، إلا أن يُصدِّق كتابه، كما يُصدّق المثقّفون كتبَ الفروسية التي تحظى في العالم اليوم بالثقة. إنه لا يطلب أكثر من ذلك، وهذا وحده يَبْعث فيه النشاطَ للقيام بتحرّياتٍ جديدة، ويبحث من جديد للعثور على التتمّة الحقيقية لهذه القصة، أو على الأقل، للعثور على الأشياء الممتعة مثلها.

• • •

http://www.ithar.com

# «دون كيشوت دي لامانش ومرافقه سانشو يخرجان للبحث عن مغامراتٍ جديدة»

اتّخذ الكاهنُ والحلاقُ وابنةُ الأخ والخادمة احتياطاتهم لحَبْس دون كيشوت الشهير في بيته، ولإكراه أسد المسيحية، وزهرة الفرسان الجوّالين، ومرآة الفروسية، على الموت دون فائدة، في زاويةٍ من قصره النبيل؛ لكن القدر الذي يتلاعب بمشاريع البشر، أَفْشَل عبقريةَ الكاهن، ودهاءَ الحلاق، وحذرَ الخادمة وإرهافَ الفتاة. ففي ذات مساء سُحب روسينانت إلى خارج الإسطبل حاملاً صاحبه الفذّ وسالكاً طريقَ توبوزو وبصحبته سانشو بانسا وحماره.

جريا في تلك الليلة وفي اليوم التالي دون أن يصادفا مغامرةً، وعند حلول المساء، اكتشفا مدينة توبوزو الشهيرة؛ لم يكد فارسُنا يراها حتى أحسّ بفرحٍ لا يُصدَّق، في حين أصبح سانشو حزيناً وكئيباً من جرّاء ذلك، لأنه لا يَعْرف منزل دولسينيه، ولم يَرَ قط هذه السيدة الجميلة لا هو ولا سيّده. كاد دون كيشوت يقضي عليه الضجرُ، وكاد سانشو يَقْضي عليه الخوفُ من أن يُرسله إليها، وهو لا يتصوّر الهزيمة التي سيلقاها. ولم يشأ دون كيشوت أن يدخل المدينةَ إلا ليلاً؛ وفي هذه الأثناء توقّفا تحت بعض السنديانات عند مدخل المدينة، وعندما هبط الظلام دخلا «توبوزو»

http://www.ithar.com



كان الوقتُ حينئذٍ منتصفَ الليل. كان الصمتُ مخيّماً على الأهالي، لأن الوقت كان وقت النوم، وهم يؤدون في هذا البلد فريضةَ النوم كما تؤدَّى في أي بلدٍ في العالم. كانت الليلةُ مظلمةً على نحوٍ طفيف، وودّ سانشو لو كانت مظلمةً كلّياً لتكون الظلمةُ عذراً لجهله. ولم يكن يُسْمَع في جميع أرجاء القرية سوى عواءِ الكلاب التي أزعجتْ دون كيشوت وأخافت سانشو، وحركةِ حمارٍ يرعى، ونخر الخنازير، والقرقعة المخيفة التي

http://www.ithar.com

تُحدثها الهررةُ على القرميد؛ هذه الأصوات المختلفة والمختلطة معاً والتي كان يزيدها صمتُ الليل شدّةً، كان فيها شيءٌ مرعبٌ وكئيب حتى إن فارسنا العاشق عدّها شؤماً عليه؛ لكنه لم يُظهر شيئاً من ذلك، وقال لسانشو: «سانشو، يا بني، لِنَمْضِ إلى قصر «دولسينيه»، فلعلها لم تنمْ بعد.

ــ أجاب سانشو: إلى أي قصرٍ ملعونٍ، سامحني الله، تريد أن أقودكَ، لأن المكان الذي رأيت عظمتها فيه لم يكن سوى منزلٍ منخفضٍ صغير وأقلّ بيوت القرية ظهوراً؟

ــ قال دون كيشوت: لا شك أنها كانت حينئذٍ معتكفةً في جناحٍ ما من قصرها حيث تلهو مع بناتها كما تفعل الأميراتُ عادةً.

ــ قال سانشو: لِنَقلْ، يا سيدي، أن منزل السيدة «دولسينيه» قصرٌ، فهل هذه هي الساعة التي نجد فيها البابَ مفتوحاً، وهل تنصحني بالذهاب لأَسْتنفر جميعَ الناس بالضرب الشديد على الباب كي يفتحوا لي. لنذهبْ، بالأحرى، إلى الحانة حيث تفتح طوال الوقت.

ــ قال دون كيشوت: لِنبحثْ أولاً عن القصر، فإذا وجدناه أَنْبأتكَ بما يجب فعلُه. لكن ألا ترى معي، يا سانشو، شيئاً ضخماً وقاتماً أمامنا؟ لا بد أنه قصر «دولسينيه».

ــ أجاب سانشو: إذن، خُذْنا إليه يا سيدي. فقد يكون هو نفسه القصر، لكنني لو رأيته بأم عينيّ لما صدَّقتُ».

تقدّمه دون كيشوت، وبعد أن سار نحو مئتي قدم بلغ برجاً كبيراً عرَفَ أنه بُرج كنيسة الناحية، فصاح: هذه هي الكنيسة التي نلقاها، يا سانشو.

http://www.ithar.com

ـ أجاب سانشو: أرى ذلك، ولقد أراد الله ألا نلقى قبرنا!

إذ ليس من حُسن الطالع أن تطوف ليلاً في المقابر؛ وإذا كنتُ أتذكّر جيداً فقد قلتُ لك، على ما يبدو، إن بيتها يقع في طريقٍ مسدود.

ـ أجاب دون كيشوت: أتريد أن تَدْفعني إلى اليأس، أيها القاسي؟ أين سمعتَ أن البيوت الملكية تُبنى في مثل هذه الأماكن.

ـ أجاب سانشو: يا سيدي، لكل بلدٍ تقاليدُه وعاداته، وتقاليدُ توبوزو وعاداتُها أن تُبني القصورَ والمباني الكبيرة في الشوارع؛ دعْني أبحث، أرجوك، فسوف أعثر على هذا القصرِ الكلبِ في قُرنةٍ مَخْفيّةٍ ما؛ أودّ لو يبتلعه الشيطان، بدل هذا العذاب الذي نتعذّبه.

ـ صاح دون كيشوت: لنتكلّمْ باحترام عن كل ما يخصّ السيدة دولسينيه، فهذه هي وسيلتنا للعيش بسلام.

ـ قال سانشو: العفو، يا سيدي؛ كيف تريد، بحق الشيطان، أن أعثر من أول مرّةٍ على بيتها، وأنا لم أره سوى مرةٍ واحدة في حياتي، في حين أنك لم تستطع أن تعثر عليه مع أنك رأيتَه مئة ألف مرة؟

ـ قال دون كيشوت: أُقسم بالله الذي يسمعني! إنك تدفعني إلى اليأس؛ ألم أقل لك مئة وسبع مرات إنني لم أَرَ قصر دولسينيه الفريد، وأنني لم أَطأ قصرها قط، وأنني لم أُغرمْ بها إلا بناءً على شُهرتها بأنها أجمل وأَعْقلُ أميرةٍ في العالم.

ـ أجاب سانشو: آه! في هذه الساعة فهمتُكَ، يا سيّدي، وأنا أقول لك إذن، بما أنك لم ترها، فأنا، في الواقع، لم أرها أيضاً.

http://www.ithar.com

ــ ردّ عليه دون كيشوت: وكيف يكون ذلك؟ ألم تقلْ لي إنك رأيتَها تُغَرْبل القمح، عندما حملتَ إليّ جوابَ الرسالة التي كتبتُها إليها؟

ــ أجاب سانشو: لا تُصدِّقْ ذلك. وأنا أُعلمكَ أنني لم أرها، كما أنك لم ترها ولم تعرفها إلا سماعاً؛ والجواب الذي حملتُه إليكَ كان كذلك. معرفتي بها كمعرفتي بسلطان الترك!

ــ قال دون كيشوت: سانشو، سانشو، هناك وقتٌ للسخرية، ووقتٌ للفرح؛ فليست السخريةُ دائماً في محلّها».

بينما كان بطلانا يتحدّثان بهذا الشكل أبصرا رجلاً قادماً ومعه بغلتان، وأدركا من الصوت الذي كان يُحدثه المحراثُ أنه فلاحٌ ذاهبٌ إلى حقله منذ الصباح؛ وكذلك كان.

قال له دون كيشوت: صباح الخير، يا صاحبي، ألا يمكنك أن تُخبرني أين يقع هنا قصرُ الأميرة دولسينيه؟

ــ أجاب الفلاحُ: لستُ من هذه القرية، وأنا فيها منذ زمنٍ قريب، وأنا أعمل فيها عند فلاح غنيّ. لكن هوذا أمامك منزل كاهن الناحية وشماسها؛ ويمكن لأحدهما أن يُخبرك بأبناء هذه الأميرة، لأن لديهما قائمةً بأسماء أهالي توبوزو: ومع ذلك، فلا أعتقد أن في هذه القرية أميرة، لكنّي ربّما كنتُ مخطئاً؛ ها هنا عددٌ كبير من السيدات وكل واحدة يمكن أن تكون أميرةً في بيتها! «وفي الوقت نفسه هَمزَ البغلتين.

رأى سانشو أن سيده لم يكن مسروراً من هذا الجواب، وعندما أبصر ارتباكه، قال له: «هوذا النهار يوشك أن يطلع، وليس مستحسناً أن نظل هكذا في الشارع: إذا قَبِلْتَ مني، خرجْنا من المدينة، ودَلَفْنا إلى غابة

http://www.ithar.com

قريبة، فإذا طلع النهار عدتُ إلى هنا، وبحثتُ من زاوية إلى زاوية، ومن باب إلى باب بحثاً عن قصر محبوبتك، ولأَكنْ ملعوناً إذا لم أعثر عليه؛ ثم إذا لقيتُه، مضيتُ إلى عظمتها وقلتُ لها، إنك هنا تقريباً، وأنك ترجوها بكل تواضع أن تتمكن من الحصول على شرف رؤيتها دون أن تُؤذي شرفَها.

ـ قال دون كيشوت: في الحقيقة، يا سانشو، لقد قلتَ ألفَ حكمةٍ في ثلاث كلمات، وسأتبع نصيحتكَ؛ هيّا، يا بني، هيا نبحث عن مكان نتخفّى فيه، ثم تأتي أنت لتؤدي رسالتكَ إلى ملكة الجمال التي تجعلني حشمتُها ورقتّها أُؤَمِّل حظوةً عجائبية».

كان سانشو يتحرّق شوقاً إلى إخراج سيده من القرية، لفَرْط ما كان يخاف أن يكتشف الغشَّ في الجواب الذي حمله إليه قديماً في الجبل الأسود، من قِبَل دولسينيه. وإذن فقد سار أولاً، وبعد نصف فرسخٍ، لقيا غابةً، اختبأ فيها دون كيشوت، في حين عاد مرافقُه ليقوم بسفارته.

● ● ●

http://www.ithar.com

# «كيف وَجَد الماهر الحاذق سانشو الوسيلةَ ليسحر السيدة دولسينيه، مع أحداثٍ أخرى مضحكة وحقيقية»

دَلَفَ دون كيشوت إلى غابة سنديان غير بعيدة عن توبوزو، وأمر سانشو بالذهاب فوراً إلى المدينة، وبعدم العودة ما لم يُكلِّم سيدته ويتضرّع إليها لكي تَقْبل أن يَمْثُلَ أمام عظمتها الفارسُ عبدُ جمالها، ويتلقّى أوامرها من أَجل أن يأمل بالنجاح السعيد لجميع مشاريعه. حمل سانشو بطيب قلبٍ مهمّته، ووعد بأن يأتيه بجوابٍ مُفرحٍ كالمرة الأولى. قال له دون كيشوت: امضِ، يا بني، وإياكَ أن تضطرب عندما تدنو من ذلك النور الباهر لشمس جمالها. أيها المرافق السعيد، السعيد بين جميع مرافقي العالم، أنت الذي اخْتِيرَ ليرى كلَّ ما في الأرض من كنوزٍ محصورةٍ في شخصٍ واحد، لا تَنْسَ، أرجوك، أن تَنْقش في ذاكرتك الطريقةَ التي ستقابلكَ بها سيدتي، وهل يتغيّر لونها، وهل تَنْفعل عندما تُحدّثها عني، وهل هي قلقةٌ أو حزينة، وهل ستجدها واقفةً، ولاحظْ إن كانت ستقف على قدم حيناً وحيناً آخر على القدم الأخرى، وإذا كانت ستكرّر جوابها مرّتين أو ثلاثاً؛ لاحظْ عينيها، ونَبْرةَ صوتها وجميعَ أفعالها وحركاتها، وحين تصوّرت لي تصويراً ساذجاً حينئذ سأنفذ إلى خفايا قلبها، وساعلم

http://www.ithar.com

كل ما تُهمّني معرفتُه حول موضوع حبـي؛ إذ يجب أن تعلم، أيها الصديق سانشو، إن كنتَ لا تعلم، أن المحبّين، في موضوع الحب، يعرفون بالحركات الخارجية كلَّ ما يجري في قلب المحبوب. امضِ، أيها الصديقُ العزيز، لقد منحكَ الحظُّ مغامرةً أفضل من مغامرتي، وعسى أن تُحرز نتيجةً أسعد من التي أخشاها، وانتظرها في هذه العزلة الموحشة!

ــ أجاب سانشو: سأذهب وسأعود بسرعة، هدِّىء من روعك فقط وأَبعدْ عنك مخاوفكَ؛ وأنا أتخيّل، من رؤيتي لك، انقباضَ قلبك؛ هيّا، يا سيدي، هيّا تشجّعْ ولا تُبالِ بالشدائد؛ لن أدّخر وسعاً بالبحث عن قصر السيدة دولسينيه، وإذا لم أجدْه هذه الليلة فسأجده في هذه الساعة من النهار، وإذا ما وجدتُه فدعْني أشتغل شغلي».

ما ان انتهى سانشو من هذه الكلمات حتى أدار ظهره وهمز حماره. ظلّ دون كيشوت على حصانه، مستريحاً على ركابيه، متكّئاً على رمحه بتراخٍ، وقد امتلأ ذهنُه بالتخيّلات الحزينة والمختلطة. ولم يكن سانشو بانساً أقلّ ارتباكاً من سيّده، لأنه لم يكن يدري ما يفعل لإرضائه بشأن سفارته: لكنه لم يكد يتجاوز الغابة ويرى أنه قد غاب عن بصر دون كيشوت، حتى ترجّل، وجلس في ظلّ شجرة ليستجمع أفكاره ويُحادث نفسه.

«ينبغي أن نعلم، يا سانشو، أين تذهب سيادتُكَ الآن؟ هل أنت ذاهبٌ للبحث عن حمارٍ أَضعْتَه؟ لا، لا، أبداً، ليس الأمرُ كذلك؛ عمَّ تَبْحث إذن؟ عن أميرةٍ فقط، أميرةٍ أجمل من الشمس والقمر معاً. وأين تظنّ أنك ستجدها، يا سانشو؟ أين؟ في مدينة توبوزو الكبيرة. حسنٌ.


http://www.ithar.com

ومِنْ قِبَل مَنْ أنت ذاهب للبحث؟ مِنْ قبل الفارس الشهير دون كيشوت دي لامانش الذي يمحو الخطأ ويُزيل الشكوى، ويُطعم العِطاشَ ويَسْقي الجِياعَ. وهذا حسنٌ، يا صاحبي. وهل تعرف البيت؟ لا أعرف عنه شيئاً. لكن سيّدي يقول إنه قصر كبير أو قصر ملكي. وهل رأيتَ أحياناً هذه السيدة؟ لا رأيتُها أنا ولا رآها هو أيضاً. يا سانشو، لو علم أهالي توبوزو أنك هنا من أجل اختطاف سيّداتهم لما بقيَ لك ضلعٌ واحد سليمٌ، أتظن أنهم يؤذونك إلى هذا الحد؟ لو فعلوا لما كان كلُّ الخطأ عليهم؛ لكن لو علموا أنني مُرسَلٌ برسالة وأنني لا أفعل شيئاً من عند نفسي لما تصرّفوا معي، فيما أعتقد، بكل تلك الحرية. لا تصدّقْ ذلك، يا صاحبي المسكين؛ فرجال المانش لا يتحملون المزاح، ولا يَحْسنُ بكَ أن تَحْتكَّ بهم. وإذا ما أحسّوا بك مرةً فلن تَفْرغ منهم. أيها الشقي، بمَنْ تتلاعب، وما الذي جاءَ بك إلى هنا؟ عمّ سأبحث؟ لكي ينهالوا عليّ ضرباً من أجل لذة الآخرين. إن الشيطان هو الذي يُغويني ويودّ لو رأى أضلاعي مكسّرة». كذلك حدّث سانشو نفسه، وفكّر قليلاً، ثم استأنف حديثَه لنفسه: «لكن ألا يُقال إن هناك دواءً لكل شيء ما عدا الموت؟ وإذن فيجب ألا نيأَس فنهمل كلَّ شيء بسبب ذلك اليأس. وقد لاحظتُ في ألف مناسبةٍ أن سيّدي مجنون يجب احتجازه، بيد أني لست أقل جنوناً منه، بما أني أجدُ المتعةَ في اللحاق به؟ لأن المثَل يقول: قلْ لي من تُعاشر أقلْ لكَ مَنْ أنتَ. لكن بما أنه مجنونٌ، وجنونُه مدعاةٌ لأن يَخْلط بين الأشياء، ويرى الطواحينَ عمالقةً، والبغالَ جمالاً، وقطعان الخراف جيوشاً، فليس صعباً أن نوهِمه أن أول فلاحةٍ ألقاها هي السيدة دولسينيه؛ فإذا أقسم أنها ليست هي أقسمتُ بقوةٍ أكبر؛ وإذا أصرّ وعاند أصررْتُ وعاندتُ؛ وبذمّتي

http://www.ithar.com

سأكابرُ حتى النهاية دون أن أَرجع عن رأيي: فعلى الأقل، سيكفّ، لشدة مكابرتي، عن إرسالي في مثل هذه المهمّات، بعد أن يرى ما يجنيه من خيبة، ولربما اعتقد، وأُقسم على ذلك، أن أحد السحرة ممّن يزعم أنهم حاقدون عليه، قد غيّر «دولسينيه» إلى فلاّحة ليَغيظه. مع هذه الخاطرة، استراح فكرُ سانشو، وظن أنه سيتخلّص حتماً من المأزق. فمكثَ في مكانه حتى المساء، ووُفِّق فيما قَصَد إليه، ذلك أنه عندما أراد أن يركب حماره، رأى ثلاثَ فلاحات مُقبلاتٍ راكباتٍ حميرهن. فلم يكد يراهنّ حتى جرى بأقصى سرعته ليأتي بدون كيشوت الذي كان ما يزال في الوضع الذي تركه فيه، وهو يتنهد ويئن أنين العاشقين المولّهين. قال له دون كيشوت: ما الخبر، يا صديقي؟ هل هناك مِنْ جديد؟ هل ينبغي أن نُعْلِمَ[١] هذا اليوم بحجر أبيض أو بحجر أسود؟

ــ أجاب سانشو: يجب أن نُعْلِمَه بحجرٍ أحمر، مثل اللافتات التي نريد أن يقرأها جميعُ الناس.

ــ قال دون كيشوت: وإذن فأنت تَحْمل إليّ أنباءً سارّة؟

ــ أجاب سانشو: سارة جداً، وما عليك إلا أن تَهْمز روسينانت نحو السهل لتلقى السيدة دولسينيه التي جاءت لتراك ومعها اثنتان من آنساتها.

ــ ردّ دون كيشوت بسرعة: يا أبانا الأزلي! ماذا تقول يا سانشو؟ أحقاً ما تقول؟ لا تَخْدعْني، أرجوك، ولا يَخْطرْ لك أن تَبْعث فيّ أفراحاً كاذبةً لتزيل متاعبي.

ــ أجاب سانشو: ايه؟ وماذا أكسب لو خدعتُكَ، وأنتَ على وشك

---

(١) أَعْلم الشيءَ: جعلَ له علامةً. (المترجم).

http://www.ithar.com

اكتشاف الحقيقة بنفسك؟ تقدّمْ فقط، وسترى الأميرة آتيةً، مرتديةً ثيابها ومزدانة كما يليق بها. فهي ومرافقتاها لَسْن سوى ذهبٍ ولا زورد؛ لسْنَ سوى عقودٍ من اللؤلؤ والماس والزمرد، وقماش كله ذهب وفضة، ولا أعلم كيف يستطعن أن يَرْتدين ذلك كله؛ شعورهن هابطةٌ على أكتافهن في جدائل ضخمة، وكأنها أشعة الشمس يتلاعب بها الريح؛ وأخيراً سوف تراهن ثلاثتهنّ في مدى لحظةٍ وهن يمتطين مطايا نسائية تساوي وزنها ذهباً.

ـ قال دون كيشوت: هيا، يا عزيزي سانشو، وسأُعطيك في مقابل هذا النبأ السعيد وغير المتوقّع حلواناً هو جميع غنائم أول مغامرةٍ تَعْرض لنا، وإذا كان هذا لا يكفيك فإني أَعِدُك بأَمْهار أفراسي الثلاثة: وأنت تعلم أنها على وشك الولادة.

ـ أجاب سانشو: سأقتصر على الأمهار في كل الأحوال؛ ذلك أني أعتقد أن الغنائم الأولى ليست حسنة.

قالا ذلك، ودخلا السهلَ، ورأيا الفلاحات الثلاث قريباتٍ منهما. رمى دون كيشوت ببصره على طريق توبوزو وبما أنه لم يرَ سوى المخلوقات الثلاث أخذ يضطرب وسأل سانشو إن كان قد تركَ الأميرةَ خارج المدينة.

ـ أجاب سانشو: «كيف، خارج المدينة. أليست لك عينان لترى أنها هي المقبلة، وأنها أكثر تألّقاً من شمس الصيف.

ـ قال دون كيشوت: لستُ أرى، يا سانشو، سوى ثلاث فلاحات يركبْن حميراً.

http://www.ithar.com



ـ فبادر سانشو إلى القول: ليكنْ اللهُ في عوني! كيف يمكن أن تعتبر المطايا النسائية البيضاء كالثلج، حميراً؟ وكأنك لا ترى أبداً، أو كأنك ما تزال مسحوراً.

ـ قال دون كيشوت: الحقيقة، يا صديقي، سانشو، إنك لا ترى بوضوحٍ خيراً مني، هذه المرة. إنها حمير، وأنا واثقٌ من ذلك ثقتي بأنني دون كيشوت وبأنك سانشو بانسا. على الأقل، هذا ما يبدو لي، وأنا أُقسم على ذلك.

ـ قال سانشو: دَعْكَ، دَعْكَ، يا سيدي، أنت تَهْزأ، هلاَّ فتحتَ عينيكَ، وتقدّمتَ لتحية الأميرة التي دَنَتْ منا.

http://www.ithar.com

قال هذا، وتقدّم هو نفسه نحو الفلاحات، ونزل عن حماره، وأوقف أحد الحمير من مِقوده، ثم جثا على ركبتيه، وهتف قائلاً: «أيتها الأميرة، يا ملكة الجمال ودوقته، اشملي برعايتك الفارسَ الهزيل، عبد ذلك الجمال، البارد هنا كالمرمر، بلا قوةٍ ولا نَبْضٍ، لفَرْط ما طاش عقلُه أمام حضورك البهيّ! وأنا سانشو بانسا، مرافقه، في خدمتك. والفارس هو ذلك الخيّال البائس، الشريد، دون كيشوت دي لامانش والذي يُدعى باسمٍ آخر هو: فارس الوجه الحزين».

كان الفارس العاشق جاثياً قرب سانشو، وهو يُلقي خطبته؛ وحين رأى أن التي ينعتها بالأميرة لم تكن سوى فلاحةٍ خشنةٍ بوجهٍ منتفخٍ وأنف أفطس، ارتبك ارتباكاً شديداً حتى لم يجرؤ على فتح فمه. كما أن الفلاحات تعجّبْن حين رأيْن هذين الرجلين المختلفين عن سائر الرجال جاثييْن وقد منعاهنّ من المرور. لكن التي أوقفها سانشو بدأت الكلام، فقالت ووجهُها مقطّبٌ: «يا سيديّ، هل نحن مَديناتٌ لكما بشيءٍ حتى توقفانا؟ امضيا في طريقكما واتركانا نمرّ، لأننا مستعجلات».

ــ أجاب سانشو: أيتها الأميرة العظيمة! السيدة العامة «لتوبوزو»، كيف لا يلينُ قلبُك الشهمُ وأنتِ ترينا عند قدميْ حضرتك السامية، نحن عمودُ الفروسية الجوّالة وقنطرتها؟

ــ قالت إحدى الفلاحات: «أجل، أجل، انظرا كيف يهزأ السادةُ من بنات القرية؛ وكأنْ ليس لدينا أنفٌ في وسط وجوهنا، كغيرنا. قولا هذا لغيرنا، قولاه لغيرنا؛ جرّبا حظكما ودعانا نمضي في طريقنا».

http://www.ithar.com

ـ قال دون كيشوت بحزنٍ: انهضْ، يا سانشو، انهضْ؛ إني أرى أن قدري التعس لا ينفك يضطهدني، ولم يبق في العالم من سرور أؤمّله. وأنتِ يا شمسَ الجمال الإنساني الحيّة، يا رائعة السموات ومعجزة القرون، أنتِ الدواءُ الوحيد لهذا القلب المحزون الذي يعبدكِ، مع أن الساحر، عدوّ مجدي، يلاحقني ويحجب عني مجدَكِ الذي لا يُضاهى بشكل فلاحةٍ فظّة، لا تكفّي، أتضرّع إليكِ، عن النظر إلي بحبّ، إلا أن يكون ذلك الساحر قد أعطاني صورةَ شبحٍ ليجعلني بشعاً في عينيك. أترين أيتها الأميرة المعبودة حمّيتي، وأن قلبي، بالرغم من مكر أعدائي، لا يَدَعُ التكريمَ الواجبَ عليه إزاءَ جمالك الحقيقي».

ـ أجابت الفلاحةُ: نعم، في الواقع، لقد جئنا إلى هنا عن عمدٍ لنسمع الفلسفات. اتركانا نمرّ، يا سيدي، فليس لدينا وقتٌ نضيعه».

في الوقت نفسه، نهض سانشو، وأَخْلى لها المكان، وقد اغتبط في قلبه لأنه نجح في هذه المرحلة.

تبعهنّ دون كيشوت ببصره، وعندما غِبْنَ عنه قال:

ـ «ما رأيُكَ، يا سانشو، في مكر السَحَرة؟ أرأيت كيف يَحْقد عليّ هؤلاء الجبناءُ، وبأية حيلةٍ يحرمونني من اللذة التي أحسّ بها عندما أرى دولسينيه التي لا تُضاهى؟ هل هناك من هو أشدّ بؤساً مني، أولستُ مثالاً للبؤس نفسه؟»

ـ هتف سانشو: أيها الأنذال! أيها السحرةُ المحرومون، متى أحظى بلذةِ رؤيتكم منظومين في سفّود والدخان يتصاعد منكم وكأنكم السمك المشويّ؟ وذلك لا يَعْني، في الحقيقة، أن السيدة دولسينيه بدتْ بشعة

http://www.ithar.com

لي؛ على العكس، فأنا لم أَرَ امرأةً أجمل منها. كانت ترتدي ثياباً رائعةً، وكان سرجُ جوادها يساوي مملكةً لفَرْط غِناها.

ـ هتف دون كيشوت: ولمَ لمْ أَر شيئاً من ذلك كله؟ آه! لقد قلتُ وسأقول طوال حياتي: أنا أشدّ الناس بؤساً.

لم يكد المرافق الماكر يتمالك نفسه من الضحك، حين رأى سرعةَ تصديق سيده وشطَطَه؛ وفَرِح في قلبه لأنه خدعه بهذه البراعة. وأخيراً، وبعد أن سارا بعض الوقت، توقّفا تحت أشجارٍ ضخمةٍ، حيث تعشّيا من المؤن التي يحملها الحمار؛ ثم ربطا دابتيهما، وارتميا على فراش من العشب اليابس، وناما.

• • •

http://www.ithar.com

## الفصل الثامن عشر

# «المغامرة الغريبة التي جرت لدون كيشوت مع فارس المرايا»

لم يُخلِدْ مُغامرانا إلى الراحة زمناً طويلاً؛ إذ أيقظتْ دون كيشوت ضجةٌ خفيفةٌ سمعها خلفه، فنهض مُجفلاً، ونظر إلى الجهة التي جاءت منها الضجةُ، فلمَحَ رجلين خيّالينْ، انزلق أحدُهما من سرجه إلى الأرض، وقال للآخر:

«ترجَّلْ، يا صديقي، وارفعْ عن الجوادين رسنيهما؛ ويبدو لي أن العشبَ غضٌّ هاهنا؛ وصمتُ هذا المكان وعزلتُه صالحان لتعهّد خواطري الغرامية.

قال هذا وتمدّد على الأرض، واستنتج دون كيشوت من صوت سلاحه أنه فارس جوّال. وعلى الفور دنا بطلُنا من سانشو الذي كان نائماً، وبعد أن سحبه من ذراعه ليوقظه، قال له بصوتٍ خفيض:

ــ يا صديقي سانشو: ها هي ذي مغامرةٌ جديدة.

ــ أجاب سانشو وهو نائم: ليُعطِنا الله الخيرَ! وأين هي هذه المغامرةُ، يا سيدي؟

http://www.ithar.com

ـ أجاب دون كيشوت: أين هي؟ أَدِرْ عينيكَ وانظرْ، وسترى فارساً ممدداً. وهو، إن لم أخطىء، متكدّرٌ من موضوعٍ خطر؛ لأنه تهالكَ على الأرض، وكأنه سقَطَ بقوة فأثار سلاحه تلك الضجّة.

ـ أجاب سانشو: وكيف أحسستَ أنها مغامرة؟

ـ سارع دون كيشوت إلى الجواب: لا أعني أنها مغامرةٌ حتماً، لكنها بدايةُ مغامرة؛ لأن المغامرات تبدأ على هذا النحو. لكن لِنُصْغِ قليلاً، إذ يبدو لي أن الفارس ضبَطَ عوده أو قيثاره، ومن طريقة سُعاله يُخيَّل إليّ أنه يستعدّ للغناء.

ـ قال سانشو: الحقُّ معك، لا بد أنه فارسٌ عاشق.

ـ قال دون كيشوت: أتظنّ أن هناك فرساناً غير عاشقين، ما من فارس إلاّ وهَو عاشق، لكن، لنصمتْ ولنستمعْ إليه؛ فأغنيتُه ستدلّنا على سرّ قلبه؛ لأن الفمَ ينطق بما يَفيض عن القلب.

في الوقت نفسه غنّى الفارس الأغنيةَ التاليةَ:

«أيها الليل، كم كنتَ تبدو جميلاً، عندما كنت أُقسم، تحت ستائرك السميكة، بأنني سأكون إلى الأبد أكثر عشقاً ووفاءً! كم كنتُ أخشى النهار؛ عندما كانت تسمح لي التي أعبدها أن أحدّثها عن حبي حتى الفجر! كانت حينئذٍ أقل خَفَراً وقسوةً، وكانت تجرؤ أن تقول دون أن تخجل ما لا تكاد تجرؤ على الإحساس به منذ أن كانت ترى النور. إن صمتك الغامض كان يزيد سعادتي القصوى، وكان قلبي يقول لنفسه: كلُّ شيء ينام وأنا وحدي سعيد. والآن، أيتها الليلة، أيتها الليلةُ المظلمةُ أظن أنني الوحيد الذي يتألم في هدوء الطبيعة».

http://www.ithar.com

أنهى الفارس أغنيته بتنهد عميق، وبعد بعض الوقت تلفّظ بهذه الكلمات بصوتٍ شاكٍ مكتئب:

«أيتها الجميلةُ والغادرةُ بين النساء، صاحبة السمو «كاسيلدي دي فاندالي»! كيف تَقْبلين أن يَسْتَنْزف ذلك الفارسُ، عبدُ جمالكِ، حياتَه في التجوال هكذا عَبْر العالم، متعرّضاً لأعمالٍ لا نهاية لها. ألا يكفيكِ أن بسالتي وساعدي قد أجبرت جميعَ فرسان «نافار»، وجيمع فرسان «ليون» الأندلسية، وأخيراً جميع فرسان «لامانش»، على الاعتراف بأنك أجمل نساء العالم.

ـ قال دون كيشوت لسانشو: كلامُه مُحتاجٌ إلى تصحيح؛ لأنني أنا من المانش، ولم أَعترفْ ولن أعترف في حياتي بشيءٍ مخالفٍ جداً لجمال السيدة «دولسينيه» وضارّ جداً به. فأنت ترى، يا صديقي، أن هذا الفارس يحلم، لكن لِنُصْغِ، فلعله سيزيد على ما قال شيئاً.؛ ويبدو لي أن طريقته في الشكوى ستطول».

ومع ذلك فرغ الفارس من شكواه، خلافاً لما اعتقد دون كيشوت وسانشو؛ إذا أنه لما سمع كلاماً على مقربةٍ منه، نهض وصاح في الوقت نفسه: «مَنْ هناك؟ مَنْ أنت؟ هل أنتَ في عداد المسرورين أو في عداد المحزونين». ـ أجاب دون كيشوت: في عداد المحزونين». ـ فردّ الفارسُ بسرعة: «إن كان الأمرُ كذلك فيمكنك الاقتراب، وستجد هنا الحزن والأسى».

اقترب دون كيشوت حين دُعي بهذه الطريقة، فأمسكه الفارسُ بيده وقال له: «اجلسْ، أيها الفارس الجوّال، لأنني أرى جيداً أنك كذلك، ويُعْلمني المكانُ والساعةُ أنك ممّن يمارسون الفروسيةَ الجوّالة».

http://www.ithar.com

ـ أجاب دون كيشوت: أنا فارس، ومهنتي كما قلتَ، ومع أن الحزن وذكرى المصائب المتواصلة تشغلني أبداً، إلا أني ما أزال أملك قلباً حسّاساً لمصائب الآخرين، وأنا أشفق عليك من هذه المصائب، أيها السيد الفارس، ولا سيما أني لاحظتُ في شكواك أنها تنبعث من الحب الذي تكنّه للحسناء الغادرة التي سمّيتها.

قال الفارسُ المجهول:

ـ اعلمْ، يا سيدي، أن قدري واختياري جعلاني عاشقاً لكاسيلديه دي فانداليه التي لا تُضاهى. وأنا أقول إنها لا تُضاهَى لأنْ ليس في العالم امرأة تعادلها جمالاً وفَضْلاً؛ ولكن اسمحْ لي أن أقول: ليس في العالم امرأةً تفوقها عذراً. فمهما أفعلْ لـ «كاسيلديه»، ومهما أقدِّم لها من هدايا، فهي لا تُكافئني على نيّتي وخدماتي إلا بإعطائي مادةً جديدة للبروز في لقاءاتٍ شتى، وبأن تكلّفني أعمالاً أعظم من أعمال هرقل. وأخيراً، فمنذ بعض الوقت أخذتْ تأمرني بالطواف في جميع مقاطعات اسبانيا لأَحْمل جميعَ الفرسان الجوّالين الباحثين عن المغامرات على الاعتراف بأنها هي وحدها الجديرة بتاج الجمال وبأنني أكثر الفرسان بسالة وعشقاً في العالم. ومنذ هذا الأَمْر، طُفْتُ بشطرٍ عظيمٍ من اسبانيا، وغلبتُ جميع الفرسان الذين تجاسروا على معارضتي. لكن أجمل انتصار أَحرزتُه في قتالٍ فردي هو انتصاري على الفارس العظيم والشهير دون كيشوت دي لامانش؛ فقد حَمَلْتُه على الاعتراف بأن «كاسيلديه دي فانداليه» أجمل بما لا يدع مجالاً للمقارنة من «دولسينيه دي توبوزو». كان نصراً مجيداً لي، وبه أستطيع أن أَفخر بأنني غَلَبْتُ جميعَ فرسانَ العالم، لأن دون كيشوت الذي حدّثْتُكَ عنه قد غلبَهم جميعاً».

http://www.ithar.com

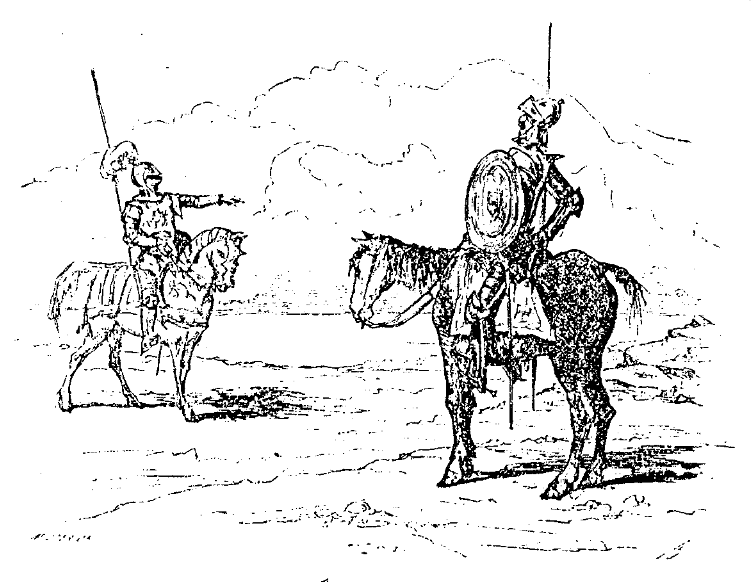
احتاج دون كيشوت إلى كلّ صبره ليتمالك نفسه من تكذيبه مئةَ [illegible].
فقال لـه دون أن يبـدي امتعـاضـاً: «أيهـا السيـد الفـارس، أصـدّقـك أنـك انتصرت على معظم الفرسان الجوّالين في اسبانيا، بل جميع فرسان العالم، إذا شئتَ؛ أما بالنسبة إلى دون كيشوت دي لامانش، فأنا أشك كثيراً في ذلك: لعلك خُدِعتَ، ونازلتَ فارساً آخر ظننتَه دون كيشوت، مع أن القليلين يشبهونه.

ـ أجاب الفارس: كيف، خُدِعتُ! لعلّي لا أَعرف دون كيشوت! دَعْكَ من هذا، لقد نازلتُه وغلبتُه، ورأيتُه يخضع لمشيئتي؛ ولكي أُريكَ أنني أعرّفه أقول لكَ إنه رجلٌ طويلٌ، جاف، هزيل الوجه، لكنه قويّ وعصبيّ، وقد دبّ الشيبُ في شعره، وهو ذو أنفٍ أقنى، وظهرٍ تقوّس قليلاً، وشاربين أسودين نازلين؛ وهو يقاتل باسم فارس الوجه الحزين ويعتلي جواداً شهيراً يُدعى روسينانت؛ ويُدعى حاملُ سلاحه سانشو بانسا، وهو عاشق لسيدةٍ هي «دولسينيه دي توبوزو» وكانت تُدعى قديماً «الـدونسـا لـورنـزو»، فغيّـر اسمهـا، كمـا غيـرتُ اسـم سيّـدتـي فجعلتُـه «كاسيلديه دي فاندالي»، لأنها اندلسية. وإذا كنتُ لم أقدّم لكَ ما يكفي من البراهين للتدليل على صحة ما قلتُ، فأنا أحمل سيفاً يمكن أن يردّ إلى الصواب كلَّ مَنْ لم يُصدِّق.

ـ أجـاب دون كيشـوت: مهـلاً أيهـا الفـارس، لا تَثُرْ، واسمـعْ مـا سأقوله لك. يجب أن تعلم أن دون كيشوت الذي تتحدّث عنه هو أحد أفضل أصدقائي، وهو كذلك إلى حدّ أن سمعته عزيزةٌ عليّ مَثَلُها مَثَلُ سمعتي الشخصية ذاتها. ومن العلامات الدالّة التي ذكرتَها لي لا يمكنني

http://www.ithar.com

الشكُّ بأنه هو نفسه الذي غلبتَه؛ لكني أعلم علمَ اليقين أن ذلك لا يمكن أن يكون، وأنه مستحيلٌ تماماً، ولا أجد نقطةً مضيئةً في قضيةٍ مظلمةٍ إلى هذا الحد، إلا أن يكون أحد السَحَرة ممّن يضطهدونه، ومَن هو عدوّه الخاص الذي قد اتخذ من نفسه شبهاً له، وجعلكَ تنتصر عمداً لكي يُفْقده سمعتَه التي كسبها بمآثره الشهيرة عن جدارةٍ في الأرض المسكونةِ بأسرها. ولكي أُؤَكّد لك هذه الحقيقة، أُعلمكَ أن هؤلاء السَحَرة الذين لا إيمان لهم قد سحروا «دولسينيه» الجميلة وحوّلوها إلى فلاّحة بشعةٍ مشوّهة. وإذا كنتَ ما تزال تشكّ فها هو ذا دون كيشوت بعينه ليريك أنك على خطأ، أكنتَ بسلاحك أم أعزل، راجلاً أم على حصانك، وبأية طريقةٍ شئت».



قال دون كيشوت ذلك وهبَّ واقفاً ويدُه على سيفه.

أجابه فارسُ الغابة ببرودة:

ــ أيها السيد الفارس، مَنْ استطاع أن يغلبكَ وأنت مُحوَّل بالسحر عن شخصك الأصلي يستطيع أن يَغْلبك بأية طريقةٍ أخرى. ولكن بما أن

http://www.ithar.com

قتال الليل هو قتال قطّاع الطرق والجبناء، فإن الفرسان الجوّالين لا ينبغي أن يدفنوا مآثرهم في الظلمة، لِنَنْتظرْ شروقَ الشمس وسنرى حينئذٍ مَنْ الذي سيُناصرُه الهُ الحرب، بشرطِ أن يخضع المغلوبُ لمشيئة الغالب، وأن يكون مستعداً لفعل كلّ ما يأمره به، على أن يكون ذلك بحسب قوانين الفروسية.

ــ أجاب دون كيشوت: قَبلتُ الشرطَ.

وذهبا كلٌّ إلى مرافقه وكانا يشخران وأمراهما بإعداد الحصانين إعداداً حسناً، لأنهما سيخوضان، عند شروق الشمس، قتالاً دموياً. دُهش سانشو من هذا النبأ، وخاف كثيراً على سيده، بعدما سمع من مآثر فارس الغابة.

في هذه الأثناء، جاء النهار، وألقى دون كيشوت ببصره على خصمه الذي وضع خوذته على رأسه وخفض مقدّمتها الواقية، بحيث أن دون كيشوت لم يتبيّن وجهه؛ لكنه لاحظ أنه رجلٌ قوي وإن كان ضئيل القامة. وكان يرتدي فوق سلاحه سترةَ فارس تبدو من البروكار المذهّب تتلألأ عليها أقمارٌ صغيرة أو مرايا فضيّة تُحدث بريقاً باهراً حسناً جداً، وكانت خوذتُه مغطّاة بالريش الأصفر والأخضر والأبيض، وكان رمحُه المستند إلى شجرةٍ ضخماً وطويلاً، وهو في أحد طرفيه مُلبَّسٌ بالفولاذ اللمّاع بطول قدم. عندما رأى دون كيشوت ذلك استنتج بأن الفارس قد أُوتِيَ قوةً عظيمة. لكنه فرح بذلك بدلاً من أن يدهش، وتقدّم نحو فارس المرايا، وهو طَلْقُ المحيّا، وقال له: أيها السيدُ الفارسُ، إذا كانت الحميّةُ التي تَحْملك على القتال لا تُعطِّل كياستكَ، فأنا أرجوك أن ترفَع الواقيةَ لكي

http://www.ithar.com

أَرى إن كان مظهرُك وهيئتك يتجاوبان مع القوة التي يَعِدُ بها استعدادُ قامتك.




ـ أجاب فارس المرايا: سيبقى لديكَ من الوقت ما يكفي لتأمّلي؛ أما الآن فلا أستطيع أن أمنحكَ ذلك لأنه يبدو لي أنني أُسيءُ إلى جمال «كاسيلديه» وإلى مجدي الشخصي، كلّما أجّلتُ القتال وحملْتُكَ على الاعتراف بالحقائق المهمة.

ـ أجاب دون كيشوت، تستطيع أن تقول لي على الأقلّ، قبل أن نعتَلي حصانينا إن كنتُ أنا دون كيشوت الذي تقول إنك غلبته.

http://www.ithar.com

ـ قال فارسُ المرايا: جوابـي عن هذا السؤال هو أنه لا يمكن أن يكون بين اثنين من شَبَه أكثر مما بينكما؛ لكن، بعد أن قلتَ لي ما قلته عن اضطهاد السحَرَة لك، فلستُ أجرؤ على القسم أنك أنت وذاك الفارس فارسٌ واحد.

ـ قال دون كيشوت: «هذا كافٍ: لِيُؤْتَ بالحصانين، وسأردّكَ إلى الصواب خلال وقتٍ أقلّ مما يلزمك لرفع مقدّمة الخوذة؛ وإذا أعانني الله وسيّدتي وساعدي، فسأرى وجهك وسأريك إنْ كنتُ دون كيشوت ذاك الذي يُغلب بتلك السهولة».

ركبا حصانيهما، دون أن يزيدا على ما قالاه كلمةً، وفي الوقت نفسه تراجعا قليلاً استعداداً للنزال. لكنهما لم يكادا يبتعدان عشرين خطوة حتى نادى فارسُ المرايا دون كيشوت فاقترب أحدهما من الآخر. قال فارس المـرايـا: تـذكّـرْ أن شـروط القتـال تَقْضـي بـأن يخضـع المغلـوبُ لمشيئـة الغالب.

ـ أجاب دون كيشوت: وتذكّرْ أيضاً أن الغالب لن يَفْرض شيئاً مخالفاً لقوانين الفروسية.

ـ أجاب فارسُ المرايا: وهذا صحيح.

في هذا الموضع افترقا، وتراجع قليلاً دون كيشوت ليكون المدى صالحاً للانقضاض، وانقض بهياج خارق على فارس المرايا الذي لم يكف عن هَمْز حصانه وقد كاد يغرز المهماز في جسده دون أن يتمكّن من تحريكه ممّا شوّش الفارسَ المسكين تشويشاً أعجزه عن تسديد رمحه وأَخْذ حذره. لكن دون كيشوت لم ينتبه لحالة عدوه فصدمه بكثيرٍ من

http://www.ithar.com

القوة وأسقطه عن حصانه ورماه أرضاً دون أن تبدو عليه علامةٌ من علامات الحياة.

ما أن رأى سانشو الفارسَ صريعاً حتى ركض بسرعة نحو سيّده الذي كان قد ارتمى فوق فارس المرايا وحلّ عقدة خوذته ليرى إن كان ميتاً أو ليُنعشه بالهواء، إن وجده بالمصادفة حيّاً. وكم كانت دهشة دون كيشوت عظيمة عندما رأى وجهَ فارس المرايا! وهتف: «تعال، يا سانشو، وانظرْ إلى ما ستتعجّب منه وما لا تستطيع تصديقه: انظرْ، يا صديقي، ما أشدّ سلطان السحر: انظرْ وتأمّلْ مكرَ السحرة وقوة السحر».

دنا سانشو وتعرّف على الحلاق نيكولا، ورسم علامةَ الصليب مئة مرة، ولم يتوقّفْ عن التعجب. وكذلك فإن الحلاق المنكود الحظ لم يُفق من ذهوله وسَدَره، ولم يعلم سانشو إن كان حيّاً أو ميتاً فقال لسيده: «يا سيدي، ضعْ سيفك، في كل الأحوال، مرتين أو ثلاثاً على عنق السيد نيكولا؛ مَنْ يَدْري، لعلك تقتل حين تقتله ساحراً من أعدائك! أجاب دون كيشوت: «أعتقد أن الحق معك، فكلما كثُر الموتى قلَّ الأعداء».

وهَمَّ بتنفيذ وصية سانشو، عندما ركض مرافق فارس المرايا وهو يصرخ بكل قوته: «توقّفْ يا سيدي، وانتبهْ لما تفعله. الذي تراه عند قدميك هو الحلاق نيكولا، صديقك الوفيّ، وكنتُ أنا مرافقَه». قال سانشو: قُلْ هذا لغيري، ألستَ «توماس سيمسيال» عرّابـي؟». أجاب المرافق نـعـم، نـعـم، يا صديقي سانشو، أنا توماس بالذات، وسأقول لكَ بعد قليل بأيـة مغامرةٍ جئتُ إلى هنا؛ لكنْ في هذه الأثناء إرْجُ سيدك ألّا يُؤْذي فارسَ المرايا، لأنه، بكل تأكيد، نيكولا المسكين، جارنا الطيب.

http://www.ithar.com

عند ذلك، عاد الفارس التَعِس إلى رشده، وعند أول بادرةٍ من بوادر الحياة، وضع دون كيشوت السيفَ على عنقه وقال له: «أنتَ مَيْتٌ، أيها الفارس، إن لم تعترف بأن «دولسينيه دي توبوزي» فازتْ بجائزة الجمال على سيدتك «كاسيلديه دي فاندالي»، وإن لم تَعِدْ أن تذهب، في حال شفائِكَ، إلى «توبوزو» وتَمْثُل، من قِبَلي أمام سيدتي وتخضع لكل ما ستأمركَ به؛ وبعد ذلك، ينبغي لك أن تأتي، إذا رَدَّت إليك حرّيتَكَ، وتبحث عني متتبّعاً آثار أعمالي الباهرة لتَشْرح لي ما سيجري بينها وبينك، وكلُّ ذلك من الشروط الطبيعية والجوهرية في نظام الفروسية الجوّالة.

ــ قال الفارس السيّء الحظ: «أعترف أن نظرةً واحدةً من السيدة دولسينيه أفضل من جميع آيات الحب الصادرة عن «كاسيلديه»، بل ومنها ذاتها، وأَعدُ بأن أذهب إلى توبوزو وأعود لأقدّم لكَ شرحاً دقيقاً عن كل شيء.

ــ أضاف دون كيشوت: ويجب أن تعترف أيضاً أن الفارس الذي انتصرتَ عليه فيما مضى لا يمكن أن يكون دون كيشوت دي لامانش، وإنما هو شبيةٌ به؛ كما أني أعترف، من جهتي، أنك لستَ الحلاقَ نيكولا، وإن كنتَ تُشبهه شبهاً تاماً، ولكنك إنسانٌ آخر أَضْفَى عليه السَحَرةُ أعدائي الشكلَ نفسه، لكي يعدِّلوا من عنفوان حركات غضبي، ولكي يُجبروني على استخدام مزية النصر برحمة.

ــ أجاب الفارسُ: أعترف كما تشاء؛ أرجوك، دَعْني أنهض، لأن سقوطي أزعجني». ساعَدَه دون كيشوت مع «توماس سيسيال» الذي كان سانشو يُحدّق فيه ولا يرفع بصره عنه، وهو لايني يُلقي عليه مئات الأسئلة المختلفة ليكتشف إن كان حقاً هو نفسه، ولم يستطع أن يثق بما يرى،

http://www.ithar.com

لفَرْط ما رأى هذا اللقاء مُذهلاً، ولفَرْط ما انطبعَ في ذهنه بقوةٍ رأيُ دون كيشوت في مقدرة السَحَرة.

وأخيراً ظلّ دون كيشوت وسانشو في هذا الوهم، وبعد أن استأذن فارسُ المرايا، انصرف مع مرافقه ليشفي أضلاعه، وليَرْوي لابنة أخيه العاقبةَ الوخيمةَ لحيلتها. وبعد لحظة، تابع دون كيشوت طريقه إلى سرقسطة.

● ● ●

http://www.ithar.com

# «مغامرة الراعي العاشق.. وأشياء أخرى كثيرة»

لم يكن دون كيشوت بعيداً جداً عن منزل «دون دييغو»، عندما التقى أربعة رجال إثنان منهم عليهما مظهر الطلاّب والآخران فلاّحان، وكانوا جميعاً يركبون حميراً. كان أحدُ الطالبين يَحْمل سفطاً فيه أسمالٌ، وكان الآخر يضع أمامه سيفيْ تدريبٍ وحذاءً خفيفاً؛ أما الفلاحان فكانا يحملان مؤناً اشترياها على ما يبدو من المدينة ليذهبا بها إلى قريتهما. وعندما رأى هؤلاء الناس دون كيشوت أُعجبوا به في البداية إعجاباً شديداً، شأنُ كلِّ من يراه لأول مرة، واستولى عليهم الفضول ليعرفوا مَنْ هذا الرجل غير العادي. حيّاهم الفارسُ، وبعد أن علم أنهم يسيرون في الطريق الذي يسلكُه، أظهر لهم أنه سيكون مرتاحاً جداً لرفقتهم، ورجاهم أن يسيروا سيراً أبطأ، لأن الحمير كانت تُسرع بالنسبة إلى الحصان، ولكي يجبرهم على انتظاره، قال لهم إنه يمارس مهنة الفروسية الجوّالة، وأنه سيذهب للبحث عن المغامرات في جميع أرجاء الأرض؛ وأن اسمه في بلاده هو دون كيشوت دي لامانش وأنه تسمّى منذ قليل باسم فارس الأُسود.

طريقة الكلام هذه كانت كاليونانية بالنسبة إلى الفلاحيْن؛ لكن الطالبين عَرَفا من كلامه أن دماغه مَكْلومٌ، مُصاب؛ ومع ذلك ظلاّ ينظران

http://www.ithar.com

إليه بالاحترام والإعجاب، وربما كان ذلك بسبب سنّه وبسبب هيئته الأبيّة والمتواضعة. قال له أحدُ الطالبيْن: «أيها السيد الفارس، بما أنك لا تَقْصد هدفاً معيّناً من طريقكَ، ككلّ الفرسان الذين يبحثون عن المغامرات، فلعلك تأتي معنا لتشهد عرساً هو من أروع ما شهدتْه «لامانش» منذ زمنٍ بعيد.

ــ أجاب دون كيشوت: لا بدّ أنه عرسُ أحد الأمراء، وذلك واضحٌ من كلامكم هذا.

ــ أجاب الطالب: كلا، وإنما هو عرسُ فلاحٍ، وهذا الفلاح أغنى أبناءِ المنطقة، وفلاّحةٍ من أجمل ما رأينا من الفتيات؛ وسيَجري العرسُ في مرجٍ قريب من قرية العروس التي تُدعى «كيتيري الجميلة»، أما الشابُ فيُدعى «غاماش» الغنيّ، وهو فتىً يبلغ الثانية والعشرين، أما هي فلم تكد تبلغ الثامنة عشرة، على الأكثر؛ وبكلمةٍ واحدة: إن كلاًّ منهما يوافق الآخر، مع أن هناك مَنْ يقول إن أسرة «كيتيري» أَعْرقُ من أسرة «غاماش». لكن لا يجب أن نُعيرَ ذلك انتباهاً لأن الثروة تُعوِّض من كلِّ شيء. و«غاماش» هذا فتىً سخيُّ اليد لا يريد أن يوفّر شيئاً ليجعل الاحتفال شهيراً، فعزَم على أن يغطّي المرج بالأغصان المتشابكة بحيث لا تَنْفذ إليه الشمسُ؛ وستتمّ فيه جميعُ أنواع اللعب، اللعب بالكرة، المصارعة، الرقص بالصنّاجات، والدفّ بالجلاجل: لأن قريته لا يُعوزها مَنْ يحسن استخدام ذلك كله، دون ذكر الرقصات الأخرى التي يجيدونها. بيد أن ذلك كله لن يكون، إذا لم أُخطىء، أبرزَ ما في العرس، وأتصوّر أن «بازيل» سيرينا فيه أشياء مذهلة.

ــ سأل دون كيشوت: ومَنْ «بازيل» هذا؟

ــ أجاب الطالب: «بازيل» راعٍ في قرية «كيتيري»، ومنزله قريبٌ من

http://www.ithar.com

منزلها، وقد تحابّا منذ طفولتهما، وعندما كبرا عَمَد والد كيتيري الذي لم يجد «بازيل» غنيّاً بالنسبة إلى ابنته، شيئاً فشيئاً إلى منعه من دخول البيت ليَقْطع أملَه، وقرر أن يزوّجها من «غاماش»، الذي يملك ثروة أكبر بكثير ممّا يملك «بازيل»، وإن كان في الحقيقة لا يُعادله فيما سوى ذلك؛ لأن بازيل الفتى يفوق الآخرين في جسمه المُحكم، ومهارته، وليس بينهم من يُضاهيه في الجري والمصارعة، ولا من يتمكّن أن يجاريه في رمي الساعدة بقوة كقوته، ولا من يلعب لعبة بالكرة. وهو يجيد العزف على القيثارة، ويُغنّي ويرقص مع ذلك؛ وهو يستخدم السيف كأفضل مدرِّبٍ للمسايفة.



http://www.ithar.com

ـ قال دون كيشوت: «لو لم تكن له سوى هذه الصفة لما استحقَّ فقط أن يكون زوجاً لهذه الحسناء، بل أن يكون أيضاً زوجاً للملكة «جينيفر» لو كانت حيّةً اليوم، بالرغم من «لانسيلو» ومن جميع الذين يعارضون هذا الزواج».

استمرّ الطالب في حديثه فقال: «منذ أن علم بازيل بأن «كيتيري» ستتزوج بـ «غاماش»، أصابته كآبةٌ شديدة، بحيث سلبتْه المحاكمة. ولم يُرَ مُنذئذٍ ضاحكاً، أو قائلاً شيئاً معقولاً؛ وكاد يكفّ عن الطعام والشراب، فلم يتناول سوى الفاكهة والماء الخالص؛ وإذا ما اتّفق له أن نام، وكان ذلك شيئاً نادراً، فقد كان ينام في الهواء الطلق وفي عَرْض الحقول، مضطجعاً على الأرض كالحيوان الوحشي. والذين لاحظوه قالوا إنه كان يَرْفع عينيه إلى السماء ثم لا يلبث أن يُحدّق في الأرض، وكأنه في نَشْوةٍ، وعلى نحوٍ يبدو معه كالتمثال. وأخيراً بلغَ الفتى حالةً لا نشكّ معها، نحن الذين نعرفه، أنه ما إن تُعطي «كيتيري» يدَها «غاماش»، حتى يلفظ أنفاسه على الفور.

ـ قال سانشو: الله رحيمٌ، فهو عندما يُعطي الداء فإنما يعطي الدواء أيضاً. مَنْ يَعْلم ماذا سيجري؟ الواقع أنْ لا أحد. فبين اليوم والغد ساعاتٌ كثيرة، ولحظةٌ واحدة تكفي لهَدْم بيت استغرق بناؤه زمناً طويلاً. وكم من مرة رأينا المطر يهطل والشمس تُشرق معاً؟ وقد ينام المرءُ سليماً فإذا هو ميتٌ بلا حراك في اليوم التالي؛ ومَنْ الذي يستطيع أن يدّعي بأنه سمّر بالمسامير عجلةَ الحظ؟ مَنْ هو؟ لن تلقى مثلَ هذا الإنسان. والمسافةُ بين «نعم» و «لا» من المرأة، أَدقُّ من رأس الإبرة..

http://www.ithar.com

انقطع المرافق عن كلامه هنا لأنهم دخلوا القرية. كان الوقتُ متأخراً قبل وصولهما. لكنهم رأوا القرية مضيئة جداً حتى إنهم لم يحسّوا بظلمة الليل؛ وسمعوا أيضاً نغماً مختلطاً لكنه نغمٌ عذبٌ ينبعث من عدَّة آلات، كالناي والمزمار والدفّ بالجلاجل والأجراس الصغيرة؛ وعندما دخلوا القرية، رأوا عدداً لا يُحصى من المصابيح المعلّقة بالأشجار، وكان ضوؤُها لطيفاً ولا سيما أن الجوّ كان ساكناً. وكان عازفو الآلات منتشرين جماعاتٍ، بعضها يرقص، وبعضها يعزف على مزمار القرية وعلى الصافرة، ويُبْهجون المجتمعين. وبدا المرج، في الواقع، وكأنه مقرُّ الفرح والمسرات. وفي مختلف الأماكن كان الناسُ مشغولين في نصب الصقالات لجلوس ما لا يُحصى من البشر في يوم الاحتفال الذي سيقع في اليوم التالي، اليوم المخصّص للاحتفال الرسمي بزواج الثريّ غاماش، ولعلّه الاحتفال كما يبدو بجنازة «بازيل».

لم يشأ دون كيشوت أن يدخل القرية، بالرغم من رجاء الطالب والفلاحيْن، وبالرغم من إلحاح سانشو: معلّلاً ذلك بأنه يسير على عادةٍ قديمةٍ للفرسان الجوالين الذين كانوا يفضّلون أن يناموا في العراء وفي الغابات على النوم تحت زخارف القصور: وانحرَف قليلاً عن القرية، بالرغم من المرافق المسكين الذي تَحسّر من كل قلبه على منزل غاماش الكريم وحسن ضيافته.

لم يكد الفجرُ تلوح معالمُه على الأفق، حتى نهض دون كيشوت الفذّ الذي لا يُضاهى، العدو اللدود للكسل، شمسُ «لامانش»، ودعا مرافقه. لكنه لما رآه يشخر والنعاسُ يلفّه كالكفن، قال له هذه الكلمات: «يا أَسعدَ منْ يعيش على وجه الأرض، فأنتَ لا تحسد أحداً أيّاً كان ولا

http://www.ithar.com

يحسدك أحدٌ، وأنت تتذوّق بين ذراعي النوم راحةً هادئةً، ولا تجد اضطهاداً ولا عذاباً ولا قلقاً من السحرة الفاقدي الإيمان! وأنت تنام دون أن يكدّرك أيُّ هوىً؛ ولستَ تخشى غَيْرةَ أية امرأة، ولا تقطع نومَك الديونُ وشؤونُ الغد؛ ولا يَعْترض الطموحُ راحتَك ولا راحةَ أسرتك الصغيرة؛ ولستَ تَشْغل بالك بالأبّهة ولا بأباطيل هذا العالم، ولا تحملكَ رغباتُكَ، المحصورة ضمن حدودٍ معتدلة، إلى ما وراء الأشياء الضرورية للمحافظة على الحياة؛ لا شيء يَشْغلك أكثر من العناية بحمارك؛ لأنني تعهّدت بالعناية بشخصك؛ والطبيعةُ والعادة تقضيان بذلك على كل من له خدمٌ. الخادمُ ينام مطمئناً في حين أن سيده يَسْهر ويتعب وهو يفكر كيف يُطعمه ويكافئه. وإذا ما منعتْ السماءُ غيثَها الذي يُخصب الأرض، وإذا ما أقفرت الحقول، فذلك مصدر حزنٍ لا يَشْعر به الخدم. وإنما الحزنُ من نصيب السادة الذين هم مجبورون بصيانة حياةِ خدمهم في أثناء المجاعة كما في أيام الوفرة.

لم يردّ سانشو الذي كان ينام ويشخر على ذلك كله بكلمة واحدة، وما كان ليستيقظ لو لم ينبّهه دون كيشوت مرةً أو مرتين بطرف رمحه. وأخيراً فتحَ سانشو عينيه ونقَّلهما حوله ببطء، وقال: «يبدو لي أنني أشمّ من جهة تلك الأغصان رائحةً ذَكيّةً لا تقلّ عن رائحة الزعتر. آه! ما أذكى هذه الرائحة! وبذمّتي، إنها رائحة الشِواء، وأنا أراهن مُسبقاً أن الجوّ سيكون ممتعاً في هذا العرس.

ــ قال دون كيشوت: أَسرعْ أيها الشرِه، أَسرعْ؛ هيّا نتفرَّجْ على هذا العرس ونَرَ ماذا يفعل المسكينُ بازيل.

http://www.ithar.com

ـ أجاب سانشو: لِيفعلْ ما يشاء؛ فلماذا شغل بالَه بالزواج بـ كَيتيري ما دام فقيراً. الواقع أنه يستحقّ ذلك! أيريد أن يُمسكَ القمر بأسنانه؟ من رأيـي، يا سيدي، أن الفقير يجب أن يلزَم كوخه، دون أن يـدسّ نفسه بيـن الأغنيـاء. أُراهـنُ علـى رأسـي، وهـو رهـانٌ مجنـون، أن غاماش يستطيع أن يغطّيه كله بالفلوس، وإذا كان الأمرُ كذلك، فهل بوسعكَ أن تنصح كيتيري بالعزوف عن الخواتم والفساتين التي يستطيع أن يمنحها غاماش؟».

نهضَ وهو يقول هذه الكلمات وقصد هو وسيده إلى مكان الوليمة.

أول مـا عَـرَض لعينـيْ سـانشـو وهمـا داخـلان عِجْـلٌ سفّـودُه دردارة كاملة، وفي النار التي سيُشوى بها، لا أقل من محطبةٍ من الخشب الغليظ، وعليها تغلي ست قدور ضخمة تتّسع لخرافٍ بأكملها. وثمة عددٌ كبير من الطيور والإوز والدجاج، جاهزةٌ للغرق في القدور، وعُلِّقتْ بالأشجار جميعُ أنواع الطيور: طيور الطرائد أو الطيور الدواجن، وذلك لتَطْرية لحمها بهواء المساء. وأَحصى سانشو أكثر من ستّين وعاءً كبيراً من الخمر يسع كلٌّ واحد عشر زجاجات على الأقل. وكان هناك أرغفةٌ كبيرةٌ من الخبز الأبيض مصفوفة بعضها فوق بعض، كما تُرى أكوامُ الحجارة حول المقالع؛ ومن جهةٍ أخرى، كان الجبنُ منضوداً في أكداس تشبه الحِصْن، مما حدا سانشو إلى القول إنه لم ير مَوْقعاً أحسن تجهيزاً وأَجدر بالهجوم عليه من هذا الحصن. وقريبٌ من ذلك خلقينتان مملوءتان بالزيت والدهن الذائب لصنع الفطائر والأشياء المشابهة، بينما كان السكرُ يُؤخَذ من صندوقٍ مملوء. وكان هناك أكثر من خمسين طاهياً أو طاهية، قد ارتسم الفرحُ على وجوههم، وهم يعملون بهمّةٍ وبنظافة. كان جسمُ العجل

http://www.ithar.com

العـريـض والمجـوّف يحتـوي علـى نحـو اثنـي عشـر خنـزيـراً مـن خنـازيـر الحليب، وُضعتْ فيه ليطيبَ مَذاقُها ولتكون له كالحَشْوةَ. أما التوابل فكانت من جميع الأصناف، ولم تكن في أَقْماعٍ وَرَقيّةٍ، بل كان هناك صندوقٌ مليء. وأخيراً فإن استعدادات العرس، وإن كانت ريفيّةً إلا أنها وافرة وتكفي أربع قرى.



كان سانشو ينظر إلى ذلك كله بإعجاب؛ ويتأمّله بمودّةٍ، مسحوراً بجدّة هذا المشهد، مبتسماً بين الحين والحين، مُمرِّراً لسانه دائماً على شفتيه. أَغْرتْه القدورُ أولاً، فودّ لو قشَطَ عنها رَغوتَها. ثم حنّتْ نفسُه إلى أواني الخمر، وخلبَتْ لبَّه الحلوى ورائحةُ الفطائر. ولم يستطع في النهاية أن يُقاوم الإغراء، فدنا من أحد الطُهارة وخاطبه بلغةٍ رقيقة تنمّ على شهوته، ورجاه أن يَبلَّ خُبزته في أحد القدور. فأجابه الطاهي: «يا أخي

http://www.ithar.com

المسكين، هذا اليوم ليس يومَ صيامٍ، بفضل كرم غاماش الثريّ؛ اقتربْ بجرأةٍ وابحثْ عن ملعقة لتتناول زبدة دجاجة أو دجاجتين، وهنيئاً! فلن يلومُك هنا أحدٌ على ذلك.

ــ قال سانشو وهو يكاد يتنهّد: لستُ أرى الملعقة!

ــ أجاب الطاهي: يا لها من مصيبة كبيرة. أوه! يا لك من رجلٍ مسكين! «ألا تستطيع أن تَخْدم نفسك» وأخذ مقلاةً كبيرةً وجديدة، ودسَّها في القدر، واغترف منها دجاجةً وطيراً، وناوله ذلك قائلاً: «خذْ يا بني، تناول فطورك من هذه الزبدة حتى يحين موعدُ الغداء».

ــ قال سانشو: شكراً جزيلاً؛ لكنني لا أعلم حقاً أين أضع ذلك.

ــ أجاب الطاهي: أراك مرتبكاً؛ أحمل اللحم مع المقلاة، ولا تهتمّ.

رأى دون كيشوت الذي كان مشغولاً بشيءٍ آخر، اثني عشر فتىً بثياب الاحتفال يدخلون على اثني عشر فرساً على صدورها جلاجل. وما ان بلغوا المرج، حتى جالوا عدَّة جولات متعاملين مع خيولهم بكثيرٍ من البراعة، صارخين معاً: عاشت كيتيري وعاش غاماش! غاماش الغني بقدر ما هي جميلة، أجمل نساء العالم.

ــ قال دون كيشوت في نفسه: يا لهم من جَهَلة! يبدو أنكم لم تروا دولسينيه؛ وإذن لما أسرفتُم في مَدْحِ «كيتيري».

بعد وقتٍ قليلٍ دخلت جماعةٌ من الراقصين، من مواضع شتّى في المرج، وقد ارتدوا ملابس شتّى وزاهية، وفتنتْ رقصاتُهم البديعةُ أعينَ المدعوين؛ وأخيراً وصل العروسان يصحبهما الكاهنُ والأهلُ والبارزون

http://www.ithar.com

من القرية ومن الأماكن المحيطة وكلهم بلباس الاحتفال مع طائفة من عازفي الآلات.

لم يكد سانشو يُبصر العروس حتى قال: «الواقع أنها لا ترتدي ثياب الفلاحات، فكأنها أميرة. كلها مرجان، وفستانها من المخمل ذي الزغبر الطويل، مع حواشي جميلة من الساتان. وانظرّ إلى يديها: ليس ما أراه من الساج أو الميناء! بل إنها خواتم من الذهب، ومن الذهب الخالص، مع لآلىء بيضاء كالحليب؛ وكل واحدةٍ منها تساوي بالتأكيد بؤبؤ العين. وأيَّ شَعْرٍ، أيّ شَعْرٍ، انظرْ إليه! إذا لم يكن هذا الشعرُ مستعاراً، فالحقيقة أني لم أَرَ طوال حياتي شَعْراً بهذا الطول وتلك الشُقرة! وما أجمل قامتها وهيئها! أفلا تبدو كغصن من النَخْل مملوءة بالحلي، من رأسها إلى قدمها؟ أقسم بروحي اني لم أر مخلوقاً أحسن هنداماً.



لم يتمالك دون كيشوت نفسه من الإبتسام من المديح الذي قاله سانشو للعروس بلهجته المحليّة، واعترف هو أيضاً بأنه لم يَرَ بعد «دولسينيه دي توبوزو» من هو في جمالها. بدتْ «كيتيري» الجميلة شاحبةً قليلاً؛ ولعلَّ ذلك يعود إلى أنها قضت الليلَ ساهرةً تتزيّن كما تفعل الأُخريات اللواتي يعتقدن أنْ ليس لديهن ما يكفي من الوقت في نهار

http://www.ithar.com

العرس للتزيّن. كانت هذه الجماعة كلها تتقدّم نحو نوعٍ من المسرح المغطّى بالأغصان والذي أقيم في جانبٍ من المرج، حيث سيجري الاحتفالُ بالعرس، ومنه يمكن النظر براحةٍ أكبر إلى الألعاب والرقصات.

في الوقت الذي وصلوا فيه إلى أدنى المسرح سُمِعَتْ خلفهم صرخاتٌ شديدةٌ وصوتٌ مدوٍّ يقول لهم: «انتظروا، انتظروا؛ أنتم مستعجلون!» ولمّا التفتوا رأوا أن الذي كان يصرخ رجلٌ يرتدي سترةً طويلة سوداء ذات كنارٍ مقصَّب بشرائط قرمزية، وقد انتثرت عليها شُعَلٌ. وكان على رأسه تاجٌ أو إكليلٌ من السَرْو، وفي يده عصاً غليظة محدّدة في أحد طرفيها، وعندما اقترب، عرف الناسُ جميعاً أنه «بازيل»، وخافوا من حادث مُفجعٍ، حين رأوه حيث لم يكونوا يظنون أنهم سَيْلقونه. وأخيراً وصل وهو متقطّع الأنفاس، ورمى عصاه على الأرض، وهو شاحبٌ يَرْتجف، وعيناه معلّقتان بـ «كيتيري»، وقال بصوتٍ مبحوح: «هل نسيتِ، يا «كيتيري الغادرة» أنَّكِ عاهدتِني، وأنَّكِ لا ينبغي أنْ تتّخذي زوجاً آخر ما دمتُ في هذا العالم؟ هل خنتُكِ قط، وهل يمكنك أن تلوميني على أنني قد أسأتُ، في أثناء انتظاري لأصبح في حالةٍ تسمح لي بالزواج، إلى الودّ نحوكِ، وهل عرضتُ عليك عروضاً يمكن أن تُهينكِ؟ مَنْ أجبركِ على أن تخلّي بوعدك، ولماذا تريدين أن تُعطي الآخرَ ما هو لي، دون أن تكون له مزيةٌ عليّ سوى المزية التي يمكن أن تُضفيها المصادفةُ على مَنْ شاءت؟ لكن، ليتمتَّعْ بما هو لي إن شئتِ ذلك؛ وسأخلِّصه من كلِّ ما يقف عثرةً في وجهه، وأُسعدُه على حساب حياتي. يحيا، يحيا الثريُّ «غاماش» والغادرةُ «كيتيري» وَلْيَمُتْ «بازيل» الحزين الذي جعله الفقرُ غيرَ أَهْلٍ لها!» عندما أنهى هذه الكلمات، استلَّ سيفاً قصيراً كان مخفيّاً في عصاه، وبعد

http://www.ithar.com

أن وضع مقبضه في الأرض أَلقى بنفسه على رأسه فنَفَذ من ظهره والدم يَقْطرُ منه، وظلَّ ممدّداً غارقاً في دمه. هُرِع أصدقاءُ «بازيل» إلى هذا المشهد المُفجع وهم ينتحبون نحيباً مثيراً للشفقة عليه، ويَرْثون لمصيبتِه؛ ارتمى دون كيشوت على الأرض أيضاً، وركض نحو بازيل، فوجده ما يزال حيّاً، فأخذه بين ذراعيه وأَخذَ يكلّمه.

رأى أصدقاؤه أنه لم يمتْ فأرادوا أن يسحبوا السيف الذي ما زال في جسده؛ لكن الكاهن لم يوافق على ذلك قبل أن يعترف قائلاً إن من غير الممكن أن يُنتزَع السيفُ دون أن تُنْتزَع منه الحياة. وكأن بازيل قد استعاد حواسه فقال بصوتٍ ذابلٍ وبتنهّدٍ: «أَيْ «كيتيري» القاسية! إذا أردتِ أن تعطيني يدكِ كزوجةٍ فإن عزائي بأن أغدو لكِ يُنقص العذابَ الذي أحسّه، وأَلَمَ الفعل الذي أقدمتُ عليه».

قال له الكاهن: «يا ولدي، لم يعد الأوانُ أوانَ التفكير في أشياء هذا العالم؛ فَكِّرْ فقط في أن تتصالح مع الله، وأن تطلب بجدٍ غفرانه عن هذا القرار اليائس».

ردّ بازيل بسرعة: «أَعترفُ بأنني يائس».

وأضاف بضع كلمات أَوهمتْ أنه لن يَعْترف ما لم يَنَلْ من «كيتيري» الطِلْبَةَ التي طلَبها، قائلاً! إن ذلك يمكن أن يمنحه الوقت ليتعرّف نفسه، ولعله سيستعيد قواه التي يحسّ أنها أخذت تتناقص. عندما سمع دون كيشوت ذلك قال بصوت مرتفع إن طلب بازيل عادلٌ ومعقول، ومن السهل تحقيقه ولا سيّما أن غاماش لن تكون كرامته وهو يتزوّج «كيتيري»، وهي أرملةُ مثلِ هذا الرجلِ الشريف، أقلّ من كرامته وهو يتلقّى يديها من

http://www.ithar.com

أبيها». وأضاف: «وليس هناك سوى»، لفظة «نعم»، وهي لا تكلّف كثيراً من المشقة، لأن فراش العرس والقبر سيّان بالنسبة إلى بازيل».

كان غاماش يرى ويسمع ذلك كله، فارتبك ارتباكاً شديداً حتى لم يكن يعلم ما يقول وما يفعل. لكن أصدقاء بازيل رَجَوْه عدةَ مرات أن يقبل بأن تُعطي «كيتيري» يدها للصديق المحتضر، ولو لم يكن ذلك إلا لخلاص روحه، التي تتعرض للهلاك من جرّاء يأسه، فأثّروا فيه وأجبروه أخيراً على أن يقول: إذا قبلتْ كيتيري فسيكون مسروراً، لأن ذلك لا يَعْني سوى تأجيل رغباته الشخصية بضع لحظات. وفي الوقت نفسه، دَنَوْا من «كيتيري»، وبعضُهم يَذْرف الدمع، وبعضُهم الآخر يحاول بالكلام اللطيف وبالتوسّلات الكثيرة أن يثير عواطفها، ويُفهمها بأنها لا ترتكب خطأً إن فعلتْ ذلك، وأنّ مَنْحه هذه الطلبة الأخيرة ليس شيئاً ذا بال إذ أنه لن يتمتع بها سوى لحظة؛ لكن كيتيري بدتْ ذاهلةً، سادرةً، ودلّتْ بصمتها على أنها لا تريد أن تُجيب أو على أنها لا تدري ماذا تقرّر؛ وكانت ستمتنع عن الكلام، لولا أن الكاهن حثّها على أن تَحْزم أمرها، وقال لها إن موتَ بازيل على شفتيه ولا مجال لإضاعة الوقت. حينئذٍ اقتربت «كيتيري» ببطءٍ من بازيل، وهي مدلّهةٌ ومرتعدةٌ، وكانت عيناه مضطربتين وهو لا يكاد يتنفّس، ويُتمتمُ بين شفتيه باسم «كيتيري»، والجميعُ من حوله يخشون أن يموت في يأسه. وأخيراً، اقتربت كيتيري كثيراً منه، وانحنتْ وطلبتْ يده، بالإشارة فقط، وكأنها لا تَقْوى على الكلام.

فَتَح بازيل عينيه وحوّلهما بفتور نحو «كيتيري»، وقال لها: «أَيْ كيتيري! متى خَطَر لكِ أن تشفقي عليّ؟ عندما أصبحتْ شفقتُكِ بلا جدوى، وظننتِ بلا شكٍّ أن هذه هي الطعنة الأخيرة التي ستُنهي حياتي؛

http://www.ithar.com

إذ ليس لي سوى لحظةٍ أتمتّع فيها بأن أكون زوجَكِ، ولا شيء يوقف الألم الذي يقودني إلى القبر. أَتوسَّل إليكِ، على الأقل، ألاّ تفعلي ذلك لكي تتخلّصي فقط ممّنْ يرجونك أن تفعليه لأنهم يجدون ذلك عدلاً، وفي الوقت نفسه لا تفكّري في خداعي مرةً أخرى وأنت تمدّين يدك وتطلبين يدي: تكلّمي وكأنكِ غيرُ مكرهة، وقولي لي بصدقٍ أنك تقبلينني زوجاً لكِ وبالطريقة التي تعاهدْنا عليها. فغَيْرُ جديرٍ بك، في الحالة المُحزنة التي ألجأْتِني إليها، أن تتصنّعي مرةً أخرى معي، بعد أن وَجَدْتِني دائماً وفيّاً وصادقاً».

تكلّم بازيل بكثير من المشقّة، وبلهجةٍ ذابلة جداً حتى لم يبق أحدٌ إلا اعتقدَ أنه سيَلْفظ أنفاسه عند كل كلمة. بذلتْ كيتيري، بصورةٍ واضحة، جهدَها لتُطَمْئِن بازيل، وتغيّر وجهُها، وإن ظهر عليه مع ذلك شيءٌ من الخجل، وأمسكتْ بيدها اليمنى يدَ هذا العاشق البائس: «لا شيء قادرٌ على التحكّم بإرادتي، يا بازيل، وأنا أعطيكَ يدي وأتقبّل بتفكيرٍ حرّ، إن كنتَ تُعطيني يدك حقاً بكامل حريتك وإن بقي لديك شيء من التفكير الحر لتعلم ماذا تفعل.

ــ أجاب بازيل: «نعم أنا أعطيكِ يدي، وفِكْري ما يزال سليماً وتاماً كما وَهَبتْني إياه السماء؛ وأنا أتلقّاكِ امرأةً لي من كل قلبي.

ــ وأضافت كيتيري: وأنا قبلتُكَ زوجاً لي؛ عشْ منذ الآن بسلام.

ــ قال سانشو: يبدو لي أن هذا الشاب يتكلم أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى جرحه؛ ويجب أن ندعه يرتاح وأن يفكّر في خلاص روحه؛ فليس لدى الإنسان الذي يحوم الموت على شفتيه، من وقتٍ يضيعه.

http://www.ithar.com

في هذه الأثناء، عمَدَ الكاهن الذي أراد أن يُفرح بازيل المسكين وهو ما يزال يمسك بيد «كيتيري» إلى مباركتهما وقد رقّ قلبُه واغرورقتْ عيناه بالدموع، وصلى لله كي يُريح نفسَ العريس. لكن الشيءَ العجيب هو أن بازيل لم يكدْ يتلقّى المباركة الزوجية، حتى نهض بسرعة على قدميه، وسحب السيف الذي كان في جسده. تعجّب الحاضرون من هذا الشيء المدهش، وأخذ بعضُ البسطاء يصيحون: «معجزة، معجزة!». بيد أن بازيل هتفَ: «لا، ليست معجزة، وإنما هي مهارةٌ، وحيلة. وضع الكاهنُ الذي كان أكثر تعجّباً من الآخرين يدَه على الجرح وجسَّه، فرأى أن السيف لم يخترق جسده، وإنما دخل في أنبوبٍ من الصفيح رتّبه بصنعةٍ حاذقة، كما قال فيما بعد، بحيث لا يتخثّر فيه الدمُ. وبكلمة واحدة، اعترف الكاهن وغاماش وأصدقاؤه أنهم خُدِعوا. أما العروس فلم تُبْدِ أيَّ انزعاج؛ على العكس، فهي عندما سمعتْ بعضَهم يقول إن الزواج كان احتياليّاً وليس صحيحاً، قالت إنها مستعدةٌ لتثبيته من جديد: ممّا أوهمَ الناسَ جميعاً أن الاحتيال قد تمّ بالتواطؤ بينها وبين بازيل. وغضب غاماش وأصدقاؤه غضباً شديداً حتى إنهم أرادوا أن يثأروا في الساعة نفسها، فشهروا سيوفهم وهاجموا بازيل الذي جُرِّدت للدفاع عنه كثيرٌ من السيوف أيضاً.

عندما رأى دون كيشوت هذه الفوضى، اعتلى صهوةَ حصانه، وأمسك برمحه وثبّت درقته، ورمى بنفسه بينهم، في حين أن سانشو الذي كره دائماً المشاجرات كرهاً شديداً، انحرف إلى جهة القدور ولم يشك أن هذا هو الملجأ الذي يحترمه الجميعُ احترامَه له. صاح دون كيشوت: «قفوا، أيها السادة، قفوا، يجب ألّا تفكّروا في الانتقام من الخِدَع التي

http://www.ithar.com

يصنعها الحبُّ: لأن الحب والحرب شيءٌ واحد؛ وكما أن الحربَ يُسْمَحُ فيها بالحيلة والدهاء للانتصار على العدو، فكذلك يمكن للخصمينْ استخدام الحيلة والدهاء في خلافات الحب، ليُزيح كلٌّ منهما الآخر، شريطة ألاّ يرتدّ شيءٌ من ذلك على الحبيبة. كانت كيتيري لبازيل وبازيل لكيتيري، هكذا أمرت السماءُ: غاماش ثريٌ واسع الثراء، ويمكنه أن يعثر على كثيرٍ من النساء؛ أما بازيل الذي لم تمكّنه الثروةُ من الاختيار، وإن لم يكن جديراً بالرثاء من هذه الجهة، فمن الظلم أن تُنْتَزَع منه امرأتُه، ولا سيّما أن ما جمعتْه السماءُ لا يجوز أن يُفرّقه إنسانٌ: ومن تجرّأ على الشروع في ذلك فأنا أُعلن أنه ينبغي أن ينتزع مني رمحي أولاً.

قال ذلك وأخذ يحرّك رمحه بكثير من العنفوان والقوة حتى ألقى الذُعرَ في نفوس جميع الذين كانوا ينظرون إليه؛ وفجأة تحوّل غضبُ غاماش إلى احتقارٍ لكيتيري، ولم يعد يفكّر إلا بطَرْدها من ذاكرته بحيث أن الكاهن الذي كان حَذِراً أقنعه هو وجماعته بالهدوء وإغماد السيوف، ففعلوا وأَنْحوا باللوم على خفّة كيتيري»، أكثر من لومهم لحيلة بازيل، وبعد أن أمعن غاماش في التفكير اعتبر أن «كيتيري» التي أحبت بازيل وهي فتاة يمكن أن تحبّه وهي متزوجّة، واعتبر أنه لم يكن بائساً حين لم يتزوّج بها. فتعزّى كلّياً، ولكي يُظهر أنه لا يَحْمل ضغينةً على ما جرى، أراد أن يتمّ الاحتفال وكأنه له فيه المصلحة ذاتها. لكن بازيل، وكيتيري وأنصارهما انسحبوا إلى منزل بازيل الذي وجد المجال كله لكي يبتهج بسعادته، بالرغم من فقره، ورأى أن أصدقاءه لا يقلّون عدداً عن أصدقاء غاماش بالرغم من ثروته؛ واصطحبوا معهم دون كيشوت الذي بدا لهم رجلاً كبير القيمة والبسالة، رجلاً لم يتردّد في الانحياز إلى جماعة بازيل.

http://www.ithar.com

يجب أن يُقال، للحقيقة، إن سانشو لم يَتْبع سيّده إلا على كُرهٍ. ولم يكن بوسعه أن يتعزّى عن أنه اضطُرَّ إلى التخلي عن تلك الاستعدادات الكبرى لوليمة غاماش التي كانت وليمةً رائعةً كوليمةٍ قروية والتي استمرت حتى الليل. فانصرف حزيناً كئيباً على حماره، مُحدّقاً به بين أذنيه، دون أن يتفوّه بكلمة؛ ومع أنه غير جائع لأنه ازدرد كلّ ما وُضع له، بيد أن الوَفْرةَ التي خلّفها وراءه أخذت تُراود فكره، فكان يتنهّد بين الحين والحين تاركاً قيادته لحماره الذي كان يسير مَرِحاً على آثار خُطا روسينانت.

• • •

http://www.ithar.com

# «ما وَقَعَ لدون كيشوت مع الصيَّادة الجميلة»

مكثَ دون كيشوت وسانشو ثلاثة أيام في منزل بازيل. لكن الفارس المتحرّق إلى أن يتميّز بمآثر جديدة أزمع على مغادرة أصدقائه الجدُد.

ركبا دابتيهما دون أن يخبراهم، وابتعدا على نحوٍ غير محسوسٍ عن منزل «بازيل»؛ كان دون كيشوت مستغرقاً في أفكاره الغرامية، وكان سانشو مستغرقاً في تفكيره وهو أن يصبح غنيّاً وسيّداً كبيراً، لكنه وجد نفسه بعيداً جداً عنه. ومع أنه كان بسيطاً، إلا أنه لم يَفُتْهُ أن يُدركَ أن مقاصد سيّده وأفعاله كانت في معظمها رؤىً وأوهاماً، بحيث أنه كان دائم البحث عن المناسبة التي يُفلت بها ويعود إلى بيته. لكن القدر أَمَر بغير ما كان يفكّر فيه كما سترى.

وجرى أن دون كيشوت أَبصر، في اليوم التالي، عند المساء، لدى الخروج من الغابة، عدداً من الناس، على أطراف مرج، يقنصون بالصقر، اقترب منهم فرأى بينهم امرأةً حسنةَ الهيئة، راكبةً جواداً أبيض كان سرجه مطرّزاً بالفضّة وموشّىً باللون الأخضر. وكانت المرأة ترتدي أيضاً قماشاً أخضر، وتتزوّد بعدّة الصيد الفخمة والدالة على الغنى والتي لم يُرَ أبدع منها. كان في قبضتها صقرٌ مما خَيَّل لدون كيشوت أنها امرأةٌ مرموقة وأنها عشيقة جميع الصيادين، كما كانت فعلاً. فقال لسانشو على الفور: يا

http://www.ithar.com

بني، اذهب وبلِّغْ تحيتي تلك السيدة، وقلْ لها إن فارس الأسود يقبّل يديْ جمالها الفائق، وإذا استحسنتْ عظمتُها ذلك، جاء هو لتقبيلهما ولخدمتها في كل ما يروق لعظمتها أن تأمر به؛ لكن احذرْ يا سانشو من الكلام بالطريقة التي تتكلم بها، وإياكَ أن تحشو ثناءك بتلك الطائفة من الأمثال التي تَفيض عنك في كل ساعة.

ــ أجاب سانشو: أَلمثلي تقول هذا! لعل هذه هي أول مرة في حياتي أقوم فيها بالسفارة إلى السيدات العظيمات؟!...

ــ أجاب دون كيشوت: ما عدا السفارة التي قمتَ بها إلى السيدة دولسينيه، لا أعلم أنك حملت رسالةً أخرى.

ــ قال سانشو: ولا يوجد غير هذه أيضاً؛ لكن الرجل الحسن المعاملة لا يخاف على الرهن الذي يرهنه، وفي البيت الثري سرعان ما تُمَدّ المائدة؛ عَنَيْتُ أن التنبيهات لا يجب أن توجَّه إليّ؛ لأنني أعرف، والشكرُ لله، شيئاً من كل شيء.

ــ قال دون كيشوت: أعتقد ذلك، يا سانشو، واذهبْ بكل توفيق، وليأخذْ اللهُ بيدك».



http://www.ithar.com

ذهب سانشو خبباً على حماره؛ وحين وصل إلى الصيادة الحسناء، جثا على ركبتيه أمامها وقال لها: «أيتها السيدة السامية الرفيعة، إن الفارس الذي تَرَيْنه هناك، والذي يُدعى فارس الأسود، هو سيدي، وأنا مرافقه الذي يُدعى في منزله «سانشو بانسا». إن فارس الأسود هذا الذي كان يُدعى منذ زمنٍ غير بعيد فارس الوجه الحزين، أرسلني لأقول لعظمتكِ إنه يرجوك بكل تواضع أن تسمحي له بالمجيء، بعد الخضوع لمشيئتك المطلقة ورضاك، ليُقدّم خدماته كي يتمّم رغباته التي هي، كما يقول وكما أعتقد، الخدمة الأزلية لصيدكِ الرفيع بالصقر ولجمالكِ السامي؛ وإذا منحْتِه سيادتُكِ شرفَ الإِذن بما طلبَ، فسوف تنالين حظوة عظيمةً، وسينال هو السرور.

ــ قالت السيدة: أيها المرافق الممتاز، لقد أدّيتَ مهمتكَ مع الموافقة للمقام وللدراية اللتين تتطلبهما مثلُ هذه المهمات. انهضْ، أرجوك، فليس من العدل أن يظل مرافق فارس مثل فارس الوجه الحزين جاثياً هكذا: انهضْ، يا صديقي العزيز، وقلْ لسيّدك إنه سيشرّفنا، السيد الدوق وأنا، إن تفضّل وزارنا في بيتنا الذي هو قريبٌ من هنا». نهض سانشو، مفتوناً بجمال هذه السيدة ورقّتها، ولم يتمالك نفسه من الفرح، سواء من التكريم الذي قابلتْه به، أم من كونه علم بأنها سمعتْ عن فارس الوجه الحزين.

وقالت له الدوقة أيضاً: «سيدي المرافق، قلْ لي، أرجوك، أليس سيّدكَ هو الذي نُشِرت عنه قصةٌ باسم الفارس العجيب دون كيشوت دي لامانش الذي تُدعى محبوبتُه «دولسينيه دي توبوزو»؟

http://www.ithar.com

ـ أجابها سانشو: هو بعينه، والمرافق الذي تتحدثُ عنه القصة، والذي يُدعى سانشو بانسا هو أنا، إذا لم يغيّروني في الكتاب.



ـ قالت الدوقة: «يسرني ذلك غاية السرور؛ اذهب، يا بانسا، يا صديقي العزيز، وقلْ لسيدك إن مجيئه إلى أرضي سيكون فَضْلاً منه، ولن يفرحني شيءٌ أكثر من ذلك».

عاد سانشو بهذا الجواب اللطيف وهو فَرِحٌ جداً وروى لسيّده كلَّ ما قالته له هذه السيّدة، ورَفَع إلى السماء جمالها، وحسنَ هيئتها، ولطفها. فُتِنَ دون كيشوت بهذه البداية السعيدة، فاعتدل في جلسته على ظهر حصانه، وثبّت قدميه في الركابين، ورفعَ واقية النظر من خوذته، وشدّ على روسينانت وحثّها، وذهب ليقبّل يديْ الدوقة التي ما إن ذهب سانشو حتى استدعت الدوق لتقص عليه المهمة التي قام بها سانشو. استعدّا إذن لاستقبال الفارس؛ وبما أن القصة التي نُشِرتْ عنه قد عرّفتهما به، فقد كانا ينتظرانه بسرور، وفي نيّتهما أن يُعاملاه على طريقته، طوال الوقت الذي

http://www.ithar.com

يمكن أن يَحْتفظا به فيه، دون أن يناقضاه في أيّ شيء، وذلك مع المجاملات الأساسية الواجبة إزاء الفروسية الجوّالة التي تصفّحوا قصصها والتي يَسْتمتعون بقراءتها غالباً.

وَصَل دون كيشوت، وقد رفَعَ واقيةَ الخوذة؛ ولما همّ بوضع رجله على الأرض، بادر سانشو ليُمسك بالركاب؛ لكنه أساء التصرّف بحيث أنه لمّا أراد أن ينزل عن حماره، تعثرتْ رجله بالحبل الذي كان له كالركاب، فلم يستطع الإفلاتَ منه وظل معلّقاً بالحبل ووجهُه وبطنُه على الأرض، قريباً من دون كيشوت. أما فارسُنا فظنّ أن سانشو يُمسك بالركاب، ولم يُبصر أنه سقط على الأرض، فرفع رجله لينزل، وإذا به يرفع معه السرج الذي لم يكن محزوماً بشكلٍ حسن، ويَقَعُ بقسوةٍ بين قائمتي روسينانت، وهو يستشيط غيظاً، لاعناً المرافقَ المسكين الذي لم يستطع أن يفرغ من فكّ نفسه. هُرِع الصيادون، بناءً على أمر الدوق، إلى نجدة الفارس ومرافقه، وأنهضوهما؛ انزعج دون كيشوت كثيراً من سقوطه، ومضى، وهو يَعْرج، ليركع بإحدى ركبتيه أمام سيادتهما. لكن الدوق لم يشأ أن يكلِّفه ذلك وهو في هذه الحالة، فأسرع إليه وعانقه قائلاً: «أنا ممتعضٌ، أيها السيد فارس الوجه الحزين، من أنك لقيتَ عَنَتاً، في أول مرة تضع سيادتُكَ قدميكَ في أرضنا؛ لكن إهمال المرافقين كثيراً ما يكون سبباً لأسوأ الحوادث.

ــ أجاب دون كيشوت: إن سعادتي برؤيتك، أيها الأمير العظيم، مصدرُ فخرٍ عظيمٍ ليَ فلستُ أُبالي بعد ذلك بما تكلّفني تلك السعادة من ثمن؛ وهي تُعزّيني عمّا أصابني، حتى لو وقعتُ في أعماق الهاوية: ذلك أن فخري برؤيتك يَنْشلني من تلك الأعماق، ويخلّصني منها بتألّق. إن

http://www.ithar.com

مرافقي الملعون أقدر على مدّ لسانه ليتلفّظ بالسفاهات منه على معرفة ربط السرج فوق الحصانَ؛ لكن مهما تكن الحالة التي أنا فيها، على الأرض أو واقفاً، مترجّلاً أو على ظهر حصاني، فأنا في خدمتك أبداً، والعبدُ المتواضع للسيدة الدوقة، رفيقتك الفاضلة، ملكة الجمال، وأميرة الرقة الشاملة.

ــ قال الدوق: آه! عفوَكَ، دَعْكَ من الإطراء، أيها السيد دون كيشوت دي لامانش؛ فما دامت السيدة دولسينيه دي توبوزو حيةً، لا يمكن مدحُ جمالٍ غير جمالها دون ظلمٍ.

لم ينتظر سانشو بانسا، سيّده، في هذا الموضع من الكلام، وتكلّم عن سيّده، فقال: لا يمكن إنكار جمال السيدة دولسينيه دي توبوزو؛ لكن لا يعرف الناسُ جميعاً أين مَكْمَنُ الأرنب؛ وقد سمعتُ من أحد الأشخاص أن ما يُدعى الطبيعة مثل الفاخوري الذي يصنع جرارَ الفخار؛ فمن يصنع جرةً جميلةً يمكنه أن يصنع اثنتين منها أو ثلاثاً، بل ومئةً. ومن هنا أستنتج أن السيدة الدوقة لا تقل جمالاً في شيءٍ عن السيدة «دولسينيه».

التفت دون كيشوت في الوقت نفسه نحو الدوقة وقال لها: «يجب أن تتخيّل عظمتُكِ، يا سيدتي، أنْ ما من فارس جوّال كان له مرافق أكثر كلاماً وتسلية من مرافقي. وسيُريكم ذلك بنفسه لو تكرّمْتُمْ سموّكم بإبقائي بضعة أيام لخدمتكم.

ــ أجابت الدوقةُ: أن يكون سانشو مُسلّياً فذلك يزيد في تقديري له، وهو يعني أنه ذكيٌّ، نبيه؛ لأن المزاح الجيد، كما تعلم يا سيد دون

http://www.ithar.com

كيشوت لا يوجد في العقول الثقيلة والفظّة؛ وبما أن سانشو الطيب مُسلٍّ فأنا أعدّه منذ الآن ذكياً ونبيهاً.

ـ قال دون كيشوت: وأضيفي، إنْ شئتِ، ومُكثراً من الكلام.

ـ قال الدوق: وذلك أفضل: لأن الإنسان الذي يتكلّم بصورة سارةٍ، لا يُقال عنه إنه يكثر الكلام؛ ولكن لكي لا نُضيع الوقتَ في الكلام، هيّا، وَلْيشرِّفْنا فارسُ الوجه الحزين، العظيمُ بصحبته، إن شاء، إلى قصرٍ أمْلكُه قريباً من هذا المكان، حيث سنرحِّب بك، السيدة الدوقة وأنا، أجملَ ترحيب، كما تعودّنا أن نُرحِّب بجميع الفرسان الجوّالين الذين يمرّون بنا».

ركبوا جميعاً خيولهم، وأخذوا يسيرون، الدوق ودون كيشوت بجانب الدوقة التي نادت سانشو وأرادت أن يسير بجانبها لأنها تُسّر كثيراً بسماعه وهو يتكلم. قَبِل سانشو بسرعة: اختلط بهم، وشارك دون تكلّفٍ في الحديث الذي أَمْتَع للغاية الدوقَ والدوقة اللذين فُتِنا بالعثور على أغرب رجلين شوهدا.

• • •

http://www.ithar.com

# «الـذي يعـالـج كثيـراً مـن الأشيـاء العظيمةُ»

لا يمكن وَصْفُ فرح سانشو بأن يرى نفسه قد نال حظوةَ الدوقة، لأنّه لم يكن يشكّ في أنّه سيجد لديها الوفرةَ التي وجدها في منزل «دون دييغو» وفي منزل بازيل؛ وكان يحبّ الطعام الفاخر فلم يكن يفوّت مناسبةً من أجل ذلك.

تقدّمهم الدوق، قبل أن يصلوا إلى القصر، ونبّه جميعَ رجاله على الطريقة التي يريد أن يُعاملوا بها دون كيشوت: بحيث أن الفارس عندما ظهر لقيه خادما تشريفات يرتديان سترتين طويلتين من الساتان القرمزي فحملاه بين أيديهما وقالا له إن عظمته يمكن أن يساعد الدوقة على النزول. وذهب دون كيشوت إلى الدوقة، وبعد أن أثنى عليها ثناءً عظيماً، أَبَتْ الدوقة ألاّ تترجّل إلا بين ذراعي زوجها، قائلةً إنها لا تقبل أن تُثْقل فارساً له هذه الأهمية بحِمْلٍ كريه. كان لا بدّ إذن من أن يُعطيها الدوقُ يده، وبينما كانا يدخلان فناءً كبيراً للدواجن جاءت آنستان وأَلْقَتا على كتفيْ دون كيشوت معطفاً أرجوانياً طويلاً وفخماً. وفي الحالة امتلأت جميعُ الأروقة بالرجال والنساء الذين كانوا يصرخون بكل قواهم: أهلاً بزبدة الفوارس الجوّالين وزهرتهم! ورشّ معظمُهم بالماء المعطّر الدوقَ والدوقةَ والفارسَ الذي فُتِنَ إلى حدٍّ لا يُصدَّق.

http://www.ithar.com

ولأول مرة أحسّ أنه فارسٌ جوّالٌ حقيقي لأنه رأى نفسه يُعامَلُ كما قرأ عن معاملتهم في القرون الماضية.



عندما لامست قدما سانشو الأرضَ تبعَ الدوقة، وظلَّ على مقربةٍ منها، ودخلَ القصر مع الآخرين؛ لكن ضميره بكّته لأنه ترك حماره وحده، فاقترب من سيِّدةٍ مُسنّةٍ محترمة جاءت مع نساء أخريات لاستقبال الدوقة وقال لها بصوتٍ خفيض: «السيدة غونزاليز»، أو ما اسمُكِ؟

ـ قالت: اسمي «رودريغ دي غريجالفا»، وماذا تَبْغي، يا صديقي؟

ـ قال سانشو: اذهبي، أرجوك، إلى باب القصر؛ ستجدين هناك حماراً لي، أودّ لو تأمرين بإدخاله الاسطبل، أو أدخليه أنتِ نفسك، لأن هذا الحمار المسكين شديدُ الخوف ولا يمكنه البقاء وحده.

http://www.ithar.com

ــ أجابت السيدة رودريغ: إذا كان السيّد لا يزيدُ علماً عن الخادم، فيا لها من وَرْطةٍ؛ امضِ، يا صديقي، وابحثْ في غير هذا المكان عن سيدات يُعْنَيْن بحمارك، لأن سيدات هذا البيت لم يتعوّدْن هذه المهنةَ.

ــ أجاب سانشو: أوه! أوه! ها أنت تشمئزّين أيضاً! وكأنني لم أسمع من سيدي دون كيشوت الذي يعرف جميعَ القصص، أن «لانسيلو» عندما عاد من انكلترا، عُنِيتْ الأميراتُ به والآنساتُ بحصانه، وبذمّتي، أيتها السيدة العزيزة، لا أرضى أن أبادل حماري بحصان «لانسيلو».

ــ أجابت السيدة رودريغ: إذا كنتَ مهرّجاً فاحتفظْ بتهريجك لمن يجدونه حسناً ولمن يُجزونك عنه خيراً مني؛ ولستُ أعطيكَ عنه تينةً واحدةً.

قالت السيدة رودريغ ذلك بصوتٍ عالٍ سمعتْه الدوقةُ ورأت عينيها محمرّتين من الغضب فسألتها: مَنْ الذي غاظكِ؟ أجابت: مَن الذي غاظني؟ هذا الفظّ الذي رجاني بإلحاحٍ أن أضع حماره في الاسطبل قائلاً لي: ان سيداتٍ أعظم مني عُنين بحصان مَنْ لا أَعرفُه، مَنْ يُدعى لانسيلو؛ وفضلاً عن ذلك كله فهو يدعوني عجوزاً. ــ قالت الدوقة: «إن ذلك يغيظني أكثر منك» وقالت وهي تنظر إلى سانشو: أنت مخطىءٌ، يا صديقي سانشو؛ السيدة رودريغ ما تزال شابةً، وهي تضع هذا النقاب وهذه العصابة لأنها أرملة، ولتدلّ على مكانتها لا بسبب سنّها. ــ أجاب سانشو: فَلأُعْدَمْ حياتي إن كنتُ قلتُ هذا لأُغضبها، لكنني أحبُّ حماري المسكين. لأننا أكلنا دائماً معاً. وظننتُ أنني لن أجد شخصاً رحيماً أوصيه به أكثر من هذه السيدة الفاضلة.

http://www.ithar.com

قال دون كيشوت وهو ينظر إليه شزَراً: سانشو، أهكذا يتكلّم الناسُ هنا؟

ـ أجاب سانشو: كلُّ واحد يتكلّم عن شؤونه بحسب وضعه؛ لقد تذكّرتُ الحمارَ هنا، وأنا أتكلّم عنه هنا؛ ولو تذكّرته في الاسطبل لتكلّمتُ عنه في الاسطبل. ـ قاطعه الدوق قائلاً: سانشو مُحقّ، ولا أجدُ مبرّراً للومه؛ لكن لا ينبغي أن يَحْمل همَّ حماره، فسوف نعتني به كما نعتني بسانشو.

بهذه الدعابات المسلّية للجميع ما عدا دون كيشوت، صعدوا إلى القصر، وأُدخِلَ فارسُنا صالةً كبيرةً مزدانة بالبروكار الذهبي والفضي الفخم، ونَزَعتْ عنه سلاحَه ستُّ فتياتٍ خُصِّصْن لخدمته، وكلّهن قد نبّههنَّ الدوقُ والدوقةُ على الطريقة التي يجب استعمالها معه، لكي يُصدِّق أنه يُعامَل كما يُعامَل الفارسُ الجوّال. وعندما تخفّف دون كيشوت من سلاحه ظل بسرواله الضيّق وقميصٍ من جلد الغزال؛ كان هزيلاً، جافاً، ممدود القامة، غائر الوجنتين، مشدود الفكّين، فما قد يدفع الآنسات إلى الضحك، لولا أن الدوق قد منَعَهنّ صراحةً من ذلك قبل كل شيء: رجاهنّ فقط أن يَدَعْنَه مع مرافقه. اختلى دون كيشوت مع سانشو في غرفة أروع من الصالة، فارتدى ثيابه، ووضع حمالته الجلدية وسيفه، وألقى معطفه الأرجواني على كتفيه، وعلى رأسه قبعةً من الساتان الأخضر تركتها له الآنساتُ؛ وبهذه العدّة دخَلَ الصالةَ حيث وجَدَ الآنسات الستّ مصطفّات في صفٍّ لاستقباله بكثير من الاحتفاء الرسمي ومن مظاهر الاحترام؛ وفي الوقت نفسه وَصَل اثنا عشر خادماً مع المرافق، ليصطحبوه إلى المكان الذي كان الدوق والدوقة ينتظرانه فيه. سار بينهم بأبّهة عظيمة

http://www.ithar.com

إلى صالةٍ أخرى، حيث قام صوانٌ بديع ومائدةٌ لأربعة مدعوّين فقط. استقبله الدوقُ والدوقة عند الباب ومعهم رجلُ دينٍ رزينٍ متواضع، ممّنْ يديرون قصورَ الأمراء في اسبانيا. وبعد كثير من الرسميات من كلا الجانبين، دنا الدوقُ والدوقة وبينهما دون كيشوت من المائدة. وهناك تبادل الدوق ودون كيشوت صنوف المجاملة حول المقعد الأول، لكن إصرار الدوق تغلّب على أمانة دون كيشوت الذي أُكره على الجلوس فيه: جلس رجلُ الدين قبالته والدوقُ والدوقة على جانبيه. دُهش سانشو من التكريم الذي قُوبل به سيّدُه حتى لكأنه هبط من السماء. وبعد أن بدؤوا بتقطيع اللحم، سألت الدوقةُ دون كيشوت عن أخبار «دولسينيه» وإن كان قد أرسل إليها منذ زمنٍ قريب بعض قطّاع الطرق أو العمالقة ممّنْ يغلبهم كلّ يوم. أجاب دون كيشوت: سيدتي، إن مصائبي لها بداية، لكني لا أعتقد أن لها نهاية؛ لقد غلبتُ العمالقة، وهزمتُ قُطّاع الطرق، وأرسلتهم إليها؛ لكن أين سيجدونها، وبأي العلامات يعرفونها، إن كانت اليوم مسحورةً تحوّلتْ إلى أبشع فلاحةٍ مشوّهةٍ يمكن أن نتصوّرها؟ ـ قال سانشو: أما أنا فلا أفهم شيئاً ممّا يُقال، لأنها بدتْ لي أجملَ نساء الأرض؛ وهي لا تقلّ رشاقةً عن أمهر راقصٍ على الحبل. بذمّتي، أيتها السيدة الدوقة، إنها تَثِبُ على ظهر الأتان كما يثب الهرُّ. ـ سأل الدوق: وهل رأيتَها، أنت، مسحورةً، يا سانشو؟. ـ أجاب سانشو: كيف! إن كنتُ رأيتُها؟ ومَنْ الذي اكتشف ذلك كله غيري؟ نعم، بصدقٍ، رأيتُها، وإذا لم تكن تلك مسحورةً، فما من أحدٍ سُحِرَ».

تابع سانشو كلامه: «لكن سيدي مخطىءٌ حين يشكو من مغامراته؛ وإذا كان بينها ما هو غير مُوفّق، فإن بينها ما هو حسن؛ يومٌ لك ويومٌ

http://www.ithar.com

عليك، والكذب لا يظهر إلا بعد زمن؛ ولن تُعْوِز سيدي مملكةٌ يحكمها، وجزيرةٌ يمنحها خادمَه. ــ قال الدوق: لا، لا، بكل تأكيد، يا صديقي سانشو، وأنا أُعطيك واحدةً من تسعٍ أملكها، وهي ليست أصغرها وأقلها قيمةً. ــ قال دونْ كيشوت: اركعْ، يا سانشو، وقَبِّلْ قدميْ سعادته لتشكره على الهبة التي أنعم بها عليكَ».

فعل سانشو ما أمره به دون كيشوت؛ ونهض فجأةً الراهبُ الذي نفد صبرُه، عن المائدة، وقال للدوق بحزنٍ قاسٍ: أُقسم بالثوب الذي أرتديه، يا سيدي، أنك ضعيفٌ ضعفَ هذين الشقيّيْن. وكيف يكونان مجنونين، عندما يسمح الحكماء العاقلون بجنونهم؟ ولتَبْقَ سعادتُك معهم بما أنك تتوافق معهم؛ أما أنا فلن أَضَع قدمي في هذا البيت ما دام فيه هذان الرجلان الشريفان. على الأقل، لن أكون شاهداً على هذه الغرائب، ولن يلومني أحدٌ على ما لم أَره. وخرج دون أن يُضيف شيئاً، بالرغم من الرجاء الكثير لاستبقائه. والحقّ أن الدوق لم يهتمّ كثيراً، ومع أنه غضب إلا أنه ضحك كثيراً من غضبه الذي كان في غير محلّه. فرغوا من العشاءِ، وبينما كان الخدم يرفعون الأطباق عن المائدة، دخلتْ أربع آنسات، كانت إحداهن تَحْمل حوضاً من الفضّة المذهبة، والثانية تحمل إبريقاً بعروة، والثالثة تحمل بياضاً في غاية النظافة، ذكيّ الرائحة، والرابعة التي شمرت عن ساعديها حتى المرفقين، كانت تحمل علبةً فضيّةً وقطعاً من الصابون العطر. دنتْ الآنسةُ التي تحمل البياضَ وربطت حول عنقه مِنْشفةً؛ ثم جاءت التي تَحْمل الحوض وانحنت انحناءة عميقةً، ووضعته تحت ذقنه وظلت واقفة وهو بين يديها. تعجّب دون كيشوت من هذا الاحتفال الرسمي الخارق للعادة؛ لكنه ظنّ أن عادة البلد هي غسل اللحية بدلاً من

http://www.ithar.com



اليدين فمدّ رقبته دون أن يقول شيئاً. وفي الوقت نفسه، صُبَّ الماءُ في الحوض، وأخذت الحاملةُ للصابون تَغْسل لا لحيةَ الفارس الصبور فقط بل ووجهه وعينيه اللتين اضطُرَّ إلى إغماضهما. تبادل الدوق والدوقة النظرات لأنهما لم يكونا على علمٍ بما يريان، وانتظرا إلى ما سيؤول إليه هذا الغَسْلُ الغريب. في هذه الأثناء، تظاهرت الآنسة التي تَغْسل اللحية، بعد أن غسلت الرجلَ جيداً، وبعد أن وضعت له الصابون على الوجه، أن الماء قد نَفَد وقالت لرفيقتها أن تذهب وتأتيها بالماء، وأن السيد دون كيشوت

http://www.ithar.com

سيتلطّف بالانتظار. ذهبت الآنسةُ، وظلّ دون كيشوت في هذه الحالة التي تُميتُ من الضحك. كان عنقه الطويل المغطّى بالشعر مغطّىً بندفٍ ضخمةٍ من الصابون، وكذلك وجهُه وعيناه المغمضتان. وكانت الآنساتُ الماكرات يَخْفضن أبصارهن ولا يجرؤن على النظر إلى الدوق والدوقة اللذين لم يكونا مسرورين كثيراً من هذه الدعابة التي لم يأمرا بها، ولم يكونا يعلمان إن كان ينبغي أن يغضبا من ذلك، إلا أنهما لم يكادا يتمالكان نفسيهما من الضحك وهما يريان وجهَ الفارس المضحكَ. وأخيراً جاءت الآنسةُ بالماء، وغُسِلَ وجهُ دون كيشوت، وجففتْ الآنسةُ التي تحمل البياضَ وجهه برفقٍ وبتؤَدة، وكأنها كانت تخشى أن تَجْرح هذا الهيكل العظمي.

بعد أن فرغت الآنساتُ من عملهن، انحنت كلٌّ منهما أمامه وأردن أن يَخْرجْن؛ لكن الدوق الذي لم يشأ أن يعتقد دون كيشوت أن الآنسات يهزأْن منه، نادى الآنسة التي تَحْمل الحوضَ وقال: «تعالي واغسلي لي أيضاً، لكن إياك أن يَعُوزَكِ الماء. أدركت الفتاةُ التي لم تكن غبيةً نيّةَ الدوق، وعلى الفور غسلتْ له وجفّفته، ثم حيّيْنه باحترامٍ وانسحبْنَ.

• • •

http://www.ithar.com

# الفصل الثاني والعشرون

## «الوسائل المتيسِّرة لإبطال السحر عن دولسينيه»

سُرَّ الدوق والدوقةُ سروراً عظيماً مع ضيفيهما، ولم يُفكّرا إلا بالوسائل الجديدة للتسلّي. وبعد ستة أيام أنفقاها في إعداد رجالهما لما سيأتي، اصطحبا دون كيشوت وسانشو إلى صيد الخنزير البري مع عددٍ وافرٍ من الصيادين، وعُدَّةٍ عظيمةٍ لا يقدر عليها إلا أميرٌ كبير. حُمِلَ إلى الفارس لباسُ الصيد، كما حصل سانشو على لباسٍ من الجوخ الجميل الأخضر. لم يشأ دون كيشوت أن يرتدي اللباسَ الذي قُدِّم له قائلاً إن الذين يحملون السلاح أبداً لا ينبغي أن يَحْملوا مشاجب. أما سانشو فارتدى لباسه وهو راضٍ من قلبه وهو يَنْوي أن يبيعه في أول مناسبة. ولما أصبح كلُّ شيءٍ جاهزاً، تقلّد دون كيشوت سلاحه، وارتدى سانشو لباسه الأخضر، وركبَ حماره الذي يُؤْثره على الحصان الذي أرادوا أن يُعطوه إياه، وسار بين الصيادين. وفي الوقت نفسه خرجت الدوقةُ وهي مرتدية ثياباً ثمينة ولطيفة، وبادر دون كيشوت بفرح إلى الإمساك بعنان الجواد، مع أن الدوق تظاهر بأنه يتحمّل ذلك بمشقّة؛ ذهبوا بهذه الصورة إلى الغابة التي هي بين رَبْوتين، وما إن وصلها الدوق والدوقة حتى نُصِبَتْ الأشراكُ، وأُفرِدتْ الكلاب، وفُرِّق الصيادون في مجموعات شتّى، وبَدأ الصيدُ

http://www.ithar.com

بصرخات عظيمة وبضجةٍ رهيبة من الأبواق والكلاب. ترجّلتْ الدوقةُ عن حصانها، وحربةُ الصيد في يدها، ووقفتْ في الموضع الذي تعوّدت الخنازيرُ المرور منه. وكذلك ترجّل الدوق ودون كيشوت ووقفا بجانب الدوقة؛ أما سانشو فوقف وراءهم وظلّ فوق حماره، حتى لا يقع له حادثٌ مزعج. وما كادوا يستقرّون ويصطفّون في صفٍّ مع قسمٍ من جماعتهم حتى رأوا خنزيراً برياً مخيفاً يُقبل عليهم، وقد جدّت الكلابُ في مطاردته ولحق به الصيادون، وعلى الفور ركّز دون كيشوت درقتَه، وتقدم وسيفُه في يده ليتلقّاه، وجرى الدوقُ إليه وحربتُه في يده، وكانت الدوقة ستسبقهما لولا أن الدوق منعها من ذلك. أما سانشو المسكين فإنه لم يكد يرى الحيوانَ الرهيب بنابيه الطويلين، والزبدُ يفور من شدقيه، والشرر يتطاير من عينيه، حتى نزلَ عن حماره وأَخذَ يركض بكل قوته نحو سنديانةٍ ليحاول تسلّقها؛ لكنه لم يُوفَّق في ذلك ولم يصل إلى منتصف الشجرة ولم يبذل وسعه ليصل إلى أعلاها، حتى انكسر به الغصنُ، فسقط لكنه ظلّ معلّقاً على قدمٍ من الأرض. وأخيراً ثَبتَ الخنزيرُ في مكانه، وقد خرّمَتْه طعنات الحرابِ، وهُرِع دون كيشوت لدى سماعه صرخات سانشو، فرآه معلقاً ورأسه إلى الأسفل، وقربه حمارُه المسكين الذي لم يشأ أن يتركه في هذه المغامرة المزعجة. اقترب دون كيشوت وفكّ مرافقه المسكين الذي فرح حين رأى نفسه آمناً، لكنه امتعض امتعاضاً شديداً حين رأى ثقباً كبيراً في لباس الصيد الذي كان تقديرُه له لا يقلّ عن إقطاعة.

في هذه الأثناء وُضع الخنزير على بغلٍ وغُطّي بنبات اكليل الجبل والزعتر، وحمله الصيادون المنتصرون أمامهم إلى خيمة وسط الغابة، حيث مُدَّت مائدةٌ كبيرةِ غُطّيتْ بفخامةٍ جديرةٍ بجلال الدوق الذي وفّر لذةَ

http://www.ithar.com

الصيد هذه. أخذ صيادونا يتناولون عشاءهم رأساً، وبينما هم يتناولون أفخر الطعام، داهمهم الليلُ وكان أشدّ ظلمةً من المعتاد في الصيف، وذلك لأن السماء كانت غائمةً؛ ومع ذلك فقد كان أكثر موافقةً لنية الدوق والدوقةَ. وفجأة بدت الغابة كأنما اشتعلت، وسُمعتْ على الفور ومن كل الجهات أصواتُ الأبواق وآلات الحرب الأخرى، وكأن عدة جماعات من الناس مرّتْ بالغابة. هذا الضياء العظيم وذلك الصوت المدهش الذي لم يكن منتظراً، أدهشهم جميعاً؛ وزاد من دهشتهم التعدّدُ الكبير للآلات التي يستخدمها العربُ في المعارك. دوّت أصواتُ الأبواق من جميع الجهات، واختلطتْ بأصواتها أصواتٌ أخرى كالصافرة والمزمار والطبل، فحدثت ضوضاء كبيرة يَنْفعل بها أقلّ الناس تأثّراً. بدا الدوق والدوقة مدهوشين، ولم يَخْلُ دون كيشوت من الانفعال. ولم يستطع سانشو الطيب من إخفاء رُعبه، ولم يبق سوى الذين كانوا يعرفون سرّ القضية دون دهشة ظاهرة. وفجأة توقّفت الضوضاء، ومرّ بغتةً أمام الجماعة ناقلُ رسالةٍ بهيئة شيطان وهو ينفخ في بُويقٍ له فمٌ ويُصدر صوتاً مرعباً. قال الدوق: «أيها الرسول، مَنْ أنت، على مَنْ تَحْقد، وما هؤلاء الناس الذين يمرّون في الغابة.

ـ أجاب ناقل الرسالة بصوت شنيع: أنا الشيطان، وأنا أبحث عن دون كيشوت دي لامانش؛ والناس الذين تسمعهم هم ست مجموعات من السَحَرة وقد جاؤوا بـ «دولسينيه دي توبوزو» مسحورةً على عربة النصر. ويصحبها الخيالُ الشهمُ «مونتيزينوس» الذي جاءَ ليعلّمه إبطالَ السحر عنها.

ـ أجاب الدوق بسرعة: لو كنتَ الشيطان، كما تقول، لتعرّفت على الفارس، فها هوذا أمامك.

http://www.ithar.com

ـ أجاب الشيطان: أقسم بالله وبنفسي، لم أنتبه إلى ذلك؛ ففي ذهني الكثيرُ من الأشياء، حتى إني نسيتُ أهمَّها.

ـ هتف سانشو: «بذمّتي، لا بد أن يكون هذا الشيطان رجلاً خيِّراً وكاثوليكياً صالحاً: ولو كان غير مؤمنٍ لما أقسم هذا القسم. ويبدو لي أن الناس الصالحين موجودون في كل مكان، في الجحيم وفي غير الجحيم».

وفي الوقت نفسه، حدّق الشيطان وهو على ظهر حصانه، في دون كيشوت، وقال: يا فارس الأسود الذي أتمنى أن أراه قريباً بين براثنها، أنا مُرسَل إليك من قبل مونتيزينوس الباسل والبائس، لأخبرك بوجوب انتظارك له في المكان الذي ألقاك فيه لأنه يأتي بـ «دولسينيه دي توبوزو» معه، وهو يعرف الوسائل الصالحة لإزالة السحر. هذا هو موضوع سفارتي؛ والشياطين مثلي يَمْكثون بصحبتك، أما الملائكة الصالحون فيظلّون مع هؤلاء السادة».

قال هذا ونفَخَ ببوقه المرعب، واختفى دون انتظار الجواب.

أظهر الصيادون دهشتهم أكثر من ذي قبل، ولا سيما دون كيشوت وسانشو، وكانت دهشة سانشو عظيمة حين سمع أن دولسينيه مسحورة، بالرغم من الحقيقة التي يعرفها.

ـ قال الدوق: أأنتَ عازمٌ على انتظارهم، أيها السيد دون كيشوت.

ـ أجاب دون كيشوت: ولـمَ لا؟ إني أنتظرهم رابط الجأش، صامداً، ولو أن الجحيم كله سيأتي لمهاجمتي

http://www.ithar.com

ـ قال سانشو: أما أنا، فلو جاء شيطانٌ آخر ونفخَ ببوقه في أذنيّ فسوف أبقى هنا كما في «الفلاندر».

بيد أن الليلة قد مضى شطرٌ منها وازداد ظلامُها، وشوهِدَ عددٌ لا يُحصى من الأضواء تركض عبر الغابات، بالطريقة نفسها التي نرى منها في أوقات الصحو الأبخرة الجافة تحوّم في المنطقة الوسطى من الفضاء؛ ثم سُمِع صوتٌ رهيب مثل صوت عربةٍ محمَّلةٍ بالسلاسل أخذت عجلاتُها السميكة تُصدر صوتاً مبحوحاً شبيهاً بالصوت الذي يَحْدث عندما نَعْمد إلى اصطياد الدب أو الحيوانات البرية الأخرى. هذه القرقعةُ انضافت إليها جلَبةٌ أخرى فجعلتها أكثر فظاعةً. وبدا للجميع أن القتال قد نشب في مواقع مختلفة من الغابة. فمن جهةٍ، كان يُسمَع صوتُ المدفعية الرهيب: ومن جهة أخرى، عددٌ لا يُحصى من الفرسان الملكيين الذين يحاربون ببندقية الفتيلة. كما بدا، من خلال أصوات المقاتلين، أنهم قريبون جداً، وأبعد من ذلك وافت أصواتُ الآلات التي لم تنفكّ عن العزف وكأنها تَحْفزهم إلى القتال. وبكلمة واحدة، كانت الضوضاء المختلطة لمختلف أدوات الحرب، وصراخ المقاتلين، وقرقعة العجلات تَبْعث الرعبَ في أشد الناس ثباتاً؛ وقد احتاج دون كيشوت نفسه إلى شجاعته الكاملة ليردّ الرعبَ عنه. أما سانشو فانحلَّ عزمُه وسقطَ مغشّياً عليه عند قدمي الدوقة، وظلَّ كذلك زمناً طويلاً قبل أن يثوب إلى رشده، بالرغم من كلّ ما فُعِل له.

بدأ يفتح عينيه عندما وصلت إحدى هذه العربات التي كانت تُحدث كلَّ هذه الضوضاء، وكان يجرها أربعة ثيران مغطاة بقماش أسود وفي كل قرن مشعلٌ يشتعل. وفي أعلى العربة شُوهِد نوعٌ من العرش، جلس عليه

http://www.ithar.com

شيخٌ جليل، له لحيةٌ بيضاءُ كالثلج وطويلة منحدرة إلى ما دون الزنار؛ وكـان لباسُهم ثوباً طويلاً من القطن الأسود يُغطيه بأكمله. وكان يقود العربةَ شيطانان بغاية السواد ولهما وجهان مرعبان كاد سانشو لمرآهما تخور قواه، فأغمض عينيه لكي لا يراهما أكثر مما رأى. وصـل هذا الطاقم الأسود إلى قُدّام الدوق، فوقف الشيخُ عن مقعده، وقال بصوتٍ عالٍ: «أنا الحكيم ليرغاند»؛ وتابعت العربةُ بعد ذلك جَـرْيها؛ وتبعتها عربةٌ أخرى مشابهةٌ لها وبها شيخٌ يرتدي ثوباً كثوب الشيخ الذي سبَقَ، وقال بصوت جهوري: أنا الحكيم «الكيف» الصديق الحميم «لارغاندا» المجهولة، ومرّ كمن سبَقَه. ثم شوهدت عربةٌ ثالثةٌ بالزينة نفسها والثيران ذاتها، وشوهد على العرش رجلٌ قوي، كريه الهيئة ومتوحّشاً، ينهض ويصيـح بصـوتٍ مبحـوح: «أنـا السـاحـــر «اركـالاوس» العـدو اللـدود «لأماديس دي غول» ولكل عِرقه». قال هذا وتبع الآخرين. وتوقّفت العرباتُ على بضع خطوات من هذا المكان، وسكت صوتُ العجلات المزعجُ، وسُمِعْت موسيقى عذبةٌ تفاءل بها سانشو الذي تملّكه الفرحُ. قال للدوقة التي لم يبتعد عنها خطوةً واحدةً: حيث تكون الموسيقى لا يكون إلا ما هو حسنٌ.

كلما كانت الموسيقى تقتربُ، كانوا يرون عربة النصر مُقبلةً تجرها ستّ بغلات مغطاة بالبياض؛ وعلى كل بغلةٍ تائبٌ يرتدي ثياباً باللون نفسه، وبيده مشعل كبير مـن الشمع المشتعل. كانت هذه العربةُ أكبر مرتين أو ثلاثاً من العربات الأخرى، وكانت تحمل اثني عشر تائباً آخر ومعهم مشاعلُهم المُضاءة، وعـرشاً شديد الارتفاع عليه حورية ترتدي غلالةً شفّافة فضيّة، تلتمع تشجيراتُها الذهبية فتبهر الأبصار، ويُغطّي

http://www.ithar.com

وجهَها برقُع ذهبي، لكن بصورة لا تمنع الناظر من تملّي جمالها الفائق، وهي علـى الأكثر في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. وبقربها وجهٌ، صورةٌ ترتدي فستاناً طويلاً من القماش الأسود، ورأسها مغطّى بخِمار الحداد، وهي تبدو جامدةً لا تتحرك. ولم تكد العربة تصل إلى قدّام الدوق، حتى سكتت الموسيقى، ونهضت هذه الصورة، وفتحتْ فستانها، ورمتْ خمارها، وكشفتْ عن هيكل خالٍ من اللحم يمثل الموت بكل ما في الموت من بشاعة مرعبة. كاد سانشو يموت من الخوف، وبدا الدوق وجماعتُه كأنهم ارتعبوا؛ حينئذٍ تكلّم بلهجةٍ ذابلةٍ فاترة، بهذه العبارات:

أنا «مرلان» الذي جعَل التاريخُ من الشيطان أباً لي، وتلك كذبةٌ شنيعةٌ سمَحَ بها مرُّ السنين. أنا سيِّد السَحَرة، وأنا أعرف جميعَ أسرار زرادشت الشهير؛ وآمُرُ الشياطين، وأقرأ في النجوم قدَرَ البشر وخيرهم وشرّهم، وأحبّ مجد الفرسان الجوّالين، وطالما غمرتُهم بأفضالي ضد مزاج السَحَرة الذين يمارسون كتابة الطلاسم ليُؤذوا فقط. «في مغارة «ليتيه» حيث كانت روحي سجينةً، نبّهتني صرخاتُ «دولسينيه» وأخرجتني عن عملي حيثُ توقفتُ. فعلمتُ أنها تحوّلت من أميرةٍ إلى فلاحةٍ، وتحوّل جمالُها إلى بشاعة. وممّا زاد في الكرب والمُصاب أنها كانت مسحورة بالقرب من «غواديان». لقد تأثرتُ بهذه الآلام، فسارعتُ، وجريتُ، وبحثتُ في كل مكان عن علاج، واستنجدتُ بالجحيم، وجئتكم مغطاةً بهذه العظام.

«يا شرف الفروسية ومجدها وزينتها، يا مَنْ لا ينام على فراشٍ وثير، ومَنْ يقضي لياليه في الغابات والمروج! أيها الفارس الذي لا يُضاهى، أيها

http://www.ithar.com

البطلُ الذي لا يُقهر، أيْ دون كيشوت، يا من يبكي هذه السيدة! جئتُ عن عَمْدٍ لأُعزّي نفسك، لأعرّفَك بالوسائل التي تُنهي آلامك. لا بدَّ من ثلاثة آلاف وست مئة جلدة على الجسد العاري لمرافقك الذي لا مثيل له تردّها إلى حالتها الأولى، وهذا هو موضوع مجيئي السريع.

أجاب سانشو على عجل: نعم، نعم، وأنا ضامنٌ لذلك! تبّاً لكَ ولطريقتك في إزالة السحر! وما علاقة جِلدي بالسحر؟ وإذا كان السيد «مرلان» لا يَمْلك وسيلةً أخرى لتخليص السيدة دولسينيه، فيمكنها أن تذهب وهي مسحورة إلى العالم الآخر.

ـ قال دون كيشوت: لو أمسكتُ بك، أيها الفظُّ، أيها الفلاحُ الجاحدُ، لعلّقتُكَ على شجرة وأنت عارٍ كالكفِّ ولجلدتُك بدلاً من ثلاثة آلاف وست مئة جلدة، خمسين ألف جلدة مشدّدة بحيث تندم على فعلتك طوال حياتك. ولا تجبْني إذا كنتَ تريد ألا أخنقك في هذه الساعة.

ـ قال مرلان: مهلاً، مهلاً؛ ليست هذه هي الطريقة الواجب اتّباعها؛ إن جَلْدَ المرافق يجب أن يكون اختيارياً، وفي الوقت الذي يختاره، فليس هناك من وقتٍ محدّد. ويُسْمَح له أن يُؤدّي نصفَ ما عليه، شريطة أن يُجْلَد على يد إنسانٍ آخر، مهما تكن الجلداتُ قاسيةً.

ـ أجاب سانشو: «لا يدي ولا يد إنسان آخر، ولا ثقيلة ولا خفيفة، ولا قاسية ولا رخوة. وهل خَلَقْتُ السيدة «دولسينيه دي توبوزو» من أجل أن أكفّر عن أخطائها؟ ولمَ لا يُجْلد السيد دون كيشوت؟ فالقضية قضيته، وهو الذي يدعوها في كل لحظة حياته وروحه ولذّته. وعليه أن يبحث عن الوسائل الكفيلة بإزالة السحر عنها. ولمَ أُجلَد أنا، ولا مصلحة لي في ذلك؟»."

http://www.ithar.com



لم يَفْرغ سانشو من كلامه حتى نهضتْ الحوريةُ التي على العرش ورفعت البرقعَ الذي يغطّي وجهها، وأَرَتْ جمالَها الفتّان. ثم التفتت إلى سانشو وقالت له وقد بدا عليها الغضب والغيظ: «أيها المرافق المزعج، أيها الجبان، الرعديد المحجّر القلب؛ أيها الشقي، لو طُلِبَ منك أن تُلقي بنفسك من أعلى البرج إلى الأرض؛ أُمرتَ، أيها النمر الذي لا رحمة فيه، أن تأكل الضفادع والحيات؛ ولو كان المقصودُ، أيتها الأفعى السامة، إقناعَكَ بخَنْق زوجتك وأولادك، لما دُهشنا من أن نرى عنادك؛ أما ثلاثة

http://www.ithar.com

آلاف وست مئة جلدة تخيفك، في حين أَنْ ما من طفل هزيل من المذهب المسيحي لا يصيبه مثل هذا العدد في الشهر، وذلك شيءٌ يجب أن يُميتكَ من الخجل، وهو سيثير ضدّك لا الذين يستمعون إليك فقط بل وجميع الذين يعلمون به. تأمّلْ أيها التعس، تأمّلْ أيها الوحش الضاري، انظرْ بعيني الجبان إلى جمال عينيَّ، وهما أعظم تألّقاً من أعظم النجوم لمعاناً، وهما بدموعهما الساخنة تخرّبان على نحوٍ غير محسوس الحقولَ المزهرة لخديّ الجميلين اللذين كانا من قبل فردوساً أرضيّاً؛ مُتْ من العار ومن الخجل، أيها الوحش الخبيث والبغيض، وأنت ترى أميرةً من عمري، تَفْقد أيامها الجميلة ويُصيبها الضنى في صورة فلاحةٍ كريهة، وإن كنتُ لا أبدو كذلك الآن، بفضل «مرلان» الكريم الذي ظن أن دموع الحزينة الجميلة أقدر على إثارة شفقتك. اقبلْ، اقبلْ! أيها الوحش الذي لا يلين، ولا تفكّره في المحافظة على تلك القشرة المتجعّدة التي تحوي قلبك الرُخامي؛ وإذا كنتُ غير قادرةٍ على تلطيف مزاجك الوحشي حين لم يَحْملك بؤسي على الرحمة بـي، فارحمْ، على الأقل، هذا الفارسَ البائس الذي يُضنيه الأسى، هذا السيد الذي أحبّك حبّاً جمّاً والذي أخذ يَذْوي بسبب تردّدك في جوابك.

ـ قال الدوق: في الحقيقة، أيها الصديق سانشو، أنت تحتاج إلى كثير من المجاملة والرجاء، وبكلمةٍ واحدة، إما أن تقبل وإما أن تتخلى عن الحكم. سيكون في الحقيقة شيئاً عجيباً أن أمنح سكّانَ جزري حاكماً قاسياً ووحشياً لا يتأثّر بدموع السيدات المحزونات ولا برجاء أحكم الحكماء السحرة ونصائحهم. أقول لك للمرة الأخيرة، يا سانشو، إما أن تُجْلَدَ أو تَجْلد نفسك، وإما أنك لن تصبح حاكماً.

http://www.ithar.com



ـ أجاب سانشو: يا سيدي، ألا تتركون لي يومين للتفكير في ذلك؟

ـ ردّ مرلان مُسرعاً: أبداً لا؛ يجب البتّ في هذه القضية على الفور؛ وإلا عادتْ «دولسينيه» في هذه الساعة إلى كهف «مونتيزينوس» بعد أن تُحوَّل إلى فلاحة، أو رُفِعتْ إلى الحالةَ التي كانت فيها في الجحيم، ريثما يتم عددُ الجلدات المقرّرة.

ـ قالت الدوقة: تشجع، يا سانشو؛ أين قلبُكَ، يا صديقي العزيز، أنت العاقل جداً؟ يجب أن تكون أكثر عرفاناً بالجميل، وأن تذكر الخبز الذي أكلتَه في منزل السيد دون كيشوت، الذي يكنّ الناسُ جميعاً له التقدير والذي نُضطَرّ إلى خدمته بسبب صدقه ومآثره في الفروسية. يجب أن تحتقر هذه الجلدات، يا بني، باعتبارها أشياء غير جديرة بوفاء المرافق الصالح؛ يجب أن ترفض إغواءَ الشيطان؛ الخوفُ من خصائص الأشقياء، والقلبُ الصالح لا يَسْتَصْعبُ شيئاً.

http://www.ithar.com

ـ أجاب سانشو: قَسَماً بعقيدتي، يا سيدتي الفاضلة، ربما كنتِ محقّةً. لكني مضطربٌ اضطراباً شديداً بحيث أني لا أدري ما أفعل، وغيري كان سَيَرْتبكُ مثلي أيضاً. لكن الشيطان، يا سيدي مرلان، الذي جاء وأخبر سيدي أن عليه انتظار «مونتيزينوس» ليتحدّثا في إزالة السحر عن السيدة «دولسينيه» لم نَرَه حتى هذه الساعة ولا رأينا إنساناً يُشبهه.

ـ أجاب مرلان: أيها الصديق سانشو، هذا الشيطان طائشٌ، وجاحدٌ فاقد الإيمان حقاً؛ أنا الذي أرسلتُه إلى سيّدك، لا «مونتيزينوس» الذي لم يخرج من كهفه حيث ينتظر نهاية سحره الذي لا يبدو قريباً. لكن إن كان مَديناً لك بمالٍ، أو إذا كنتَ ستطلب منه شيئاً فسآتي به إلى حيث تشاء. أما الآن، فأنا أنصحك بأن تنصاع لهذا الجَلْد الذي أَمرنا به. وافقْ على ذلك، يكفي أن تقول كلمةً واحدة لتُفْضِلَ على الجميع، وصدِّقني أن هذا الجلد سيكون نافعاً لك روحاً وجسداً: الروح لأنك تقوم بعملٍ مُحسِنٍ رحيم؛ والجسد لأنني أعلم أن بنيتك الجسدية دمويةٌ وساخنة ولا خطرَ عليك من سحب بعض دمك. .

ـ أجاب سانشو: آه! آه! الواقع أن هذا حسن؛ فليس في العالم ما يكفي من الأطباء، ولا بدّ للسحرة من أن يتعاطوا الطبَّ. وبما أن الجميع يرون هذا الجَلْدَ مناسباً، مع أني لا أرى رأيَهم، فأنا موافقٌ على جَلْد نفسي ثلاثة آلاف وست مئة جلدة، شريطة أن أَجلد نفسي متى شئت، لا أن يأتيني أحدٌ ويقول لي: افعلْ ذلك اليوم أو غداً، وسأَسعى إلى أن أفرغ بسرعة من هذه القضية، لكي يَسْتمتع العالمُ عمّا قريب بجمال السيدة «دولسينيه» التي هي في الحقيقة أجمل ممّا ظننتُ. أَحبّ أيضاً أن أَضَعَ شرطاً في هذه السوق وهو أني لستُ مُكرهاً إلى أن أَجلد نفسي حتى

http://www.ithar.com

أَدْمي، وإذا كانت بعضُ الضربات لا تُصيب فيجب عدّها مع ذلك؛ وأيضاً؛ إذا أخطأت في العَدّ فيجب أن ينتبه السيد «مرلان» الذي يَعْرف كلّ شيء إلى ذلك وأن يقول لي إذا زدتُ أو أَنْقصتُ.

ـ أجاب مرلان: لا مجال للكلام على الزيادة، لأن العدد إذا بلغ التمامَ زال السحرُ عن السيدة دولسينيه على الفور، وذهبتْ إلى السيد سانشو لتشكره على ذلك ولتعبّر له عن امتنانها بهدايا وافرة. فلا تُبالِ إذنْ بالزيادة أو النقص، فتلك مسؤولية ضميري، ولا سمحَ الله أن أخدع أيّاً كان ولو في رأس دبوس.

ـ قال سانشو: وإذن يجب أن أوافق أنا نفسي على هذه المغامرة السيئة؛ وأنا أهلٌ لأن أشنقَ نفسي إرضاءً للآخرين. حسناً، يا سادتي، قبلتُ هذا الجَلْد بالشروط التي ذكرتُها، بالطبع.

لم يكد سانشو يلفظ الكلمات الأخيرة حتى استُؤنفت الموسيقى مع رميتين أو ثلاث للمدفعية وارتمى دون كيشوت على عنق سانشو فطوّقه وقبّله مئة مرة في جبينه ووجنته. وأبدى له الدوقُ والدوقةُ وسائر الصيادين فرحهم بانصياعه للعقل، وأخذت العربةُ تتحرك وحَنَتْ دولسينيه الجميلة رأسها أمام الدوق والدوقة كما انحنتْ انحناءةً عميقةً احتراماً لمحرّرها.

في هذه الأثناء، أخذ الفجر يُلقي ذهَبَه على قمم الجبال، وكان الدوق والدوقة راضيين عن صيدهما وعن النهاية السعيدة لخطَّتهم، وفي نيتهما أن يتابعا هذا المزاح الذي أمتعهما كثيراً.

• • •

http://www.ithar.com

# «الأشياء العظيمة التي عملها سانشو في أثناء حكْمه»

لم يكفّ المرافقُ المسكين عن اعتبار نفسه أسوأَ الناس حظاً، وكان يشكو إلى الدوقة من أنه مُضطَرّ إلى جَلْد نفسه، بينما كان يأمل أن يذهب عما قريبٍ إلى جزيرته. وأصبحت شكاواه صاخبةً ومُزعجة، حتى تقرّر أن يُوضَع حدٌّ لذلك وأن يُرَفَّع على الفور إلى مرتبة حاكمٍ. وما أن تلقّى هذا النبأَ حتى استبدّ به الفرحُ، وانفرد بسيّده ليتعلم منه الفنَّ الصعبَ، فنَّ الحُكم.

بعد أن تناول دون كيشوت عشاءه، كتبَ التعليمات التي أراد أن يبلِّغَها سانشو، وأن يضعها بين يديه، قائلاً له إن كل ما عليه هو أن تُقرَأَ هذه التعليماتُ عليه عندما يشاء. لكن سانشو لم يكد يُمسك بالورقة حتى سقطتْ منه ولمّها أحدُهم وسلّمها إلى الدوق والدوقة اللذين تعجّبا من عقل فارسنا وجنونه؛ ولكي يستمرّا في تلك اللعبة التي وفّرت لهما الكثير من السرور، أرسلا في المساء نفسه سانشو مصحوباً بحاشية كبيرةٍ من الناس وبعدّةٍ جميلة، إلى جزيرته المزعومة. والذي عُهِد إليه برفقته كان وكيلاً لبيتهما، وهو رجل ذكيٌّ ونبيه يحب الضحك.

حانت ساعة السفر، فخرج سانشو بصحبة عددٍ من المرافقين، وعليه

http://www.ithar.com

معطفٌ طويل من الصوف المدبوغ المتموج، وقبّعةٌ أو قلنسوةٌ مقرّنة من اللون نفسه، وقد اعتلى بغلةً خفيفة السرج. وكان يتبعُه حماره الذي جُلل بعُدّة الحصان المزركشة المزدانة بقماشٍ قرمزي. وكان سانشو يلتفت من وقتٍ إلى آخر ليتأمّل الحمار، وهو مسرورٌ من الحالة التي رآه فيها ومن حالته هو نفسه؛ وما كان ليرضى بامبراطورية المانيا بديلاً عنها. استأذن الدوقَ والدوقة، ثم مضى حزيناً وقبّل فخذَ سيّده الذي باركه وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

وصل أخيراً حاكمُنا الفاضلُ بعد أن سار بعض الوقت مع حاشيته إلى هذه المدينة الصغيرة التي يقطنها حوالي ألف نسمة، وهي من أحسن المدن التابعة للدوق. قيلَ له إن هذه هي جزيرة «باراتاريا»، لأن المكان يُدعى «باراتاريو»؛ أو بسبب قلة كلفة الحكم بالنسبة إليه، لأن «باراتو» تَعْني: رخيص. وما ان وصل إلى أبواب المدينة التي كانت مغلقةً بأسوارٍ متينة، حتى استقبله الأهالي بالسلاح، على أصوات أجراس الكنائس، مُظهرين جميعاً الفرحَ والرضا العام؛ ورُفع بأبّهةٍ وكأنه جسدٌ مقدّس، وحُمل على الأكتاف إلى الكنيسة الكبرى، وبعد أن قدّم الشكرَ لله، سُلِّمت إليه مفاتيحُ المدينة باحتفالٍ يليق بالموضوع وبسانشو بانسا؛ وهكذا غدا الحاكمَ الأبديَّ لجزيرة باراتاريا، وأدّى الجميعُ له يمينَ الإخلاص. أدهش مظهرُ الحاكم الجديد وهيئتُه ولحيتُه الكثّة، وجثّتُه الضخمة والقصيرة والعُدّة التي معه، جميعَ الذين لم يكونوا يعلمون شيئاً عن القضية، والذين سمعوا عنها لم يكونوا أقلّ دهشةً من الآخرين. عند الخروج من الكنيسة؛ ثم اقتيد إلى مقرّ العدالة حيث جلس بصفته قاضياً أعلى، وقال له وكيلُ الدوق: «هاهنا، يا سيدي، عادةٌ قديمةٌ تقضي بأن يكون الحاكم الذي

http://www.ithar.com

يُمَلَّكُ الجزيرة مُكرَهاً على الجواب عن سؤالٍ صعب يُلقَى عليه لامتحان صحة عقله وحسن فهمه؛ وللشعب أن يُقرّر من خلال الجواب إن كان عليه أن يبتهج أو يحزن لمجيء هذا الحاكم.



بينما كان الوكيلُ يتكلم، كان سانشو يلهو بالنظر إلى شيءٍ مكتوبٍ بحروفٍ كبيرة على الجدار، مقابل مقعده؛ ولمّا كان لا يَعْرف القراءة، سأل عن معنى هذه الرسوم التي على الجدار. أجابه أحدُهم: يا سيدي، لقد سُجِّل اليومُ الذي عُهِد به إليك بهذه الجزيرة. لقد كُتِبَ على هذه اللافته: «اليوم، بالتاريخ الفلاني والشهر الفلاني والسنة الفلانيّة، صارت هذه الجزيرةُ في حوزة السيد «دون سانشو بانسا»، عسى أن يستمتع بها مزدهرةً لسنين عديدة!»

ــ سأل سانشو: ومَنْ الذي يدعونه سانشو بانسا.

ــ قال الوكيل هو سيادتُك، ولم يشغَلْ أيُّ بانسا آخر هذا المكانَ الذي أنتَ فيه.

ــ قال سانشو: أُعلمُك، يا صديقي، أنني لن أقبل بلقب «دون»، فلا أحد من سلالتي اتّخذ هذا اللّقبَ، واسمي هو سانشو بانسا فقط.

http://www.ithar.com

جدّي الأول كان يُدعى بانسا، وجميع الذين سبقوني كانوا يُدْعَوْن بانسا بغير لقب «دون» وبغير «سيادة». وأنا واثقٌ أن في هذه الجزيرة من «الدونات» بقَدْر ما فيها من الأحجار. لكنْ صبراً، واللهُ شاهدٌ لأنه يسمعني؛ لو أن هذا الحكم لم يَدمْ غير أربعة أيام فقط، فأنا أنوي أن أبدّد هذه الدونات كما يُبَدِّدُ الذبابُ الثقيلُ الظِلِّ. أما الآن فاطرحوا عليّ السؤال الذي تُريدون، أيها السيد الوكيل، وسأجيب عنه بأفضل ما أستطيع، دون أن أكترث لابتهاج الشعب أو حزنه. في اللحظة نفسها دَخَل رجلان لينضمّا إلى الحضور، كان أحدهما يرتدي ثياب الفلاح، والآخر عُرِف أنه خياطٌ من المقص الذي كان في يده. قال الخياط: سيدي الحاكم، جئنا أنا وهذا الفلاح لنَعْرض أمام سيادتكم الواقعة التالية: جاء هذا الرجل أمس إلى دكاني لأني خياطٌ مُحلَّف بمشيئة الله، إلا إذا عدّلتم ذلك أنت أو جمعيةُ الخياطين؛ ووضع بين يديّ قطعةً من الجوخ الأسود وقال لي. هل هذا القماش كافٍ لتخيط لي برنساً؟ نظرتُ إلى القماش وأجبتُه بـ «نعم». كان يتصور، على ما أتصوّر، وأعتقد أن تصوّري صحيح، أنني ربما اشتهيت أن أسرق جزءاً من قماشه لأن هذا هو خبثُ الناس وسوء ظنّهم بالخياطين؛ وطلبَ مني أن أُمعن النظر في قطعة القماش لعلها تصلح لصنع برنسين؛ أدركتُ فكرة الشيخ وأجبته أنْ نعم، واستمرّ هو في سوء نيته فسأل إن كان يمكن أن يُصنَع من القماش أكثر من برنسين، فقلتُ نعم، وظللت أقول نعم حتى اتفقنا على أن أصنع منها خمسة برانس. والآن، بعد أن فرغتُ من الخياطة وطلبت أجرتي، طالبني هو بثمن قماشه أو بردّه إليه.

ـ سأل سانشو الفلاحَ: أكان الأمرُ كذلك؟

http://www.ithar.com

ـ أجاب الفلاحُ: نعم، يا سيدي، لكن مُرْ، أرجوك، بأن يُريكَ البرانس التي صنعها لي.



ـ قال الخياط: أوه! بطيب خاطر.

وعلى الفور، أخرج بيده التي خبّأها داخل معطفه، خمسة برانس صغيرة على أطراف أصابعه، قائلاً: «ها هي ذي البرانس التي أوصى عليها هذا الرجل، وقسماً بالله وبضميري، لقد استخدمتُ بأمانةٍ القماشَ كله، وَلْيُعْرَضْ ذلك على الخبراء». أخذ الجميعُ يضحكون عندما رأوا عددَ البرانس وجدّة الدعوى. فكر سانشو ملياً في ذلك ثم قال: يبدو لي أن هذه الدعوى لا تستحقّ الفحصَ الطويلَ، ولا حاجة إلى الأخذ والردّ فيها؛ وأنا آمر أن يَخْسر الفلاحُ قماشَه والخياطُ أُجرتَه، وأن تُسلَّم البرانس إلى السجناء؛ ولا أقبل الردّ عليّ». ضحك جميعُ الحاضرين من هذا الحكم، ونُفِّذ الحكمُ.

http://www.ithar.com



بعد ذلك تقدَّم شيخان يحمل أحدهما عصاً غليظة في يده كان يتكّىءُ عليها، وقال الآخر لسانشو: يا مولاي، أقرضتُ منذ بعض الوقت هذا الرجلَ عشرة ريالات ذهبية، لسدّ حاجته، شريطةَ أن يُعيدها فور طلبي لها. وقد مرّتْ عدةُ أيام ولم أطلبها خوفاً من إحراجه؛ لكن بما أني رأيتُ أنه لا يريد تسديدها، طالبتُه بمالي عدة مرات، فلم يكتفِ بأنه لم يدفع لي، وإنما أَنكر الدين، وقال إني لم أُقرضه شيئاً، أو إذا كنتُ قد أقرضتُه فإنه أَعاد إليّ المبلغ؛ لكن ليس لدي شاهدٌ على الإقراض وليس عنده شاهدٌ على الدَفْع، وأرجو، يا مولاي أن تُحلِّفه اليمين، وسأصدّقه على يمينه، وإذا حَلَفَ اليمين فسأعطيه المبلغ منذ الآن والله شاهدٌ عليّ.

ــ قال سانشو: ما ردُّك على ذلك، أيها الرجل؟

أجاب الشيخُ: أعترف بأنه أعطاني عشرة ريالات ذهبية، وبما أنه أَوكل الأمر إلى قسمي، فأنا مستعدٌّ أن أُقسم بأنني أعدتُها إليه كاملةً وبإخلاص».

أمره الحاكم برفع يده، فرفع يده بعد أن أعطى الآخر عصاه وكأنها تُربكه. ووضعَ يده على الصليب، كما هي العادة في اسبانيا وقال:

http://www.ithar.com

«أعترف بأنني تسلّمتُ عشرة ريالات ذهبية لكني وضعتُها بين أيدي هذا الرجل، ولأنه لا يتذكّر ذلك فهو يطالبني بها من وقتٍ إلى آخر.



سأل الحاكمُ العظيمُ الدائنَ إن كان لديه ما يردّ به على خَصْمِه، فقال إنه لا بد أنه قال الحقيقة بعد أن حلَف اليمين، وهو يعتبِره رجلَ خيرٍ ومسيحياً صالحاً، وإن كان لا يذكر أنه قد استوفى الدَيْنَ، وأنه لن يُطالبه منذ الآن بشيء. استعاد المَدين عصاه، وخرج من الجلسةِ مُسرعاً.

لاحظ سانشو أن هذا الرجل انصرف دون أن يقول شيئاً، فأُعجِبَ بصَبْر المُدّعي. وفكّر في نفسه، وفجأةً عضّ طرفَ إصبعه وأَمَر بإرجاع الشيخ الذي انصرف. فجِيءَ به على الفور، وما إن ظهر حتى قال له سانشو: «أعطني عصاكَ قليلاً، فأنا بحاجةٍ إليها». ـ قال الشيخ: «ها هي

http://www.ithar.com

ذي، يا مولاي» فأخذها وأعطاها الشيخَ الآخر وقال: اذهب، فقد سُدِّد لكَ دَيْنُكَ الآن. فأجابه الشيخ المسكين: مَنْ؟ أنا؟ يا مولاي! وهل تساوي هذه العصا عشرة ريالات ذهبية؟

ــ أجاب الحاكم: نعم، نعم، إنها تساوي عشرةَ ريالات، وإلا فأنا أكبر أحمق في العالم، وسيرى الناسُ بعد قليل إن كنتُ عارفاً بشؤون الحكم. لِتُكْسَرْ العصا».



وكُسِرت العصا، فخرج منها حينئذٍ عشرةُ ريالات ذهبية. ولم يبقَ أحدٌ من الحاضرين إلا نظر إلى السيد الحاكم على أنه «سليمان» جديد، وسُئِل كيف عرف أن الريالات كانت في العصا، فقال: «ذلك لأني رأيت الذي يَحملها قد وضعها دون ضرورة بين يديْ خصمه في أثناء قسمه ثم استردّها بعد ذلك».

http://www.ithar.com

انصرف الشيخان وأحدهما مسرورٌ جداً والآخر خَجِلٌ، والذي كان مكلّفاً أن يكتب كلمات سانشو وأفعاله حار. بعد أن تفحّصه، هل ينبغي أن يكتب عنه كرجل مجنون أو كرجل حكيم.

انتهت الجلسةُ، وحُمِل سانشو إلى قصرٍ فخمٍ، حيث وَجَد المائدةَ جاهزةً في صالةٍ كبيرةٍ مؤثثةٍ تأثيثاً فاخراً. وما أن دخل حتى عزفت طائفةٌ من المزامير والآلات الأخرى أنغاماً مُفرحةً في حين كان يُقدَّم الطعام، وجاء أربعةٌ من الخدام يحملون ماءً للغسل، فتلقّاهم بوقار الحاكم. ثم توقّفت الموسيقى. وجلس سانشو إلى المائدة وحيداً، وهي لم تُعَدّ إلا لمدعوّ واحد ووقف بجانبه رجل، عُرِف فيما بعد بأنه الطبيب، وكان يَحْمل في يده عصا صغيرة، وفي الوقت نفسه رُفعَ الغطاءُ الذي كان يُغطي أطباقاً ملأى بالفواكه وبشتّى أنواع اللحوم. بارك الكاهنُ الطعام، ووضع خادمٌ لسانشو فوطةً مطرّزةً بتخريمات، وقَدّم له رئيسُ الخدم طبقَ الفواكه. فمدّ الحاكم يده إليه، لكنه لم يكد يذوقه حتى خفضَ الطبيبُ قضيبه، فرُفع الطبقُ على عجل. فوضع رئيسُ الخدم طبقاً آخر مكانه على الفور، ولما أراد الحاكم أن يذوقه، مرّت العصا فوقه، فحُمِل الطبقُ بالسرعة نفسها التي حُمِل بها الآخر. دُهش سانشو من هذه الحركات فنظر إلى الجميع وسأل ما هذا، وهل يتناول الناسُ طعامَهم في الجزيرة بأعينهم. أجاب الطبيبُ: «يا مولاي، لا يأكل الناسُ هنا إلا بحسب عادة الجزر الأخرى التي فيها حكامٌ. أنا طبيبٌ، يا مولاي، في خدمتكَ، وأنا مُعيّنٌ في هذه الجزيرة لأكون طبيب الحاكم. فأنا أعتني بصحته أكثر من صحتي، وأنا اجتهد، من أجل ذلك، في الدراسة ليلاً ونهاراً، محاولاً أن أعرف مزاجه جيداً، كي أحسن علاجه في مرضه؛ ومن أجل هذا الموضوع أساساً،

http://www.ithar.com

أَحْضُر طعامه لأَمنعه من أكل الأشياء الضارة بصحته. ولذلك أمرتُ برفع طبق الفاكهة لأنه شديدُ الرطوبة، وطبق اللحم لأنه ساخنٌ للغاية وكثير التوابل التي هي لاذعةٌ وباعثةٌ على العطش، لأن الذي يشرب كثيراً يَسْتنزف ويخنق الرطوبة الأصلية التي هي مبدأ الحياة.

ــ أجاب سانشو: على هذا الأساس، أستطيع أن آكل من هذا الحجل الذي شُوِيَ شيّاً مُشهّياً.

ــ أجاب الطبيب على الفور: كلاّ، بعد إذنك، يا مولاي. وَقَاكَ اللهُ من الحجل، وأنا لا أستطيع تحمّل ذلك!

ــ قال سانشو: ولماذا؟

ــ أجاب الطبيب: ذلك لأن معلمنا العظيم أبو قراط، يقول في حِكَمه السائرة:

Omnis saturatio mala, perdieum autem pessima

أي إن كل شَبَعٍ فهو شرٌّ وأسوأ الشرور ما يأتي من الحجل.

قال سانشو: إذا كان الأمرُ كذلك، فَلْيَنْظرْ السيدُ الطبيب إلى كل ما يُؤْكَل، وما هو نافعٌ وما هو ضارٌ لي، ثم يتركني آكل دون أن يتلاعب بعصاه فوق الأطباق؛ لأنني، في النهاية، أكاد أموت من الجوع، ومما يكنْ رأيُ الطب فإن منعي من الأكل هو سَعْيٌ إلى موتي.

أجاب الطبيب: سيادتُكَ على حق؛ ولذلك فإني أرى أن تُرفَع هذه الأرانب الصغيرة لأن لحمها أرضي وكئيب. وما ينبغي أن تأكله سيادتُك،

http://www.ithar.com

في الوقت الحاضر لِتحافظ على صحتك وتقوّيها، هو نحو اثني عشر قرناً من الحلوى المقمّعة، مع بعض شرائح السفرجل فهي شفاءٌ للصدر ومسهّلةٌ للهضم.

بعد أن أصغى سانشو إلى هذا الخطاب ورأى أن الطبيب كفَّ عن الكلام، أَسند ظهره إلى كرسيّه، وتأمّل الطبيب بإمعان وسأله ببرودة عن اسمه وأين درس. فأجاب: اسمي، يا مولاي، «بيدرو ريزيو دي اغويرو»، وأنا من مواليد قرية «تيرتيفويرا» وهي واقعةٌ بين «كراكل والمدوّر ديل كامبو» مع مَيْلٍ إلى اليمين. وحُزْتُ على لقب دكتور من جامعة «اوسون».

قال سانشو: أنا مسرورٌ بذلك.

وأضاف وهو ينظر إلى الطبيب بعينين تفيضان بالغضب:

ـ حسناً أيها السيد الطبيب «بيدرو ريزيو دي اغويرو» من تيرتيفويرا الواقعة بين كراكل والمدور ديل كامبو، أخرج من هذه الغرفة، في الحال؛ وإلاّ فأنا أقسم أني لو لقيتُ حبلاً لشنقتُكَ به على الفور أنت وجميع الأطباء في الجزيرة، على الأقل، الجَهَلة منهم، أما العلماء والرزينون منهم فأنا أكرّمهم وأقدّرهم».

ارتعبَ الطبيبُ فعلاً من غضب الحاكم وتهديداته، فأراد أن يتّجه إلى الباب لولا أن سمع في الوقت نفسه صوت بُوَيْق حوذيّ من الشارع؛ وعندما نظر رئيسُ الخدم من النافذة قال: هذا رسولٌ من مولانا الدوق، لا بد أن ثمةً قضيةً ذات أهمية. دخَلَ الحوذيّ والعرقُ يسيل منه وقد

http://www.ithar.com

انقطعتْ أنفاسُه وأخرج من عبّه سفطاً قدّمه للحاكم الذي وضعه بين يدي الوكيل، وأَمره أن يرى إلى مَنْ هو موجّه. وقرأَ الوكيل ما كُتِب عليه. كانت الكتابةُ تقول: «إلى دون سانشو بانسا حاكم جزيرة «باراتاريا»، يُسلَّم باليد، أو يُسلَّم إلى أمين سرّه.

ـ سأل سانشو: ومَنْ هو أمينُ سرّي؟

ـ أجاب شابٌّ: أنا، يا مولاي. وأنا أعرف القراءة والكتابة، وأنا في خدمتك.

نظر أمينُ السر الجديدُ في الرسالة، وقال للحاكم إن فيها قضية يجب التحدّثُ فيها سرّاً. أومأ سانشو إلى الجميع كي يخرجوا ما عدا الوكيل ورئيس الخدم؛ وقرأ أمينُ السر الرسالةَ التالية:

«لقد علمتُ، أيها السيد سانشو بانسا، أن بعض أعداء جزيرتكَ وأعدائي قرّروا مداهمتك في ليلةٍ من هذه الليالي؛ يجب أن تَسْهر وتأخذ حذرك لكي لا تُهاجَم على حين غرّة. كما علمت أيضاً من الجواسيس الموثوقين أن أربعة رجالٍ متنكّرين دخلوا مدينتكَ ليَطْعنوك لأنهم يخشون عقلَك وسلوكك. مُرْ إذن بالحراسة اليقظة، ولاحظْ بعنايةٍ جميعَ الذين يكلّمونك، ولا تأكلْ شيئاً ممّا يُقدَّم إليك، خوفاً من الخدعة. وأنا على استعدادٍ لأرسل إليك النجدةَ إن لزِم الأمرُ. وداعاً. وأنا أُفوِّض الأمور إلى حذرك وذكائك في هذه القضية.

في ١٦ آب، نحو الساعة الرابعة صباحاً.

صديقك الدوق.

http://www.ithar.com



دهش سانشو من هذا النبأ، وقال للوكيل: ما يجب فعله الآن ودون إضاعةٍ للوقت، أيها السيد الوكيل، هو أن نضع الدكتور «ريزيو» في غياهب السجن، مقيَّدَ اليدين والرجلين. وإذا كان ينوي أحدٌ أن يعتدي على حياتي فلا يمكن أن يكون غيره، وقد أظهر لي بوضوح أنه يريد أن يُميتني من الجوع. وفي هذه الساعة، أعطوني فقط قطعة خبزٍ وطبقَ عنب؛ إذ لا يخطر لأحد أن يُسمّمهما: لأنني لا أستطيع، في نهاية المطاف، أن أستغني عن الطعام، وإذا كان لا بد من الإستعداد للمعركة فيجب أن نتغذّى. وأنت، يا أمين السر، اكتب إلى السيد الدوق وأَعْلِمْه أننا سنفعل كلَّ ما يأمر به دون أن نُخِلّ بشيء.

http://www.ithar.com

بينما هو يتكلم دخل خادمٌ وقال له، يا مولاي، هاهنا فلاحٌ يريد أن يكلّم سيادتك في قضيةٍ هامة. أجاب سانشو:

ــ أوه! لا شك أن رجال الأعمال هؤلاء ثقالٌ. أمن الممكن أن يكونوا حمقى إلى هذا الحد فلا يدركون أن هذه الساعة ليست ساعة الكلام على الأعمال: هم يتصوّرون أننا نحن الحكام ورجال القضاء لسنا مَجْبولين كغيرنا، وأننا رجال من الحديد أو من المرمر لا حاجة بهم إلى الراحة. هؤلاء الناس يُضيّعون وقتي، في آخر الأمر؛ وإذا استمرّ هذا الحكمُ بعضَ الوقت أيضاً، وهو ما لا أعتقده، فيمكن أن آمر بتأديب أحد هؤلاء المتخاصمين. قولوا لهذا الفلاح الفاقد الإيمان أن يُغرب عن وجهي، وقولوا لرئيس الخدم أن يُقدَّم لي عشائي لأني لستُ حاكماً لأموت من الجوع والاضطراب.

كان الدكتور «بيدرو ريزيو» الذي لم يبادرْ أحدٌ إلى حَبْسه، قد وعد الحاكم بأن يُقدّم له عشاءً فاخراً في المساء، ولو خالف جميع حِكَم «أبو قراط»؛ فأنساه هذا ضغينته عليه؛ وعندما جاء المساءُ الذي طال انتظاره، قُدِّمت له قطعةُ لحمٍ بقريّ بالبصل، مع قَدَميْ عجل، أضخم قليلاً ممّا ينبغي أن يكونا عليه. فنظر الحاكمُ الصالحُ إلى ذلك بفرح، وهجم عليه بنهَمٍ وكأنه الحجل أو الدجاج البرّي؛ وفي وسط الطعام التفتَ إلى الدكتور وقال له: «كما ترى، أيها السيد الدكتور، لا يجب أن تهتموا منذ الآن بتقديم الأطعمة الناعمة لي، لأنني بذلك أُكره معدتي على ما لم تتعوّده؛ وما يناسبها هو لحم البقر والشحم واللفت والبصل، وإذا ما قُدِّمت لها، بطريق المصادفة، لحومٌ أخرى من دواجن البيوت فهي تتلقاها باشمئزاز، وكثيراً ما ترفضها. وإذا حان موعدُ التفتيش على العسس فعليكم تنبيهي

http://www.ithar.com

لأنني أنوي تطهيرَ هذه المدينة من جميع أنواع المتشرّدين والخاملين؛ لأنكم تعلمون، يا أصدقائي أن العاطلين عن العمل والمتسكّعين هم بالنسبة إلى الدولة كالزنبور الطفيلي بالنسبة إلى النحل؛ فهذا الطفيلي يأكل ويبدّد ما جَمعَه النحل بكثيرٍ من الجهد. وأنا أزعم أني سأحمي الفلاّحين والعاملين اليوميين؛ وأحافظ على امتيازات النبلاء؛ وأكافىء الذين يفعلون أفعالاً حسنة؛ وأَعمل على أن يحترم الجميعُ الدين ويكرّموا رجالَ الكنيسة؛ فما رأيكم بذلك، يا أصدقائي؟ هل ما أقوله حسنٌ أو سيّءٌ، أم لعلّي أكسّر رأسي بغير فائدة؟

ــ قال الوكيل: مولاي الحاكم، ما تقوله حسنٌ جداً، وأنا شديدُ التعجّب من أن أرى رجلاً مثلك لا يَعْرف القراءة ولم يُحصّل علماً، وأعتقد أنك لا تتباهى بذلك، يمكن أن يقول مثلَ هذه الأشياء الممتازة، سواء بالأَحكام أو بالكلام. ولا شك أن الذين أرسلوك إلى هذا المكان والذين لقيتَهم فيه لم يكونوا يتوقّعون ذلك مهما يكنْ رأيُهم في صلاح عقلك؛ وهكذا نجد في كل يوم أشياءَ جديدة.

بعد أن تناول الحاكم عشاءً وافراً بإذن الدكتور، خرج ليفتّش على العسس، وبرفقته الوكيلُ، وأمين السر، ورئيس الخدم والمؤرخ الذي كُلِّف كتابة أفعاله؛ كان يسير في وسط الجميع وبيده عصا القيادة. ولم يكادوا يزورون شارعين حتى سمعوا صليل السيوف. فهُرعوا إلى المكان، ورأوا رجلين يتقاتلان، فلما علموا أن الآتين رجالُ العدالة توقّفا، وصاح أحدُهما: «هل ينبغي أن نرى السارقين يسرقون في وضَحِ النهار والقاتلين يقتلون في وسط الشوارع؟

http://www.ithar.com

ـ قال سانشو: قفْ، أيها الرجل الصالح، وأخبْرني عن سبب المشاجرَة؛ أنا حاكمكم.

ـ قال الآخر: يا مولاي الحاكم، سأخبرك عن ذلك بكلمتين: إن هذا النبيل ربح في بيتٍ للقمار هنا أكثر من ألف ريال؛ كنتُ شاهداً على ذلك، والله يعلم كم مرة حكمْتُ لمصلحته وضدّ ضميري، فلما نهض ومعه ربحُه كنتُ آمل أن يعطيني بعض المال، كما جرت العادةُ أن يُقدَّم للأشخاصُ المرموقين الذين حضروا للحكم على صحة اللعب ولمنع المشاجرات، لكنه صرَّ مالَه وخرج دون أن ينظر إليّ. فركضتُ خلفه وأنا غاضب على طريقته، ورجوتَه بألفاظٍ مهذّبةٍ أن يُعطيني خمسة ريالات أو ستة، لأنه يعلم أنني رجلٌ لي مكانتي، وأنا بلا وظيفة ولا مَرْبح، ولا أبٍ ولا أمٍّ، ولم يُعطني هذا الشحيح أكثر من أربعة ريالات. كُنْ حكماً بيننا، يا سيدي الحاكم؛ يا للعار ويا للحقارة! ولو لم تأتِ لاستعدتُ ما استولى عليه ولعلّمتُه كيف يهزأ من أَهل الكرامة.

ـ سأل سانشو الآخر: ما ردُّكَ على ذلك؟

فأجاب أن كلّ ما قاله خصمُه حقيقي، وأنه لم يشأ أن يعطيه أكثر من أربعة ريالات لأنه كثيراً ما أعطاه فوق ذلك، وأضاف: «فضلاً عمّا بدا لي من أن الذين يطلبون يجب أن يكونوا مهذّبين وأن يقبلوا بحبورٍ ما يُقدَّم إليهم، دون مساومةِ الذين ربحوا، مالم يكونوا متأكّدين من أنهم غشّوا في اللعب. والدليل على أنني لستُ غشّاشاً، ولا أنا كما يزعم هذا الرجل، هو أنني رفضتُ أن أعطيه شيئاً، لأن الغشاشين يخضعون دائماً للذين رأوهم وهم يغشّون ويسكتون على غشّهم.

http://www.ithar.com

ـ قال الوكيلُ: هذا حقّ يا سيدي، وماذا يَحْسُن، لدى سعادتك، أن تفعل بهذين الرجلين؟

ـ قال سانشو: ما يَحْسُن أن تفعله هو التالي: أنتَ أيها الرابح، في اللعب الشريف أو المغشوش، أَعطِ على الفور، خصمَك مئة ريالٍ، وخمسين ريالاً أخرى للسجناء؛ وأنتَ الذي لا يَمْلك وظيفةً ولا مَرْبحاً، ويقضي ليله متسكّعاً في هذه الجزيرة، لسببٍ لا يعلمه إلا الله، خُذْ هذه الريالات المئة، واخرجْ من هذه الجزيرة غداً صباحاً، ولا تَعُدْ إليها قبل عشر سنوات، إذا شئتَ ألا تَفْقد حياتَكَ؛ وأنا أقسم أنني إن وجدتكَ في هذه الجزيرة فسوف أشنقك رأساً في مشنقة تليق بك، أو على الأقل سيشنقك الجلاّدُ بأمري. ولا ينبغي أن يراجعني أحدٌ في ذلك وإلا لقيَ عقابه. «نُفِّذ الحكمُ على الفور، على قَدْر الإمكان، وتابع الحاكم كلامه قائلاً: «إمّا أن أكون ولا سلطةَ لي، وإما أن أُزيل جميعَ أماكن القمار حتى لا يُقال إنه قد وُجدت بيوتٌ للفوضى طوال كوني حاكماً».

بيد أن الذين كانوا هنا من قِبَل الدوق قرّروا أن يضعوا حدّاً لحُكم سانشو؛ أما هو فقضى بعد الظهر يُصدر للشرطة الأوامر المتّصلة بحكم الجزيرة. فمنَعَ فَتْحَ الحانات، لكنه سمَحَ بدخول النبيذ البلدي بشتى أنواعه شريطة أن يُصرَّح عن مصدره لكي يوضَع السعرُ المناسبُ لجودته ولتقدير الناس له؛ وأمر أن يُحكَم بالإعدام على من يخلط النبيذ بالماء أو من يُغيّر اسم المصدر. وخفَضَ أسعارَ جميع أنواع الأحذية التي بدتْ له مفرطة الغلاء. ووضع ضريبةً على أجور خدم القصور التي رأى أنها عالية. وقضى بعقوباتٍ شديدة على جميع الذين يغنّون أمام الجمهور أغاني متحلّلة. وأوجد شرطةً للفقراء، لا لطَرْدهم، وإنما لكي تتحقّق من

http://www.ithar.com

فقرهم، لأنّ بين الذين يتظاهرون بأنهم مشلولون أو مصابون بالصرع، لصوصاً وسكّيرين؛ وبكلمة واحدة، أَصدر أوامر عادلةً جداً ونافعة جداً ما زال الناس يراعونها حتى اليوم في هذا المكان، وهي تُدعى: دساتير الحاكم العظيم سانشو بانسا.

● ● ●

http://www.ithar.com

# «نهاية حكم سانشو بانسا»

يقول السيد حامد، الفيلسوف المسلم: لا شيءَ باقٍ على حاله في هذا العالم: الفصولُ يَطْوي بعضُها بعضاً؛ والوقت يمرّ ويتجدّد بلا انقطاع؛ والنهار يَعْقب الليل، والظلمات تتلو النور؛ هناك حركةٌ مستمرة وتغيّرٌ أبديّ كامل؛ لكن حياة الإنسان وحدها هي التي تتأثّر بهذا التقلّب، دون أن تتجدّد؛ إلا أن يكون تجدّدُها في العالم الآخر. هذا التفكير الأخلاقي لا غَرَض له إلا نهاية حكم سانشو، الذي بدأ بدايةً موفّقة، ثم تبدّد وذهب أدراجَ الرياح حتى لكأنه حلمٌ، إذ لا يمكن أن يُعوَّل على الحسنات التي يَمُنُّ بها الحظّ.

كان حاكمنا في سريره، في الليلة السابعة من حكمه، يفكِّر، خلافاً لعادة الحكام، وهو أكثر شبعاً بالدعاوى منه بالطعام الفاخر، وأكثر انشغالاً بإنشاء الأنظمة والأوامر وبزيارة المدينة منه باللهو، كان يفكّر في استعادة قواه بالنوم بعد كل ذلك التعب، وأخذ يُغمض جفنيه عندما سمع ضوضاء مرعبة من الصراخ ومن قرع الأجراس، ممّا خيّل إليه أن جزيرته كانت تَغْرق في الهاوية. فجلس وأصاخ السمع إن كان يستطيع في هذا الضجيج المختلط أن يتبيّن ماذا يمكن أن يكون. فلم يستطع أن يَحْزر، وانضاف صوتٌ جديد من الأبواق والطبول إلى الصراخ والأجراس، فزاد من خوفه

http://www.ithar.com

ومن دهشته. ونهض مُجْفلاً، وركض إلى باب غرفته وليس عليه سوى قميصه. فرأى أكثر من عشرين رجلاً مقبلين من أحد الأبهاء يحملون مشاعل وقد جرّدوا سيوفهم وهم يصرخون: «إلى السلاح، إلى السلاح، أيها السيد الحاكم! الأعداءُ في الجزيرة، ونحن هالكون إذا لم تهبَّ إلى نجدتنا ببسالتك وتدبيرك». بهذه الصرخات دَنَوْا من الحاكم، وعرفَه أحدُهم فقال: احملْ سلاحكَ على عجلٍ، يا مولاي، وإلا هلكتَ أنت وكلّ مَنْ في جزيرتك من بشر».

ــ أجاب سانشو: ولمَ أحملُ سلاحي؟ وهل أَعرف ما السلاح؟ يجب الاحتفاظ بالسلاح لمولاي دون كيشوت دي لامانش الذي سيرمي بالأعداء في تلويحة يدٍ؛ أما أنا، فماذا سأفعل؟ وما أَعْجزَني، لأنني لا أفهم شيئاً من ذلك كله؟

ــ بادر أحدُهم إلى القول: آه، يا سيدي الحاكم! ما معنى ذلك! أتتركنا ونحنُ في ضائقةٍ؟ سنأتيكَ بالأسلحة الدفاعية والأسلحة الهجومية: احملْ سلاحك، وامضِ على رأسنا، كما يفعل القائدُ والحاكمُ.

ــ قال سانشو: هاتوا السلاح، والتوكّل على الله!

وعلى الفور ألبسوه درعين فوق قميصه، الأول من قدّام، والثاني في الخلف، ومرّروا ذراعيه بينهما وربطوا الدرعين بالحبال ربطاً محكماً، بحيث ظل الرجل بينهما غير قادر على الحركة، ولا حتى أن يَطْويَ ركبتيه ليمشي؛ ووضعوا في يده رمحاً اضطُرّ إلى الاتّكاء عليه ليقف. وبعد أن جهّزوه بهذه الطريقة رجوْه أن يسير على رأسهم وأن يقودهم لقتال الأعداء، قائلين إنهم واثقون من النصر إذا ظلّ قائداً لهم.

http://www.ithar.com



ـ أجاب سانشو: وكيف تريدون أن أمشي، وأنا لا أستطيع أن أَثْني ساقي مع هذه الألواح التي شبّكتموني بها. كل ما ينبغي أن تفعلوه هو أن تحملوني بقوة ذراعكم إلى مكانٍ ما أحرسُه برمحي أو بجسدي.

ـ قال أحدُ أفراد الجماعة: ما عليكَ إلا أن تمشي سيدي الحاكم، فالخوف هو الذي يمنعكَ لا السلاح، لكنْ أسرِعْ، فالضوضاء تزداد والخطرُ يتضاعف».

http://www.ithar.com

أراد سانشو المسكين أن يمشي، لكنه انقلب على قفاه، حينئذٍ أطفأ هـؤلاء السـاخـرون القُسـاةُ مشـاعلهـم، وأَحـدثـوا ضجـةً شبيهـةً بضجـة المتقاتلين، وداسوا جسد الحاكم المسكين مئة مرة، وهم يوجّهون ضرباتٍ شديدة بسيوفهم إلى درعيه، في حين كان المسكين يتكوّم على نفسه قدر المستطاع ليتفادى هذه العاصفة من الطعنات وهو ينضح عرقاً من الكَرْب الذي حلَّ به، ويدعو الله من كل قلبه أن يَخلِّصه من هذا الخطر ومن مهنة الحاكم. كان بعضُهم يتعثّر به، وكان البعض الآخر يسقط عليه، ووقف مهرّجٌ لئيمٌ فوقه، وظلّ واقفاً بعض الوقت، ومن موقعه هذا، قام بدور القائد لرفاقه، صارخاً تارةً: «أسرعوا إلى هناك، فالأعداء يقاتلون فيها»، وتارة أخرى «احرسوا الشبّاك وأغلقوا الباب؛ كسّروا السلالم؛ هاتوا القار والراتنج، واحملوا العلب والقدور المملوءة زيتاً يَغْلي ومدّوا السلاسل». وأخيراً حرص على تسْمية جميع آلات الحرب وجميع الأشياء المستخدمة في مدينةٍ محاصرة؛ وكانوا جميعاً يتحرّكون ويصرخون وكأنهم مرتبكون حقّاً.

في هذه الأثناء، كان الحاكم المسكين، ممدّداً على الأرض، تدوسه الأقدامُ وهو نصفُ ميت من الخوف، قائلاً في نفسه: عسى أن تكون المدينةُ قد احتُلّتْ وأن أرى نفسي ميتاً أو خارج هذا الكَرْب الرهيب!» ورَحمتْه السماءُ عندما كان أقلّ ما يكون توقّعاً لهذه الرحمة، وذلك عندما سمعهم يصرخون: ««النصر، النصر! تشجّعْ أيها السيد الحاكم، لقد انهزم الأعداءُ. وأضاف آخر: «وماذا تفعل هنا، يا مولاي؟ ألا تريد أن تَنْهض وتأتي لتَسْتمتع معنا بثمار النصر؟ ومن العَدْلِ أن تشاركنا في الغنيمة التي غنمتْهـا يـدُك التـي لا تُقْهَـر مـن الأعـداء. قـال سـانشـو الحـزيـنُ بفتـورٍ:

http://www.ithar.com



«أَنْهِضوني»؛ فلما أَنْهَضوه قال: «سَمِّروا العدوَّ الذي قتلتُه في جبينه، وتقاسموا بقاياه، ولا أطمح إلى شيءٍ منها... لكن إن كان لي بينكم صديقٌ فَلْيُعْطِني شيئاً من الخمر، لأنني أكاد أغيبُ عن الوعي، وبالله عليكم جفّفوا عرقي الذي بلّلني». فجفّفوه، وأعطوه خمراً، ونُزِع عنه سلاحُه؛ وعندما رأى نفسه حرّاً أراد أن يجلس على سريره، لكنه وقع كالمُغمى عليه من الخوف ومن التعب اللذين عاناهما. وأخذ الساخرون الذين دُهشوا ممّا أصابه يندمون على أنهم بالغوا كثيراً في لعبتهم؛ لكنهم ما لبثوا أن تعزّوا لأنهم رأوا الحاكم يصحو من إغماءته ويسأل كم الساعة، فلّما أجابوه بأن النهار قد طلع أخذ يرتدي ثيابه دون أن يفوه بكلمةٍ أخرى، وأدهش الحاضرين بالسرعة التي فعَل بها ذلك حتى لم يعرفوا كيف

http://www.ithar.com

يفسّرون صحته. وأخيراً انتهى من ارتداء ملابسه بكثير من الجهد لفَرْط تَعَبه؛ وفي الوقت نفسه ذهب إلى الاسطبل، دون أن يقول شيئاً، وتبعه جميعُ الحاضرين، ثم دنا من حماره فعانقه، وقال له والدموعُ في عينيه: «تعال، يا صديقي، يا رفيقي الأمين ويا عزائي من تعبي ومن شقائي: عندما كنا نسير معاً مُتفاهميْن، لم أكن أفكّر في شيء إلا في العناية بك وبعدّتك. وكنتُ عظيمَ الفرح والسكينة. لكنْ منذ أَنْ تركتُك ووضعتُ قدمي على سلَّم الطموح والكبرياء لم يجدْ فكري سوى الهموم والضجر؛ وما نابني سوى التعب والشقاء».



بينما كان سانشو يُحدِّث حماره هكذا، وضع عليه بردعته، واعتلى ظهره، وخاطب الوكيلَ، ورئيسَ الخدم، والدكتور وجميع الحاضرين قائلاً: «وداعاً، أيها السادة، مُروا بفَتْح الباب لي، ودعوني أَعُدْ إلى حريتي القديمة؛ دَعوني أذهب للبحث عن حياتي الماضية كي أُبْعَثَ من الموت الذي قاسيْتُه هنا. لم أُخْلَقْ لأكون حاكماً، ولا لأحمي الجزر ممّنْ يريدون مهاجمتَها؛ إن عملي هو الفلاحة وتقطيع الحطب، وحراثة الأرض

http://www.ithar.com

للكرمة، لا أن أسنّ القوانين وأدافع عن الممالك والمقاطعات. القديس بطرس في روما، وذلك يَعْني أن كلَّ واحد يجب أن يظل في بيته ويمارس مهنته. المنجل يناسب يدي أكثر من عصا الحاكم، وأنا أفضّل الحساءَ بالبصل على أن أرى نفسي واقعاً تحت رحمة طبيبٍ سفيه يُموِّتني من الجوع، ريثما يجد لحماً صالحاً لي. وأنا أنام تحت ظلّ سنديانةٍ في الصيف، وملفوفاً بغطاء كثيفٍ في الشتاء، كما أنام بين لحافين هولانديين مغطّى بفراء السمور الفخم في قصر الحاكم. وداعاً، أيها السادة، مرةً أخرى؛ وقولوا عني لمولانا الدوق إنني وُلدتُ عارياً، وهأنا ذا عارٍ كما وُلدت، لم آخذ شيئاً، ولم أَضَعْ شيئاً؛ عَنَيْتُ أنني دخلتُ الحكم وأنا مُعْدَمٌ، وخرجتُ منه مُعدَماً، خلافاً للذين يتولّون الحكم. نهاراً سعيداً، وليلةً سعيدة، أيها السادة، دعوني أمرّ، دعوني أذهب لأضمّد جراحي، فأنا أعتقد أن أضلاعي جميعاً قد كُسرت من جرّاء الأعداء الذين داسوا جسدي أكثر من مئة مرة».

ـ قال الطبيبُ: لا تَرْمنا بهذا الذنب، من فضلكَ، يا مولاي الحاكم: وسأعطيك شراباً لهذه الآلام، وستشفيك على الفور؛ أما طعامُك فسوف أتركك تأكل ما تشاء، دون أن أُكرهكَ على شيء.

ـ قال سانشو: جئتَ متأخّراً، سيدي الطبيب، أشكركَ على شرابك، ولا سبيل إلى عودتي عن قراري. ولستُ ممن يُخْدَعون مرّتين؛ وإذا ما راوَدتْني نفسي أن أكون حاكماً مرةً أخرى، فَلْيكنْ موتي في أول يومٍ أضع فيه قدمي في الجزيرة. أنت لا تعرف آل «بانسا»، يا سيدي المسكين، فجميعهُم عنيدون، وإذا قالوا: لا، ثبتوا على قولهم، ولو هلك الناسُ جميعاً. هيّا، وَلْندَعْ في هذا الاسطبل أَجنحة النحل التي حملتني

http://www.ithar.com

إلى الهواء لكي تأكلني طيورُ السنونو؛ هيّا، ولنَمْشِ برفقٍ فإذا أعوزنا الحذاء من جلد الماعز الرقيق. فسنجد على الأقل حذاءً من جلد البقر، ولتَذْهب كلُّ نعجةٍ إلى أُختِها، يجب ألا يزيدنا حُمقاً خوفُنا من أن يأكلنا الذئب. دعوني أمرّ لآخر مرة، فالوقتُ قد تأخّر.

قال الوكيل: سيّدي الحاكم: سندعك تمرّ بما أنك ترغبُ في ذلك، وإن كنا لا نَقْبل بغير أسف فقدان رجلٍ له فضلُه وسلوكه المحمود مثلك؛ لكنك تعلم أن كل حاكمٍ يتخلّى عن مهمته فعليه أن يقدّم بياناً عن إدارته. فافعلْ ذلك، من فضلك، وأنت حرٌّ بالانصراف حينئذٍ.

ـ ردّ سانشو على الفور: لا أحد يملك الحقّ في أن يطلب مني ذلك، إذ لم يكن مخوّلاً من السيد الدوق. وأنا ذاهبٌ إليه، وإليه سأتقدّم بالبيان؛ وغنيٌّ عن البيان أن الرجل الذي يخرج عارياً يُظهر بوضوحٍ أنه لم يسرق.

ـ قال الطبيب: الواقع أن الرجل مُحقٌّ، يجب أن ندعه يمضي: ثم إن الدوق سيفرح كثيراً بلقائه.

كان هذا هو رأي الجميع فتركوه يسافر، وعرضوا عليه أن يرافقوه وأن يُزوّدوه بكل ما هو ضروري ليكون سفرُه مريحاً ومُمتعاً. وكان ردّ سانشو على عَرْضهم أنه لا يريد سوى قليلٍ من الشعير لحماره، وقليلٍ من الخبز والجبن له، وأنه لا يحتاج إلى أي شيءٍ آخر، لأن رحلته قصيرة. عانقه الجميعُ، وعانق الجميعَ وهو يبكي، وتركهم مدهوشين من علامات الحسّ السليم الذي دلّل عليه دهشتهم من القرار السريع الذي اتّخذه.

• • •

http://www.ithar.com

# «دون كيشوت يغادر قصر الدوق، ويَغْلبه فارس القُمر الأبيض، ويصبح راعياً»

ركب حاكمُ «باراتاريا» الشهيرُ حماره، وساقَه بحزنٍ عائداً إلى القصر، وأخذ يفكّر في تفاهة الأمجاد البشرية، عندما أحسَّ بأن الأرض قد خُسِفَتْ من تحته، وحُمِلَ هو وحماره مدّة خمس دقائق على الأقل.

ظنّ، في البداية، أن السَحَرة كانوا ينتقمون منه على عدم تصديقه وعلى الأكاذيب التي تخيّلها ليخدع سيّده. وتذكّر أيضاً، لأن الفكر يسير بسرعةٍ في هذه اللحظات، الجَلدات التي تعهّد بجلد نفسه بها، والتي ألهَتْه عنها همومُ الحكم. وأخيراً وجد نفسه مُنبطحاً تحت الحمار الذي غطّى صوتُه الرخيمُ أنّاتِه. شُغِل في اللحظة الأولى بجَسّ نفسه وبالنهوض وبإنهاض حماره. ورأى أنه محطَّمٌ لكنه لم يُجرح وشكر حظّه السعيد. وأخذت الأشياءُ في الوقت نفسه تبدو له طبيعية؛ وجال نظرُه في الحفرة التي سقط فيها فعَرَف أن مصيبته أوَقْعته في شركٍ قديمٍ لصيد الذئب وقد نُزع نابضُه.

http://www.ithar.com

حينئذٍ استنجَد بكل قواه؛ أخذ النهارُ يزول ولم يجلب انتباهَ أيِّ مسافر. قال: هل ينبغي أن يرى شركُ الذئب هذا نهاية مرافق دون كيشوت، حاكم باراتاريا؟ وهل سيكون الحمارُ فريسة الحيوانات المفترسة؟ «وبينما كان يقول هذه الكلمات، صاحَ من فوق صوتٌ بدا له كأنه آتٍ من السماء: مَنْ الذي يَنْتحب هكذا في هذه الحفرة؟ صرخ سانشو: المجدُ لله، هذا دون كيشوت بعينه! آه! اسحبْني من هنا، يا سيدي، أَنْقذْني، أشفقْ على مرافقك الوفيّ وعلى حماره!

ـ أجاب الفارس: هكذا سأكون. وإذا صحَّ أنك روح سانشو المسكين، فلن أَبْخل بإماتة الجسد وبالصلوات لإنقاذك من المَطْهر».

كان لا بد لسانشو الميت من الخوف ومن الكثير من الشروح ومن الخطب ليُقنع سيّده بواقعية وضعه. وأخيراً أدرك دون كيشوت أن علاقته هي بجسد المرافق، فساعده على الخروج من الحفرة بكثيرٍ من المشقة. وما كاد يُركبه حماره، كما اتّفق له حتى همَزَ حصانه ومضى يقوده خبباً إلى وجهة مقابلةٍ لوجهة القصر.

ـ قال سانشو: ماذا تفعل، يا مولاي؟ أتريد أن تَفْعل ما فعلتَه في عرس «غاماش». وهل تعبتَ من كون بطنك ملآن؟ ألا تريد أن أذهب لأستعيد قواي قليلاً في غرف خدمة القصر، بدلاً من السهر والتعب في الحكم؟ اشفقْ عليّ إن لم تشفق على نفسك!»

لكن دون كيشوت أصمَّ أذنيه عن هذا الرجاء المؤثّر، وعَزَفَ عن ملذات القصر، فمضى مع مرافقه الحزين، ليبحث عن مغامراتٍ جديدة.

http://www.ithar.com



يا فارس «لامانش» الباسل! مَنْ قال لك إن القدر ينتظرك عند جدران «برشلونه» لتضع حداً لمآثرك المتألّقة؟ وأنك سترى نفسك، بعد أن انتصرتَ على السَحَرة، وغَلَبْتَ العمالقة، ودافعتَ عن الآنسات، وحرّرتَ الأسرى، وكنتَ بهجةَ القصر، أن ترى نفسك وقد سلبكَ القدرُ حصانكَ وحَرَمك من رمحك وسيفك؟ إنه لمؤلمٌ لمنْ أَرَّخ لك ومَنْ تابعكَ زمناً طويلاً في دربك المجيد أن يُضطَرّ إلى رواية تلك النكبة الشهيرة وأن ينهي حكاية عجائبكَ بهذه المغامرة الحزينة.

في ذات صباح، وكان دون كيشوت ينظر إلى البحر، ويتنزّه على الشاطىء، وهو بكامل سلاحه، إذ أن سلاحه هو كلُّ زينته، وأن القتال هو راحته، رأى فارساً مدجّجاً بالسلاح من رأسه إلى قدميه، ومعه درقةٌ رُسم

http://www.ithar.com

عليها قمرٌ باهر. دنا الفارس حتى صار قريباً من دون كيشوت بحيث يسمعه، وخاطبه قائلاً بصوت عالٍ: أيها الفارس الشهير، يا دون كيشوت دي لامانش الباسل! أنا فارس القمر الأبيض الذي لا شك أن مآثره العجيبة قد بلغتْ مسامعك؛ جئتُ إلى هنا لكي أقاتلك وأمتحن قواي في مقابل قواك، وفي نيّتي أن أحملكَ على الإعتراف بأن سيّدتي، أيّاً كانت، أجملُ من «دولسينيه دي توبوزو»، ولا سبيل إلى المقارنة بينهما. فإذا شئت أن تُعلن بحريةٍ هذه الحقيقة تجنّبْتَ الموتَ بكل تأكيد، وخلّصْتَني من عذابي وأنا أجرّعك الموت؛ أماإذا اشتهيتَ القتال فلستُ أطلب منك سوى شيءٍ واحد بعد تغلّبي عليك وهو أن تكفّ عن حمل السلاح والبحث عن المغامرات على مدى سنةٍ كاملة؛ وأن تعتكف في بيتك دون أن تحمل السيفَ، لتعيش فيه عيشةً مطمئنةً، وفي راحةٍ نافعة لصحتكَ وأعمالك. وأما إذا اتّفق لك أن غَلَبْتني فإن رأسي يكون تحت مشيئتكَ؛ وسأترك لك حصاني وسلاحي، وسيتحوّل صيتُ أعمالي الباهرة إلى مجدك كلّياً. انظرْ ما الذي تجده أفضل من ذلك، وأَجبْ بسرعة؛ إذ ليس لديّ سوى هذا اليوم لأفرغ من هذه القضية».

تعجّب دون كيشوت من عجرفة فارس القمر الأبيض ومن موضوع تحدّيه، فردّ عليه بإباءٍ وقسوة قائلاً: يا فارس القمر الأبيض، الذي لم تَصْل إلى علمي مآثرُه، أُقسم أنك لم ترَ «دولسينيه» الشهيرة؛ لأنك لو رأيتها لما عرّضْتَ نفسك، بهذا التهوّر، لقتالٍ مشكوك في عواقبه ولاعترفتَ بنفسك أنه لم يُوجَدْ قط جمالٌ يمكن أن يُقارَن بجمالها. وهكذا إذن، لا أقول لكَ إنك تكذب، وإنما أقول إنك مخطىءٌ كثيراً، وأنا أَقبل التحدّي بالشروط التي ذكرتَها، ولنباشرْ عملَنا كي لا يمرّ النهارُ قبل أن

http://www.ithar.com

يُبَتَّ بالقضيـة! وأنـا أستثني من شروطك ما ذكرتَه عن صيت أفعالك الباهرة التي ستتحوّل إلى مجدي. فأنا لا أعرف ما ذلك الصيت، وأنا أكتفـي بصيتـي أيّـاً كـان ذلـك الصيت. تـراجـعْ وخـذ استعـدادك إذن وسأفعل مثل ذلك، وستُظهر النتيجةُ مَنْ الذي يفوق الآخر في استخدام الرمح".

اكتُشف في المدينة فارسُ القمر الأبيض، كما أن صيتَ بطلنا قد سبَقَه في برشلونه، ولذلك فإن نائب الملك وكثيراً من النبلاء اتّجهوا إلى المرفأ ليكونوا شهوداً على القتال، ووصلوا في اللحظة نفسها التي تراجع فيها دون كيشوت بحصانه استعداداً للهجوم.



http://www.ithar.com

عندما رأى نائبُ الملك أن الفارسين تراجعا من أجل اللقاء، وقفَ بينهما وسألهما عمّا يجبرهما على اللجوء المُباغت إلى القتال. أجاب فارسُ القمر الأبيض أن السبب هو المفاضلة بين جميلتين وأعاد عليه بعض ما دار بينه وبين دون كيشوت، كما ذكر له شروط التحدّي التي قبلها الفريقان. ودنا نائبُ الملك من دون كيشوت فردّد عليه الجوابَ نفسه؛ ثم لما رأى نائبُ الملك أنه لا يمكن أن يكون ذلك كله سوى مزاح، انسحب وهو يقول: «أيها الفارسان، بما أنه ليس هاهنا وَسَطٌ بين الموت والاعتراف، وأن السيد دون كيشوت لا يتنازل، وأن فارس القمر الأبيض لا يتراجع عن كلامه، فالساحةُ خاليةٌ وليَحْفظكما الله». شكر فارسُ القمر الأبيض نائبَ الملك بكلمات مفعمة بالرقة، للإذن الذي أَذن به، وفعل دون كيشوت مثله. ثم تضرّع من كل قلبه إلى الله، وإلى سيدته «دولسينيه»، كما اعتاد أن يفعل قبل أن يباشر القتال. ثم تراجع أكثر من ذي قبل عندما رأى خصمه يتراجع. وحينئذٍ لَوَيا، في الوقت نفسه، عنان حصانيهما، دون بوقٍ أو أية آلةٍ من آلات الحرب تُصدر الإشارة ببدء القتال، لينقضّ كلٌّ منهما على الآخر.

كان فارسُ القمر الأبيض قد امتطى حصاناً أكثر نشاطاً وقوةً من «روسينانت» حتى إن هذا الحصان قام هو وحده بثلثي المهمة. لقي فارسُ القمر الأبيض دون كيشوت بكثيرٍ من القوة، ودون استخدام الرمح، وهو أمرٌ لاحظه الجميع جيداً، فرماه أرضاً بقسوةٍ هو وحصانه، وارتمى فوراً على دون كيشوت، ووضَع سنانَ الرمح في واقية الخوذة وقال له: «لقد غُلِبْتَ، أيها الفارس، وسَتفْقد حياتك إن لم تَبْقَ موافقاً على شروط قتالنا.

http://www.ithar.com

ذهل دون كيشوت ودُعِك جسمُه من سقوطه، ولم يَقْوَ على رَفْع الواقية، وقال بصوتٍ ضعيف وبهيم، وكأنه آتٍ من القبر: «دولسينيه دي توبوزو أجمل سيدة في العالم؛ وأنا أَتْعس فارس على الأرض: وليس من العدل أن يكذِّب مصابي حقيقةً يَعْترف بها الجميعُ. ادفعْ رمحك أيها الفارس، واسلبْني حياتي، بعد أن سلبْتَني شرفي. أجاب فارسُ القمر الأبيض: لا، لا، ليَبْقَ صيتُ جمال السيدة «دولسينيه دي توبوزو» بأكمله؛ وذلك يسرّني، على شرط أن يَنْسحب دون كيشوت إلى بيته لمدة عام، كما اتفقنا قبل القتال، أو على الأقل حتى أردّ له حريته».

كان نائبُ الملك وكثيرون شهوداً على ذلك كله؛ وسمعوا أيضاً دون كيشوت يجيب غالبَه بأنه سيقوم بكل ما تعهّد به حرفياً كما يفعل الفارسُ الحقيقي، على شرط ألا يُطلَبَ منه شيءٌ يمسّ مصالح «دولسينيه» ومجدَها. رضيَ فارسُ القمر الأبيض بذلك فعطَفَ حصانه، وحيّا برأسه نائبَ الملك، ومضى عَدْواً إلى المدينة. رجا نائبُ الملك صديقاً له أن يتبعه وأن يَعْرف مَنْ هو، مهما يكن الثمن.

أُنْهِضَ دون كيشوت، ونُزِعتْ خَوْذتُه فإذا هو شاحبٌ مهدود القوى، والعرقُ البارد يتحدّر منه وكأنه يوشك أن يلفظ أنفاسه. أما «روسينانت» فكان في حالة من الضعف تعذّر معها إنهاضُه. وكان سانشو مدهوشاً بقدر ما كان حزيناً، ولم يعرف ما يقول وما يفعل، ظاناً أن ذلك كله حَدَثَ بفِعْل السحر. وأخذ يتأمّل سيّده المغلوب أمام شعبٍ بأكمله، وقد حُرِم من حَمْل سلاحه سنةً كاملة؛ وفي الوقت نفسه الذي رأى فيه مجد مآثره مدفونةً إلى الأبد، رأى من جهته جميع آماله تتبخّر. كما خاف أيضاً أن يظلّ روسينانت كسيحاً بقية أيامه، وسيّده مخلّعاً، إن لم يكن أسوأ. وبينما

http://www.ithar.com

كان يفكّر في هذه الخواطر الحزينة وقد استولى عليه ذُعرٌ فظيع، أَمَر نائبُ الملك بحَمْل دون كيشوت إلى المدينة، في كرسيّ محمول، وعاد هو أيضاً نافد الصَبْر ليعلم من هو فارس القمر الأبيض.

لندَعْ نائب الملك مجتمعاً مع الغالب، أي مع صديقنا الحلاق نيكولا، ولنتبعْ فارسنا العظيم الذي سلك من فوره طريقَ قريته.

• • •

http://www.ithar.com

## «الذي يعالج ما سيراه مَنْ يقرؤه»

عند خروج دون كيشوت من «برشلونه» نظَر بحزنٍ إلى المكان الذي صُرِعَ فيه، فقال: هاهنا كانت طروادة؛ هاهنا سلبتْني مصيبتي، لا غلطتي، كلَّ المجد الذي كسبتُه؛ هاهنا أَشْعرني الحظُّ بتقلّبه، وامتحنني بنزواته؛ هاهنا أَظْلمَ بريقُ مآثري وغابت في أعماق البحر بسالتي؛ هاهنا سقطَ صيتي أخيراً لكي لا ينهض أبداً بعد ذلك.

ـ قال له سانشو: يا سيدي، إن الشجاعة الحكيمةَ تقضي أن يملك صاحبُها من الصَبْر في الشدائد مقدار ما يعتريه من الفرح عندما يَبْتسم له الحظ؛ وانظرْ إليّ أنا: إذا كنتُ فرحاً وأنا حاكم، فإن حزني الآن وأنا مرافقٌ يسير على قدميه ليس أكثر من فرحي آنذاك. لقد سمعتُ أن الحظ امرأةٌ غريبة الأطوار، سكرى دائماً، ولا تُبصر إطلاقاً: ولذلك فهي لا ترى ما تفعل ولا تدري مَنْ رَمَتْه ومن أنهضتْه.

ـ قال دون كيشوت: أرى أنك فيلسوفٌ حقاً، فأنت تتكلم كما يتكلم العالم؛ ولا أعلم مَنْ الذي علَّمك ذلك كله. كلُّ ما أريد أن أقوله لك هو أنْ ليس في العالم حظٌّ، ومِنْ كلّ ما نراه هنا، حسناً كان أم سيئاً، لا شيء يجري مصادفةً، وإنما يجري بالعناية السماوية الخاصة؛ ولذلك يقال إن كل إنسان هو صانع حظّه. وأنا كنتُ صانع حظي، ولأنني لم

http://www.ithar.com

أعمل بما يكفي من الحذر والفطنة، هأنذا أُعاقَبُ على اعتدادي وزهوي. كان عليّ أن أعلم أن «روسينانت» بضعْفه عاجزٌ عن مقابلة الجواد القوي لفارس القمر الأبيض. بيد أنني غامرتُ، ومع أني عملتُ كل ما أَمكنني عملُه، فقد لحقَني العار لسقوطي أرضاً. وأنا وإن فقدتُ شرفي إلا أنني لم أفقد ولا يمكن أو يجب أن أفقد فضيلةَ الوفاء بالعهد. عندما كنتُ فارساً جوّالاً، باسلاً وجريئاً، كان ساعدي وأفعالي تَشْهد ببسالتي؛ والآن بعد أن أصبحتُ تابعاً أُسقِطَ عن ظهر جواده، فإن وفائي بوعدي وانصياعي له يُظهران أنني رجلٌ لا يَحْنث بوعدٍ. امضِ إذن، يا سانشو، ولنذهبْ إلى بيتنا لنقضي سنتنا في التدرّب، أو على الأصح لنقضي سنة إبعادنا. هناك سنكسبُ قوىً جديدة لنستأنف بعد ذلك ممارسةَ السلاح بتألّقٍ أكبر.

ـ أجاب سانشو: يا سيدي، ليس مُسلّياً أن يسير المرءُ على قدميه مراحلَ طويلة: لنعلّق هذه الأسلحة على شجرة، فإذا عَلَوتُ ظهر حماري، وكفّتْ رجلاي عن ملامسة الأرض، فسنمضي بالسرعة التي تُريدها؛ لكني ما دمت أسير على قدميّ، فلا يجب أن تُسرِع، إذا شئتَ.

ـ قال دون كيشوت: نِعْمَ ما قلتَ، يا سانشو؛ لِتَبْقَ أسلحتي هنا كالغنيمة، وسنَحْفر على جذوع الأشجار ما كُتب تحت غنيمة أسلحة «رولان»: «لا يَلْمِسَنّ مُتهوِّرٌ هذه الأسلحة، وإلا فَلْيحزمْ أمره على لقاء «رولان» لتصفية هذه القضية».

ـ أجاب سانشو: ما أعظم تأثير هذا الكلام، يا سيدي، ولولا حاجتُنا إلى «روسينانت» في هذه الطرقات، لكان من رأيي تعليقُه مع الأسلحة.

http://www.ithar.com

ـ بادر دون كيشوت إلى القول: لستُ أنوي تعليقه، هو، ولا تعليق الأسلحة، حتى لا يُقال: إنه أساءَ لمن أحسن إليه.

ـ أجاب سانشو: ونِعْمَ ما قلته أنتَ، يا سيدي؛ لأن الحكماء يقولون: لا يجب أن تَحْمل البردعةُ غلطَ الحمار. وبما أنك أنت المُخطىءُ فعاقبْ نفسَكَ بنفسك، ولا تُحَمِّلْ أسلحتكَ المسكينةَ ذنبكَ، فهي قد تكسّرت لأنها أحسنتْ خدمتَكَ، ولا تتحاملْ على روسينانت البائس الذي لا يحتاج إلى مزيدٍ من التعب، ولا تَجُرْ على رجليّ الضعيفتين إذ تطلب منهما أن يسيرا أكثر من المعقول.

مرّ هذا اليوم وثلاثة أيام أخرى في أحاديث مشابهة دون أن يقع لهما ما يستحقّ الذكر. وفي اليوم الرابع، وكان دون كيشوت جالساً تحت شجرة ليستريح، بدا حيناً من الزمن مستغرقاً في أحلام يقظته. وكان يزفر زفراتٍ حرّى مرةً بعد مرة، وظنّ سانشو أن تفكير سيده مُنصرفٌ إلى فارس القمر الأبيض؛ ولذلك فقد دهش دهشةً كريهة عندما بدأَ سيّدُه حديثه بالعبارات التالية: ألا تعتقد، يا سانشو، الآن، وقد قادنا حظُّنا العاثرُ إلى العجز، أن الوقت قد حان لإنقاذ «دولسينيه» من عذابها؟ ولا أَكذبُ عليك يا صديقي، أنت تخاف كثيراً على جلدك حتى إني أتمنّى أن تأكله الذئاب، لأنك تفضّل أن تحتفظ به للدُود على أن تجعله نافعاً لهذه السيدة المسكينة.

ـ أجاب سانشو: يا سيدي، إن كان لا بدّ من قول الحقيقة فأنا لا أصدّق أن جلدات السياط يمكن أن تَصْلح لإزالة السحر عن أحد. هذا كمَنْ يقول: إن أصابك صداعٌ فافركْ ساقيكَ. وأنا أقسم لكَ، على الأقل،

http://www.ithar.com

أن جميع كتب الفروسية التي قرأتَها لم نرَ فيها مسحوراً تخلَّص من السحر بجَلْد السياط. لكني سأجلد نفسي، إرضاءً لك، أيّاً كان الأمر، كلما آنَسْتُ من نفسي رغبةً وكلما سنحت الفرصةُ لذلك.

ــ قال دون كيشوت: ليُعِنْكَ الله، وستُدرك عمّا قريب الفائدة من تخفيف آلام سيّدتي التي هي سيّدتكَ أيضاً، لأنني أنا سيّدك.

وصلا، وهما يتحدّثان هذا الحديث إلى مكانٍ كان الدوق والدوقة قد تنكّرا فيه، بنزوةٍ من نزواتهما، في صورة راعيين، عندما كان دون كيشوت معهما، فلما تذكّر دون كيشوت ذلك قال لسانشو: «ها هو ذا المَـرْجُ الـذي صـادفْنـا فيـه، منـذ بعـض الـوقـت، أولئك الـرعـاة اللطفـاء والراعيات المحبوبات الذين كانوا يريدون إعادة «أركاديا» الرعوية: وهو قَصْدٌ جديدٌ وصائب. وإذا شئتَ، يا سانشو، سنَحْذو حَذْوهم ونصير راعيين، على الأقل طوال المدة التي وعدتُ ألاّ أَحمل السلاح فيها. وسأشتري الخراف وجميع الأشياء الضرورية لمثل هذا العمل، وسأُدعى الراعي «كيشوتيس» وأنت «بانسينو»، وسنطوف في الغابات والمروج ونحن نغنّي ونعزف على مزمار القرية، ونُنشد مآسينا النائحة، ونشرب تارةً من ماء الينابيع الرقراق كالكريستال الذائب، وتارةً أخرى من ماء الجداول الصافي، أو ماء الأنهار. وستمنحنا أشجار السنديان الأخضر والزان ثمارها بلا حساب؛ وسنعثر على خَلَواتٍ لنا في جوف أشجار الفلين، وعلى الظلال تحت أشجار الزيزفون؛ وستعطّرنا الورودُ بأريجها؛ وستقدّم لنا المروجُ التي غطّتها آلاف الأزهار المتنوّعة فراشاً مُبهجاً ووثيراً؛ والهواء النقـي والعليـل، والنـداوة العـذبـة، والقمـر والنجـوم، والنـور المعتـدل. وسنجد اللذةَ في الغناء، والعزاءَ في الشكوى. وسيُلْهمنا ابولّون الأشعارَ،

http://www.ithar.com

والحبُّ العواطفَ. وهكذا نصنع مصيرنا الذي نُحْسَد عليه، وسنصبح ذائعيْ الصيت لا في قرننا فحسب، وإنما في ذاكرة البشر.



ــ قال سانشو: بذمّتي، يا سيدي، لقد سَحرتْني طريقةُ العيش هذه. لا شك أن الحلاق نيكولا لم يَخْطر ذلك بباله، وأنا أراهن أنه سيُفْتَن بالمجيء معنا؛ ولربما راودت الكاهنَ نزوةٌ هي أن يحيا هذه الحياة لأنه رجلٌ طيّبٌ يُحب الملذات.

ــ قال دون كيشوت: ما قلتَه حقٌّ، يا سانشو، وإذا شاء الحلاقُ نيكولا أن ينضمَّ إلينا، وهو لن يُفوِّت ذلك، فيمكن أن يُدعى «نيكولوسو»، احتذاءً بالبوسكاني القديم الذي كان يُدعى «تيموروزو». أما الكاهن فلا أدري ماذا نسمّيه، إلا أن يكون اسماً مشتقّاً من اسمه من مثل الراعي «كوريامبرو». أما الراعيات اللواتي سنحبّهنّ، فلن يَصْعب علينا العثور

http://www.ithar.com

على أسماء لهن. وما علينا سوى الاختيار؛ وبما أن اسم «دولسينيه» يَصْلح للراعية كما يصلح للأميرة، فلن أُعْنى بالبحث عن اسم آخر، وأنت، يا سانشو، أَطلقْ على راعيتك الاسمَ الذي تريد.

ـ أجاب سانشو: لا أشتهي أن أسمّيها اسماً غير «تيريزونا»، الذي يوافق قامتَها المدوّرة كما يوافق الاسم الذي تحمله وهو «تيريز» فضلاً عن أنني حين أسمّيها بهذا الاسم في الأشعار التي سأَنْظمها لها، سيعرفها الناسُ جميعاً، وسيعلمون أيضاً أنني وفيٌّ، لأنني لا أريد أن أَطحنَ في طواحين الآخرين. أما بالنسبة إلى الكاهن فلا حاجة به إلى راعيةٍ لكي يكون قدوةً حسنةً.

ـ هتَف دون كيشوت قائلاً: يا الهي! ما أعظم الحياةَ التي سنحياها، يا صديقي سانشو؛ وكم ستُشَنَّفُ آذانُنا بمختلف أنواع المزامير، وبالطبول، وبالجريسات، وبالقيثارات!

ـ قال سانشو: ما أَتعسني إن لم أر تلك الساعةَ التي تبدأ فيها تلك الحياة. يا الهي! كم من ملعقةٍ خشبيةٍ جميلةٍ سأصنع، إذا أصبحتُ راعياً ذات يوم! وكم من قشدةٍ، ومن جبنٍ، ومن لبَنٍ مصفّى، ومن إكليل زهرٍ، لي ولراعيتي! وكم من عصا معقوفةٍ، ومن عصا مُزوَّقة! وماذا سينقصني من الطُرَف التي يُحْسنها الرعاةُ؟ وإذا لم يَقلْ عني الناس إني عالم، فسيقولون على الأقل إني قادرٌ على الاختراع. وستأتي سانشا الصغيرة، ابنتي حاملةً غداءنا إلى الحقول. لكنها ليست مُفرطة البلاهة، وهناك رعاةٌ أشدّ مكراً مما نعتقد: ولا يسرّني، أن يأتي مَنْ يُغازلها وأن تدفع الثمن هذه الفتاةُ المسكينة التي لا خبرةَ لها بشرور الناس، فالحب والمقاصد الشريرة

http://www.ithar.com

تندسّ في الحقول كما توجد في المدينة، وفي الأكواخ الحقيرة كما في القصور الفخمة؛ لكن عندما تُلغى الفرصةُ المناسبةُ تُلغى الخطيئةُ؛ الفرصةُ هي التي تصنع السارق. وعندما لا ترى العين، لا يتشوّق القلبُ؛ والقفز فوق الحفرة خيرٌ من رجاء المحسنين.

ــ قال دون كيشوت: سانشو، أرجوك، كفى أمثالاً؛ لقد قلتَ أكثر مما يجب لإفهام فكرتكَ، وأنا نبّهتُك مرّاتٍ ألاَّ تُسرف في استخدام الأمثال.. لكن ذلك كان كالوعظ في الصحراءَ. أمي تعاقبني وأنا أجلد الحذاء.

ــ هتف سانشو: بذمّتي، يا سيدي، أنت تذكّرني بما يُقال عموماً: تقول المدفأةُ للقدر: أنت أسود كالمدخنة: أنت تقول لي إنني أسرف في استخدام الأمثال، بينما تَنْظمها أنت اثنين اثنين.

ــ قال دون كيشوت: يجب أن تلاحظ، يا سانشو، أن الأمثال التي أَضربها إنما أقولها عندما يدعو إليها المقام؛ لكن، كفى نقاشاً، فالنهار يوشك على الانتهاء، ولنبتعدْ عن الطريق ولنبحثْ عن مكان نقضي فيه ليلتنا، وسنرى غداً ما يدَّخره اللهُ لنا».

انحرفا إذن عن الطريق، وتناولا عشاءهما متأخريْن، بالرغم من امتعاض سانشو الذي جعله شحُّ الفروسية الجوّالة يأسف على وفرة بيت الدوق، وعرس «غاماش»، وجميع الأماكن التي تناول فيها طعاماً فاخراً. ولكنه حين تفكّر في أن الحياة ليست دائماً ابتهاجاً مستمراً، أَسْلم نفسه للنوم، كما أن سيده أسلم نفسه لخواطره المعتادة.

• • •

http://www.ithar.com

# «المغامرة الليلية التي أثَّرت في سانشو أكثر من تأثيرها في دون كيشوت»

كان الليل مظلماً قليلاً، مع أن القمر كان في السماء؛ لكنه كان في مكانٍ لا يُرى منه؛ لأن ديانا العطوف تمضي أحياناً إلى التنزّه في الجهة المقابلة من الكرة الأرضية، وتترك جبالنا ووديانا في الظلمة الحالكة. لبّى دون كيشوت الحاجة الطبيعية، فأسلم نفسه للنعاس الأول الذي راود أجفانه؛ لكنه ما لبث أن استيقظ، فوجد سانشو نائماً لأن المرافق الطيّب تعوّد أن ينام الليل بطوله نوماً متّصلاً، وتلك علامةٌ على صحّة بنيته وعلى قلة الهموم التي تُقلقه. وإذن فإن هموم دون كيشوت أيقظتْه في ساعة مبكّرةٍ فقال لسانشو بعد أن شدّه كثيراً وناداه كثيراً.

«أنا مُتعجِّبٌ، يا سانشو، من الطريقة التي جُبِلْتَ بها، فكأنك من المرمر أو من البرونز، لا حركة فيك ولا عاطفة: أنت تنام وأنا ساهر، وأنت تغنّي عندما أبكي، وأنا ضعيفٌ مهدودٌ لأني لا أعطي طبيعتي ما تحتاج إليه من الأغذية الضروريّة، وأنت تأكل في كل ساعة، وشحمك يكاد يمنعك من التنفّس. ومن حق السيّد على خادمه الحافظ للودّ أن يشاركه انزعاجه، وأن يحسّ بآلامه، وأن يسعى إلى عزائه. هذه الليلة أجمل ليلة في العالم؛ والصمتُ الذي يخيّم هنا من حولنا، وعذوبة

http://www.ithar.com

الطقس يستحقان أن نَحْرم أنفسنا النومَ لكي نَسْتمتع بجمال الوحدة، انهضْ إذن، أتوسّل إَليك، وأشفقْ على دولسينيه وعليّ، اجلدْ نفسك أربع مئة أو خمس مئة جلدة من الجلدات التي أُجْبرتَ عليها من أجل إبطال السحر عن تلك السيدة المسكينة؛ واعمل ذلك وأنتَ راضٍ، أرجوك، لأنني لا أحب أن تصل أمورنا إلى التضارب بالأيدي. فإذا فرغتَ من الجَلْدات قضينا سائر الليل في الغناء، فأغنّي أنا الآلام التي أعانيها من الغياب، وتغنّي أنت إخلاصَكَ، وبذلك نبدأ منذ اليوم حياةَ الرعاة التي سنَشْرع بها في قريتنا.

أجاب سانشو: يا سيدي، لستُ راهباً يَنْهض في منتصف الليل لأموّت جسده، وأُقسم أنك ساذجٌ حين تقول إنني بعد أن أفرغ سنَقْضي سائر الليل في الغناء؛ وهل تعتقد أن رجلاً تعرّض لتلك السياط يمكنه أن يشتهي الغناء؟ دَعْني أَنمْ، أرجوك، ولا تحثّني على جَلْد نَفْسي؛ وإلا حلفتُ يميناً صادقة ألا أفكّر في ذلك طوال حياتي.

ــ صاحَ دون كيشوت: يا لقلبكَ المتصلّب! أيها المرافق الجاحد! يا للصداقة والحظوة المضيّعتيْن! أهذا هو جزاء مَنْ جعلَك حاكماً والذي أوصلك إلى النقطة التي تأمل فيها أن تكون كونتاً أو مركيزاً، أو شيئاً مشابهاً. وهو ما لا بد أن يقع عندما أُنهي زمَنَ نفيي؟ فليس بعد الظلام سوى النور. . . Postténebra.

ردّ سانشو: لا أدري ما معنى ذلك؛ وكل ما أعلمه أنني، حين أنام، لا أرجو شيئاً ولا أخاف شيئاً، ولا أفكر في المشقة ولا في المكافأة، وليكنْ مباركاً ذاك الذي اخترعَ النومَ، وهو المعطف الذي يغطّي جميعَ هموم البشر، واللحم الذي يَمْنع الجوع، والشراب الذي يَرْوي العطش، والنار التي تردّ البرد، والبرد الذي يبرّد سخونةَ الحر، وهو في النهاية

http://www.ithar.com

العملةُ العامة لشراء جميع ملذات العالم، وهو يُوازن أو يساوي دون غشٍّ بين الرعاة والملوك، بين الجَهَلة والعلماء! النومُ شيءٌ حسنٌ، يا سيدي، ولم أجد فيه سوءاً، سوى أنني سمعتُ الناسَ يقولون: إنه يشبه الموت. وبالفعل، ليس هناك فرقٌ كبير بين النائم والميت، سوى أن النائم يَشْخر، في حين أن الآخر لا ينطق بكلمة.

ــ قال دون كيشوت: لكني أعتقد، يا صديقي سانشو، أنك لو تمنّيتَ عليّ مكافأةً عن الجلدات التي ستُنْزلها بنفسك لإزالة السحر عن «دولسينيه»، لأَجْزَلْتُ لك العطاء حتى تُسَرَّ به. إلا أني لا أعلم حقّاً إن كان يجوز هنا الوعدُ بالمكافأة دون تحرّج، لأنني لن أكون مرتاحاً خوفاً من أن يمنع ذلك مفعولَ الدواء. لكنا يمكن أن نجرّب ذلك. انظرْ، يا سانشو، كم تطلبُ، واجلدْ نفسَك على الفور؛ وبعد ذلك ادفعْ لنفسك بيديك من مالي الذي تحمله معك».

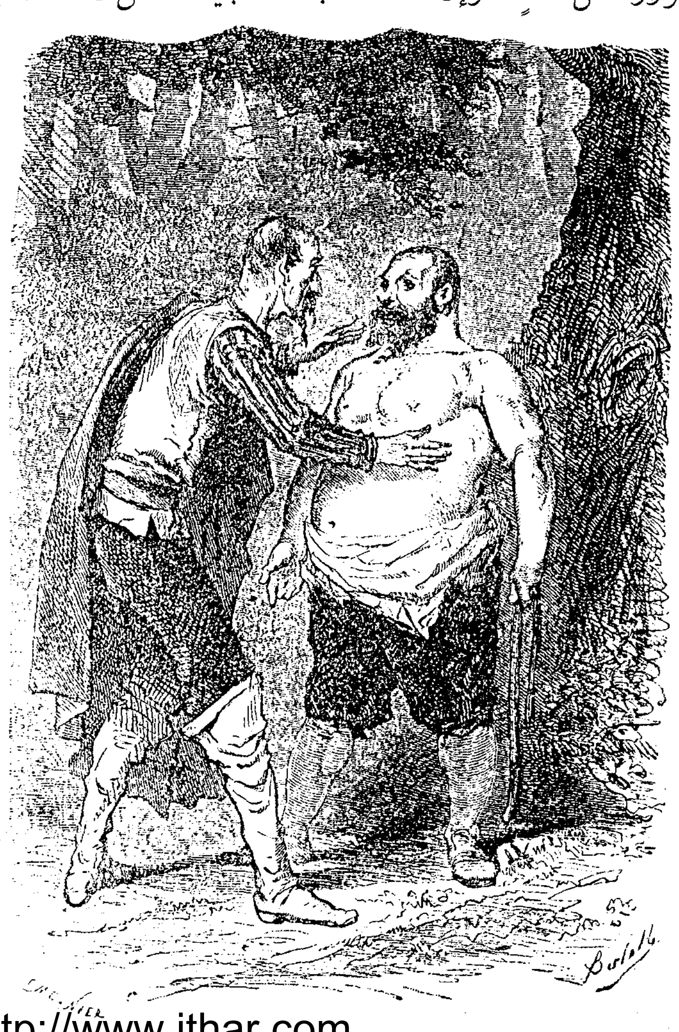
عند سماع سانشو لهذه الكلمات فَتحَ عينيه وأذنيه وقرّر جاداً أن يَجْلد نفسه، بما أن هناك ربحاً سيكسبه. وقال: «هيا، يا سيدي، يجب أن أفعل ما يُرضيك، والحبُّ الذي أكنّه لزوجتي وأولادي يحملني على التفكير في مصلحتهم، وإن كان ذلك على حساب جلدي. وكم ستُعطيني عن كل سوط؟

ــ أجاب دون كيشوت: إن كان ينبغي أن تكون المكافأة مساويةً لمزية العلاج وعظمته فإن كنوز البندقية ومناجم «بوتوزي» لن تكفي لمكافأتِكَ. قرِّرْ أنت نفسكَ السعرَ واحسب المبلغ الحاصل.

ــ قال سانشو: المطلوب ثلاثة آلاف وثلاث مئة جلدة ونيّف، قدّمتُ منها خمسَ جلدات، ولنقل إنها الزيادة فوق ثلاثة آلاف وثلاث مئة، ولتحسبْ فقط الباقي وهو ثلاثة آلاف وثلاث مئة جلدة؛ يلزمني فلسٌ

http://www.ithar.com

مدفوعٌ عن كل جلدة، ولن أخفض السعر، ولو من أجل البابا، فيكون المبلغ ثلاثة آلاف وثلاث مئة فلس مدفوع، أو سبع مئة وخمسين قطعة من فئة خمسة الفلوس. وثلاث مئة لم أحسبها ثمنها ثلاث مئة فلس مدفوع، أي خمس وسبعين قطعة من فئة الخمسة، فإذا أضيف إليها سبع مئة وخمسين صار المبلغ مئة، مئتين.. وست.. انتظر.. مئتي ليرة من فئة الخمسة.. فيكون المجموع ثماني مئة وخمسين. وسآخذ هذا المبلغ من المال الذي أحمله لك. وهكذا سأعود مسروراً مثل ملكٍ، وإن كنتُ قد جُلدتُ جيداً؛ لكن لا سمكَ بلا طُعْم».



http://www.ithar.com

ــ هتف دون كيشوت قائلاً: أيْ عزيزي سانشو! أي سانشو المحبوب! كم سنكون مُلْزَميْن، «دولسينيه» وأنا، أن نحبك سائرَ حياتنا! وإذا ما عادت تلك السيدةُ إلى الحالة التي كانت فيها، فسيكون كربُها سعيداً، وهزيمتي انتصاراً مجيداً. انظرْ، يا بني، فلكي أشجّعك عندما تبدأ، ولكي تفرغ بأسرع وقتٍ ممكن، سأعطيك مئة ريال إضافي.

ــ أجاب سانشو: متى؟ لكن تصرَّف بحيث ننام في العراء، وسنرى إن كنتُ أحسن تأديبَ نفسي.

وأقبل الليلُ الذي كان دون كيشوت يتمنّاه بفارغ الصبر، متخوّفاً في كل لحظة من أن تنكسر عجلة من عجلات مركبة الشمس، ومتصوّراً أن النهار سيطول أكثر من المعتاد، كما يفكّر دائماً العاشقون الذين لا يصدقون أن أمنياتهم ستحقّق. وأخيراً دَلَفا إلى غابة كانت بعيدةً قليلاً عن الطريق وبعد أن أنزلا السرج والبردعة عن الحصان والحمار، تمدّدا على العشب، وتناولا عشاءهما ممّا في الخرج. وبعد أن أكل سانشو، دون إفراط، ورأى أنه لم يبقَ له حاجةٌ في شيء، أراد أن يفي بوعده لسيّده: تناول مقود «روسينانت» وسَيْراً من بردعة حماره، وانسحب إلى الغابة، على نحو عشرين قدماً من سيّده. قال له دون كيشوت حين رآه يمضي وقد بدا عليه العزمُ: يا ولدي، لا تُمزِّق نفسَك، وليكن بين الضربة والضربة وقتٌ، فتريّثْ ولا تَسْتعجل كثيراً حتى لا تُؤذي نفسَكَ في وسط عملك: وفوق كل شيء، لا ينبغي أن تَنْهال بالضرب على نفسك بشدةٍ تكلّفُكَ حياتَك قبل أن تَفْرغ من أَداء العدد المطلوب. وخوفاً من أن يَغْدو الدواءُ غيرَ نافعٍ لأننا زدنا أن أنقصنا المقدار، سأقف هنا قريباً منك،

http://www.ithar.com

وسأعدّ الضربات على مسبحتي. تشجَّعْ، يا صديقي! إن السماء تيسِّر سبيلَ النيّات الحسنة وتجعلها فعّالةً!

ــ قال سانشو: الحَسَنُ التعامل لا يخشى من الرهن، وسأشرع في جَلْد نفسي، وهو جَلْدٌ سيُوجُعني لكنه لن يَقْتلني؛ وها هنا تكمنُ فضيلةُ هذا الدواء.



تعرّى من ثيابه حتى الزنار، وأخذ يَجْلد نفسه، وأَخذ دون كيشوت يَعدّ الضربات. ولم يكدْ سانشو يجلد نفسه سبعَ جلدات أو ثماني جلدات، حتى أخذ يَضْجر، وحين وجد العبءَ أثقل من السعر المدفوع، قال: يا سيدي، لقد وقَعَ خطأٌ والسعر غير ملائم، لأن كل جلدة تساوي ضعف سعرها.

ــ قال له دون كيشوت: تابعْ، يا صديقي سانشو، ولا تَفْقد شجاعتَك، ولا تكترث للسعر، وسأضاعف السعر وأنا راضٍ.

http://www.ithar.com

قال سانشو: موافق، ولتتساقط الضرباتُ الآن كالبَرَد».

لكن الوغدَ كفّ عن جَلْد كتفيه وأَخذ يسوط الأشجار بكل قوّته، متأوّهاً تأوّهاً شديداً، بين الحين والحين، وكأنه يوشك أن يُسلم الروح. وخَشيَ دون كيشوت الذي كان بطبيعته رحيماً، أن يقتل سانشو نفسه بهذه الضربات الشديدة يُنحي بها على نفسه، وهكذا يصبح الدواء، لسوءِ التدبير، دون نجوع. فصاح به: «قفْ، يا صديقي، ما أشدّ جَلْدك! هذه الضربة وكفى؛ يبدو لي هذا العلاج صعباً، ومن المُستحسن أن نجعله على دفْعتين. لقد جلدتَ نفسَك أكثر من ألف جلدة، إن كنتُ أُحسن العدَّ، وهذا يكفي في الوقت الحاضر؛ فالحمار يتحمّل حمله لكنه لا يتحمّل حِمْلاً فوق حمله.

ـ أجابَ سانشو؛ لا، لا، يا سيدي، لا ينبغي أن يُقال عني: دُفع له الثمنُ مُسبقاً وقد كُسرت يداه. ابتعدْ قليلاً، وسأُكمل ألفاً أخرى، وبمقدارين كهذا المقدار سنفرغ من القضية، بل ستزيد الضرباتُ عن الحاجة».

ـ قال دون كيشوت: بما أنك تجد نفسك في وضعٍ حسن، افعلْ كما تشاء، وسأتنحّى جانباً».

استأنف سانشو مهمّته بكثيرٍ من الشجاعة حتى لم يبق قربه من شجرةٍ بقيَ لحاؤها عليها. ثم ضرب السنديانة ضربةً بكل قوّته، وكأنه تزوّد بنشاطٍ جديد، وصاح:

«ها هنا سيموت «سمسون» وجميعُ الذين معه».

سارع دون كيشوت على صوت هذه الضربة، وأمسك بسوط سانشو وقال له: لا أريد أن تخسر حياتك، لا سمح الله، وأنت تَخْدمني؛ فأنت

http://www.ithar.com

ضروريٌّ جداً لأسرتك المسكينة: لِتَنْتظرْ «دولسينيه» قليلاً؛ أما أنا فسأعلِّل نفسي بالآمال ريثما تستعيد قواك، وعمّا قليل نصبح مسرورَيْن.

ـ أجاب سانشو: بما أن سيادتك تريد ذلك، فأنا موافق؛ أَلْقِ إذن معطفك على كتفيّ، إن شئتَ، لأن العرق يسحّ سحّاً عني وقد أَبرُدُ، كما يقع لكثيرٍ من الجُدد الذين يموّتون أجسادهم. فأعطاه دون كيشوت معطفه بطيبة قلب، وظلَّ هو بصدرته، ونام سانشو حتى طلعت الشمسُ، فنهضا على الفور ورحلا؛ وبعد أن سارا ثلاث ساعات، توقّفا في نزل، وعرَفَه دون كيشوت بلا صعوبة على حقيقته؛ لأنه منذ أن غُلِبَ بدا عليه أنه قد فارق جنونَه.

• • •

http://www.ithar.com

# «كيف وصل دون كيشوت وسانشو قريتَهما»

مكثَ دون كيشوت في النزل طوال النهار، وانتظر حلولَ الليل ليُتم تلك العقوبة، ولن يسافرا إلا بعد استكمالها.

طار دون كيشوت فرحاً، وكان ينتظر النهار بفارغ الصبر، ليرى إن كان سيلقى في طريقه «دولسينيه» وقد تخلّصتْ من السحر. فلما طلع النهار ارتحلا، ولم ير دون كيشوت امرأةً تمرّ إلا ذهب ليرى إن لم تكن هي، معتبراً وعود «مرلان» العظيم معصومةً عن الخطأ.

بعد أن سارا قليلاً، وصلا إلى أعلى الرابية التي اكتشفا منها قريتهما، وما ان عرفها سانشو حتى جثا على ركبتيه وهو يصرخ بفرح غامر: «افتحْ عينيكَ، يا وطني العزيز، وانظرْ إلى سانشو ابنك العائد إليك؛ لم يعد وافر الغنى وإنما عاد وقد جُلِد جَلْداً وافراً. افتح ذراعيك، أيها الوطن، واستقبل ابنكَ دون كيشوت العائد إليك مغلوباً من أجل سعادة الآخر، لكنه يعود مُنتصراً على ذاته، وهذا الانتصار هو، على ما قال لي، أعظمُ انتصارٍ في العالم. لقد لقينا كثيراً من المشقات لأننا لا نعثر دائماً على ما نبحث عنه. بيد أنني أملك القليلَ من المال؛ لأنني وإن جُلدتُ جيداً فقد كان ثمنُ الجلد لا بأس به.

http://www.ithar.com

ـ قال دون كيشوت: دَعْكَ من هذا الجنون، يا سانشو، ولندخلْ مكانَ ولادتنا بروحٍ جديدة، وعلينا أن نفكّر فيها جدّياً بالإعداد لمغامرات جديدة.

رأى دون كيشوت، عند مدخل القرية صبيين يتخاصمان.

ـ كان أحدُهم يقول للآخر: «أوه! لن تُمسك بها، «بيريكيلو» ولن تراها طوال حياتك».

ـ قال دون كيشوت: أتسمع، يا سانشو، ماذا يقول هذا الصبي؟ لن تراها طوال حياتك.

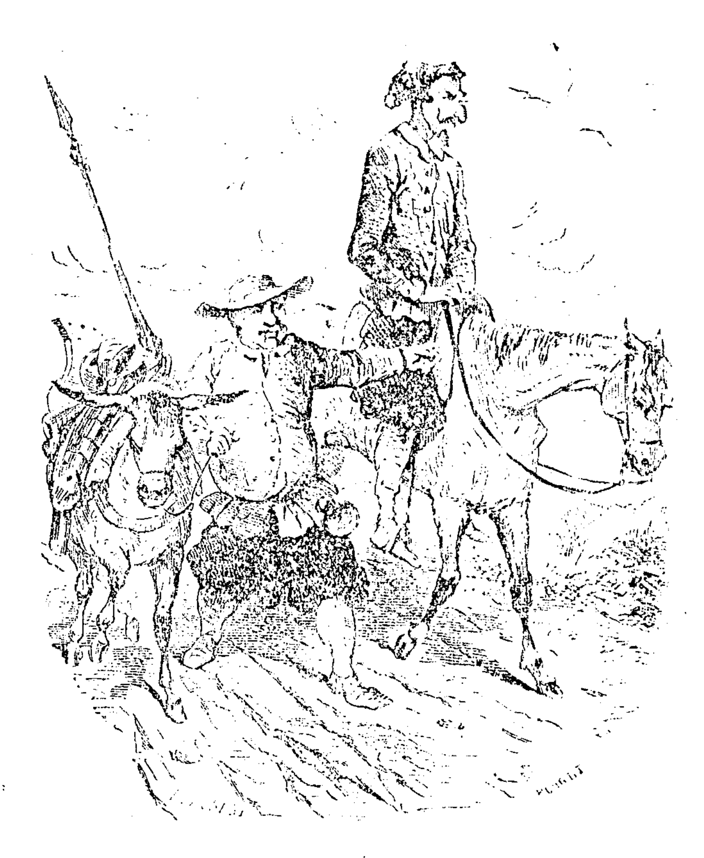
ـ أجاب سانشو: وماذا يهم إن يقول الصبيُّ ذلك؟

ـ أجاب دون كيشوت: ألا ترى، يا سانشو، أن ذلك يعني أنني لن أرى «دولسينيه» طوال حياتي.

أراد سانشو أن يجيب عندما سمع صوتاً حَمَله على الالتفات فرأى أرنباً يتبعها عددٌ كبير من كلاب الصيد ومن الصيادين، لكنها احتمتْ بين قوائم الحمار، فأمسك بها سانشو وأراها سيّده، بيد أن دون كيشوت لم ينظر إليه، لشدّة حزنه، واكتفى بالقول: «يا له من نذير شؤم! يا له من نذير شؤم! الأرنب تهرب، والكلاب تطاردها، ولن تظهر دولسينيه.

ـ قال سانشو: الواقع أنك رجلٌ غريب: تَصوَّرْ أن هذه الأرنب هي السيدة «دولسينيه دي توبورو»، وأن كلاب الصيد التي تطاردها هي السحرة الأشرار الذين حوّلوها إلى فلاّحَه. وهي تهربُ وأنا أمسكها وأضعها بين يديك، وأنت السيد تداعبها: فأين نذير الشؤم فيما رأيتَ؟ وممَّ يُخيفكَ ذلك؟

http://www.ithar.com



عند ذلك دنا الصبيّان ليريا الأرنب، وحين سألهما سانشو عن سبب خصامهما أجاب الذي قال للآخر: «إنك لن تراها طوال حياتك»، أنه أخذ من رفيقه قفصاً وأنه لن يعيده أبداً. أعطاهما سانشو خمسة فلوس ثمن القفص، ثم قدّم القفصَ لدون كيشوت وقال: «انظرْ، يا سيدي، ها هوذا السحر الذي حُلَّ وأُبطِل، وإني لحيوانٌ إن كان لذلك كله علاقةٌ بمغامراتنا أكثر من علاقتها بثلوج العام الماضي. وأنا أذكر، إن لم تخنّي الذاكرةُ، أنني سمعتُ الكاهنَ يقول إن المسيحيين والناس العاقلين لا ينبغي أن يتوقّفوا عند هذه العلامات. وأنت نفسكَ كنتَ تقول لي فيما مضى إن المسيحيين الذين يتسلّون برؤية العلامات المبّشرة أو المنذرة حمقى. هيّا،

http://www.ithar.com

هيّا، يا سيدي، لندخلْ القرية، فذلك لا يستحقّ أن تتوقّف عنده. في هذه الأثناء، وصَل الصيادون، فأعاد إليهم دون كيشوت أرنبهم.

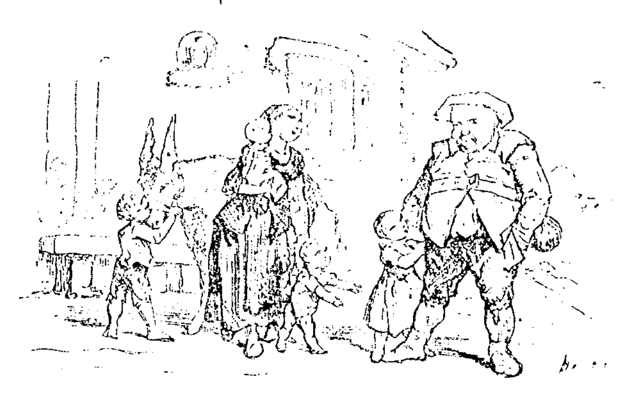
كان الكاهنُ والحلاقُ نيكولا في مرجٍ عند مدخل القرية، حيث كان الكاهن يتلو صلاته من كتاب الصلوات، وحين رأيا دون كيشوت سارعا إليه وقد مدّا أذرعهما.



ترجّل دون كيشوت عن حصانه وعانقهما، فذهبا معه إلى بيته. أما سانشو فقد وضع على حماره، فوق سفط أسلحة سيده، الثوبَ المزخرف بالشُعَل الذي ألبسوه إياه في منزل الدوق في أثناء حفلة تنكّرية، وغطّى رأسَ الحمار بالقلنسوة التي رُسمتْ عليها الشياطين، ممّا أحدثَ أغربَ الأثر وأحدث تحوّلٍ يمكن تصوّره؛ حتى أطفال القرية الذين أبصروه

http://www.ithar.com

هُرعوا من جميع الأنحاء وهم يتنادون: «تعالوا بسرعة، وتفرّجوا على حمار سانشو بانسا الذي هو أظرف من عروس، وعلى حصان دون كيشوت وهو أشد هزالاً من سمكةٍ مملّحة. دخل دون كيشوت بيته يرافقه الكاهنُ والحلاّقُ، وتحيط به طغمةُ الأطفال، وقد وجد ابنةَ أخيه وخادمتَه في انتظاره على الباب، بعد أن أُخْطِرتا بمجيئه. وكذلك علمتْ زوجةُ سانشو بانسا بالنبأ فوصلت وهي مشعثّة الشعر، عارية الساقين، ممسكة الصغيرةَ بيدها. نظرت إلى زوجها فلم تره في الهيئة التي كانت تتصوّرها للحاكم. فقالت: «يا عذراء! أهكذا تعود يا زوجي، على قدميك، مُتعباً كالكلب؟ إن لك هيئة المتشرد لا هيئة الحاكم.



ــ أجاب سانشو: اسكتي، يا تيريز، لا يوجَد الشحمُ حيث تكثر العراقيب. هيّا إلى البيت، وسأقصّ عليك العجائب. المهم أن معي مالاً، وأنني حصلتُ عليه بمهارتي دون أن أُلحق الضررَ بأحد.

ــ آه! أنت تحمل مالاً، يا زوجي، أحسنتَ؛ ومهما تكن الطريقة التي حصّلتَه بها فإنها لن تكون جديدة. ارتمت سانشا على أبيها وطوّقت عنقه وسألته إن كان لم يحمل إليها شيئاً؛ ثم تأبّطت الأمُ وابنتها ذراعيه وقادوا الحمار ومضوا إلى بيتهم تاركين دون كيشوت مع صحبته.

http://www.ithar.com



لم يكد دون كيشوت يدخل بيته حتى انفرد بالكاهن وبالحلاق، دون أن ينتظر، وقصّ عليهما هزيمته أمام فارس القمر الأبيض، والعهدَ الذي أَلزمَ به نفسه ألاّ يحمل السلاح لمدة عام، وهو ما ينوي تطبيقه حرفيّاً، وأضاف أنه قرّر أن يصير راعياً في أثناء نَفْيه هذا، وأن يمضي إلى الغابات والمروج فيتعهّد خواطره الغرامية ويستسلم لها، وأنه يرجوهما أن يقبلا بمرافقته، إن لم يكن لديهما عملٌ أفضل، ليعيشا ذلك النمط من الحياة الهادىء والسارّ، وأنه يتحمّل النفقة كلها، وأنه سيشتري نعاجاً للجميع. وأضاف أن أهمّ ما في القضية قد أُنجِز، لأنه وجد لهما الإسمين الموافقين لهما على نحوٍ عجيب. سأله الكاهن عن الأسماء، فأجاب أنه سيدعى الراعي كيشوتيس، وأن السيد الكاهن سيُدعى الراعي كوريامبرو، وأن السيد الحلاّق سيُدعى نيكولسو، وأن سانشو سيُدعى بانسينو. متعجبّاً كثيراً من هذا الجنون الجديد الذي انتابَ الفارسَ المسكين؛ بيد أنهما تظاهرا بقبول مشروعه لكي لا يُفلت منهما، آمليْن أن تشفيه كلّياً سنةٌ من الراحة

http://www.ithar.com

والحياة المطمئنة. وعَرَضا عليه إذن أن يكونا رفيقيه. وأضاف نيكولا أنه باعتباره في نظر الجميع، شاعراً مشهوراً، فسوف يؤلّف أغانيّ رعويّة وأشعاراً غزلية لكي يسلّيه في هذه الأماكن الريفية. وأردف «وأَحْوَجُ ما نكون إليه هو أن يختار كلٌّ منا وبسرعة اسمَ الراعية التي يريد أن يمجّدها في مؤلّفاته؛ وبعد ذلك يجب ألا تبقى شجرةٌ واحدة، مهما تكن قاسية، لا ننقش عليها أسماءهن، كما هي العادةُ لدى الرعاة العاشقين».

ـ قال دون كيشوت: سيكون ذلك شيئاً رائعاً. أما أنا، فلا حاجة بي إلى اسم راعية، لأنني خادم «دولسينيه دي توبوزو» الفريدة التي لا تُضاهَى، مجد هذه السواحل، وزينة مروجنا، وزهرة الجمال، ومنبع الحلاوة، وبكلمة واحدة، إنها الموضوع الجدير بمدائح العالم كله، مهما بُولغ في هذه المدائح.

ـ ردّ الكاهن: نحن متّفقون على أنها تَمْلك جميعَ هذه المحاسن؛ أما نحن، فنحن نبحث هنا عن راعيات أقلّ شأناً؛ وهنّ وإن كنّ لا يمْلكْن هذه الدرجةَ من الكمال إلا أنهن مقبولات.

ـ قال نيكولا: وإذا لم نجد الأسماء المقبولة فما علينا إلا أن نأخذ الأسماء التي نجدها في الكتب، «فيليس» أو «أماديس» أو «ديان» أو «غالاتيه»: يمكن أن نختارهن بحسب ذوقنا، لأن المكتبات تغصّ بهذه الكتب، والسعر ليس غالياً».

مَدحَ الكاهنُ مرةً أخرى «دون كيشوت» على المشروع الذي وضَعَه وعرضا مرةً أخرى صحبتهما كلّ المدّة التي يريدها، ثم خرجا وهما يرجوانه أن يفكّر في صحته، وألاّ يوفّر شيئاً على نفسه.

http://www.ithar.com



أصغت ابنةُ الأخ والخادمة للحديث كله، وما ان رأيا أن دون كيشوت أصبح وحده حتى دخلا غرفته، وقالت له ابنةُ الأخ: «ما هذا، يا عمي؟ كنا نعتقد أنك عدتَ إلى بيتك لتَحْيا بسلامٍ فإذا بك تَنْوي الارتماء في متاهاتٍ جديدة، لتُصبح راعياً صغيراً! إنها حقاً لمهنةٌ جديرةٌ بك!.. دَعْكَ، دَعْكَ، يا عمي، فالقَمْح قد قَسْت سوقُه وذهب أوانُ تجويفها.

ـ أضافت الخادمة: أجل، أجل، أأنتَ في حالةٍ تَسْمح لك بقضاء نهاركَ كله في الحقول، مُعرِّضاً نفسك لحرّ الصيف وبرد الشتاء؟ هذا يَصْلح للفلاحين الأشدّاء الذين تربّوا على ذلك وهم في بطون أمهاتهم، وإذا شئنا أن نختار بين الشرّين، فالفارسُ الجوّال أفضل لك من الراعي. لكن اصغِ إليّ يا سيدي، وخُذْ نصيحتي التي أسوقُها إليك وأنا صائمة،

http://www.ithar.com

ولم أعد طفلةً: استغلّ أملاكك برفقٍ؛ اعتنِ ببيتك وبأعمالك؛ صَلِّ لله وتصدَّق على الفقراء، وإذا ساءت الأحوال، تحمّلتُ المسؤوليةَ بنفسي.

ـ أجاب دون كيشوت: حسناً، حسناً، كفى، يا صديقتيّ؛ فأنا أعلم ما يلزمني. لكن هيّئا لي سريري كي أنام. يبدو لي أنني لستُ في حالةٍ حسنة، وكونا على يقين، سواء أكنتُ فارساً جوّالاً أم راعياً، أنني لن أدعكما تحتاجان إلى شيء؛ وستُثبت لكما النتائج ذلك».

وضَعَتاه في سريره وجاءتاه بالطعام، وكانتا لا تفكّران في غير تسليته وتقديم الطعام الفاخر له.

مَرِض دون كيشوت فعلاً، إما لانزعاجه من هزيمته، وإما من التعب الذي قاساه في جولاته، أو أنهما كليهما قد أسهما في مرضه. كان سانشو يلزم سريرَ المريض كلما ألّمتْ به الحمّى: وكان الكاهن والحلاق يعودانه كلَّ يوم؛ وكانا يعتقدان أن مرضه كله آتٍ من غمّه لأنه لم يَشْهد دولسينيه يزول عنها سحرُها، وكانا يفعلان كلَّ ما بوسعهما لتخفيف همومه وبعث السرور في نفسه. كان الحلاق يقول له إنه يجب أن يتشجّع وأنه لا ينتظر سوى معافاته ليبدأ التدرّبَ الرعوي، وأنه قد نظم قصيدة تَفوق قصائد «ساتازار»، وأنه اشترى من الراعي «كنتانار» كلبين لحراسة القطيع، ويُدعى أحدُ الكلبين بارسينو، والآخر «بوترون». لكن ذلك كله لم يُعِدْ إلى دون كيشوت طيبَ مزاجه. ورآه سانشو في هذه الحالة، فقال له: «ما هذا، يا سيدي العزيز؟ أَبَعْدَ أن تلقّينا في هذه الساعة نبأ زوال السحر عن «دولسينيه» تريد أن تلزمَ الفراشَ؟ لا تَدَعْ نفسك تموت، الجميع يرجونك، لا حاجة إلى السرعة. وليست مصيبةً عظيمة أن يُغْلَب المرءُ فَيَسْتسلم

http://www.ithar.com

لليأس. وكيف تكون الأمورُ لو أن جميع الناس فَعَلوا مثلك؟ إذن لارتبك نصفُ الناس بدَفْن النصف الآخر. وعلى كل حال، أنت لستَ مُقْعداً ولا مشوَّهاً، وأنت قادرٌ أبداً على الثأر. هيّا، اخرجْ من هذا السرير، ها نحن نوشك أن نصبح رعاةً وأن نَقْضي وقتَنا في الغناء والحياة الرغيدة، وأنت ما تزال حزيناً حزنَ الناسكِ؛ افعلْ مثلي؛ أنا أقبل الأشياء على علاّتها، وأتعزّى عن كل شيء، لأن كلّ شيءٍ حياةٌ، حتى الموت. اعملْ بنصيحتي، يا سيدي الحبيب، عشْ أطولَ مدةٍ ممكنة، لأن أكبر جنونٍ في العالم هو أن يَنْساق المرءُ إلى الموت، دون أن يَعْرف لماذا؛ ولا يمكنك أن تجد رجلاً واحداً سرّه أن يموت من الكآبة. هيّا، دع الفراشَ والمرض، ولْنَذْهبْ إلى القول، ولنعزفْ على المزمار، ولننظمْ الأغاني، ولعلّنا سنجد في طريقنا «دولسينيه» وقد تخلّصتْ من سحرها. وبعد ذلك، فإن جميع أحزان الدنيا لا تساوي درهماً. لكن إذا كنتَ تموتُ من استيائِكَ لأنك هُزِمتَ فأَلْقِ الذنبَ علي، وقلْ إنك وَقَعْتَ عن حصانكَ لأنني لم أحزمْ جيداً سَرْج «روسينانت». ثمّ أليست العادة في كتبكم عن الفروسية أن الفرسان يُوقع بعضهم بعضاً؟ هذا ما نجده دائماً في هذه الكتب... فعلامَ التعجّب؟ الحمار الذي له أربع قوائم قد يقع.

ــ أضاف الحلاق: «سانشو على حق، يجب ألا تيأس. فأنتَ لم تَفْقدْ شيئاً بعد».

كان كلامُهم جميعاً بلا جدوى... فقد ظل دون كيشوت حالماً، شارد الفكر، ولم يخفّ مرضُه. بل إن المرض تفاقم. فبعد ستة أيام، لم يُعطِ الطبيب بارقةً من أمل. وأحسّ دون كيشوت بوضعه، فرجاهم أن يتركوه وحده، لأنه يريد أن ينام؛ دام نومُه نحو سبع ساعات. وبكته

http://www.ithar.com

الخادمةُ وابنةُ الأخ كما لو كان ميتاً؛ بيد أن دون كيشوت أفاقَ فجأةً ودعاهما، وقال: «يا بنتيَّ العزيزتين، احمُدا الله الكليّ القدرة الذي منحتني اليومَ رحمتُه اللامتناهية أعظمَ نعمه».

ـ أجابت ابنةُ الأخ: ما معنى هذا، يا عمي العزيز؟

استأنف كلامه برفق: يابنةَ أخي، هذه النعمة هي أغلى كنزٍ يملكه الإنسان، وهي وحدها التي يمكن أن توفّر له شيئاً من الراحة في هذه الحياة الحقيرة، وأن تُمكِّنه من الحصول على مكافأة الفضائل في الحياة الأخرى، هذا الكنز الثمين هو العقل: لقد فقدتُ العقلَ، يابنةَ أخي، حين استخدمتُ أوقاتَ فراغي الطويلة في قراءاتٍ حمقاء؛ ولقد ردّت لي السماءُ اليوم عقلي. ولن أستمتع به زمناً طويلاً، لكن امتناني مع ذلك لا يَقلّ شدّةً. وسوف أستغلّ على الأقل، هذه اللحظات القصيرة، وهي وحدها المحسوبة في حياتي، لكي أَستدرك، على قدر استطاعتي، أخطاءَ ضلالي الطويل، وأن أصنع الخيرَ الذي لم أصنعه من قبل. أَحضِرا إذن، صديقي الكاهن، والمعلم نيكولا، وسانشو الأمين، الذين يجب أن أطلب صَفْحهم لأني جعلتُهم يشاركونني في جنوني.

بينما كان يُنهي هذه الكلمات وصلوا جميعاً. قال لهم المحتضر: «يا أصدقائي، كنتُ أرغبُ في حضوركم. أسرعوا وهنِّئوني لأنني لم أَعدْ دون كيشوت دي لامانش، وكفّوا عن النظر إليّ كمُقلِّد لِـ «اماديس» و «غالور»، وجميع أولئك الأبطال الخياليين الذين اتّخذهم هَوَسي نماذج؛ ولا تَرَوا فيّ غيرَ جاركم، وصديقكم الوفيّ، وأخيكم الذي استعاد، في ساعته الأخيرة، ما فقده من عقله، لكي يتوب. لنستغلّ ذلك، سيدي الكاهن،

http://www.ithar.com

وتفضّلْ فاستمعْ إلى اعترافي بأخطائي. وأنما، أَحضرا، في أثناء هذا الوقت، إذا شئتما، كاتبَ عدلٍ، ليسجِّل وصيّتي ورغباتي الأخيرة.. كانوا يُصغون إليه بصمت، وينظر بعضهم إلى بعض بدهشةٍ وأَلم.

جثا سانشو قرب السرير، ولم يصدّق حتى هذه اللحظة أن سيّده في خطر، وانفجر باكياً. مدّ إليه المريضُ يده، ورجاه أن يتركه وحيداً مع الكاهن. لم يطلْ زمنُ الاعتراف؛ لأن الفارس إن اضطرب عقلُه فقد ظلّ قلبُه نقيّاً. ثم نادى الجميع؛ دخلت الخادمةُ وابنةُ الأخ وهما تطلقان الصرخاتِ؛ هدّأ دون كيشوت من رَوْعهما. وعندما جاء كاتبُ العدل، قال له أن يبدأ وصيته بالشكليّات المعتادة؛ ثم جمع ما بقي له من قوة، واعتدل في جلسته على السرير، وأملى هذه الكلمات بصوتٍ ضعيف: «أوصي لصديقي سانشو بانسا الذي كنتُ أدعوه مرافقي أيام جنوني، بمئتي ريال نقداً من ثروتي؛ وفوق ذلك. أوصي له بكل المال الذي عهدتُ به إليه عندما سافرنا معاً، وأمنع وَرَثَتي أن يطلبوا حساباً عن ذلك، وأنا غير نادم، من بين الغرائب التي كان شاهداً عليها، إلا على الأمل الذي زرعتُهُ في نفسه بأن أصنعَ له ثروةً عظيمة.

قاطعه سانشو وهو يبكي، وأراد أن يمنع الكاتبَ من التسجيل، وقال: «لا، يا سيدي، لا تَمتْ؛ من غير الممكن أن تموت. اتبعْ نصائحي، يا سيدي العزيز: عشْ واطردْ هذا الحزنَ الأسود الذي أوصلكَ وحده إلى هذه الحالة التي أنت فيها. سأفعل كلّ ما تريد، وسنذهب إلى حيث تشاء؛ الراعي والفارس والمرافق سواءٌ عندي، شريطةَ أن أكون معك؛ وسأبدأ، إن لزمَ الأمرُ، بإبطال السحر عن دولسينيه على حساب جلدي؛ وإذا لم تستطع أن تجد عزاءً عن مصيبتك عندما هُزِمتَ فسأقول

http://www.ithar.com

في كل مكان أن الذنب ذنبي، وسأَحلف يميناً بأنني أسأت حَزْم سراج روسينانت، وأن المسؤولية تقع على عاتقي، وأن. . . قاطعه المريضُ برفقٍ: أنا ممتنٌّ لك، يا سانشو المسكين؛ طالما رأيتني فاقداً عقلي وأنت لا تكاد تصدّق أنني أصبحتُ عاقلاً. لِنَنْسَ أخطاءنا القديمة دون أن ننسى صداقتنا القديمة؛ إن صديقكَ هو الذي يُصغي إليك، لكنه لم يَعدْ دون كيشوت، ولكي أستخدم معك أَحَد هذه الأمثال التي تُحبّها كثيراً أقول لك: إن عصافير السنة الماضية لم تعدْ موجودةً في عشّها. دَعْني أَكمّل، يا ولدي، وأقبلْ مني الأسفَ الرقيق على أنني لا أستطيع أن أُقدّم لك أكثر ممّا قدمتُ.

حينئذٍ عيَّن ابنةَ أخيه، انتونين غيكسانا، وارثةً له، مع تكليفها دفع النفقة لخادمته القديمة، وأن تقدّم بعض الهدايا التي حدّدها، كعربونٍ للصداقة، إلى المعلم نيكولا وإلى الكاهن الذي سمّاه منفّذاً للوصية. وانتهى بأن طلب الصفح عن القدوة السيئة التي كانها عندما كان فاقداً عقله، وأضاف بأنه يلوم نفسه بخاصةٍ لأنه أعطى، دون أن يُساوره الشكُّ، أحد مُتمّمي قصة دون كيشوت فرصةً لأن يضع أشدّ الكتب التي طُبعت حتى الآن حماقةً وتفاهةً وسُخفاً.

ما إن خرج الكاتبُ حتى طلب دون كيشوت من الكاهن أن تُقرَّبَ له الأسرارُ الأخيرة، فتقبّلها بورع واستسلام كانا قدوةً صالحة للجميع؛ وفي المساء اعتراه ضعفٌ شديد، فأسلم الروح لله.

تلك كانت نهاية بطل «المانش الذي لم يشأ مؤرّخه السيد حامد أن يُسمّي مسقط رأسه، لكي تتنازع جميع المدن، وجميع الضياع، وجميع

http://www.ithar.com

القرى، في هذا البلد الشهير، شرفَ ولادته؛ وهو لم يُسْهِبْ في وصف الأسف والألم لدى سانشو، والخادمة، وابنة الأخ وجميع أصدقاء هذا الرجل الطيب والفاضل. وقد كُتب على شاهدة قبره الكثير من الكلمات؛ والكلمةُ الوحيدة الباقية هي التالية، وهي من سمسون كاراسكو، صديق الكاهن والحلّاق نيكولا:

«أيها العابر، هاهنا يَرْقد بطلٌ أبيٌّ ووديع، بطلٌ كانت فضائلُه النبيلة تُعادل شجاعته. أوّاه! لو لم يكن ألطفَ المجانين لكان أعقل البشر».

بعد هذه الأشعار، أنهى السيد حامد كتابه بأن توجّه إلى قلمه بالخطاب التالي، فقال: «أيْ قلمي العزيز! أنا أتركك وأعلّقك بسلسلة من الفولاذ؛ وأنا أرتعد خوفاً من أن يَحْجب المجدَ الذي ستوفّره لي ذات يوم مؤرّخون مزهوّون بأنفسهم، فيتناولونك ويدنسّونك. قلْ لهم إن دون كيشوت خُلِقَ لكَ وحدك، وأنك وحدك خُلِقْتَ له؛ قلْ لهم إن هذا البطلَ قد مات، فَلْيَتْركوا رماده مستريحاً؛ وإذا ما أجبروك على إخراجه من قبره، ودَفْعه إلى حملاتٍ جديدة، فحطِّمْ نفسك بين أيديهم الخشنة، وأَجْبرهم على أن يكتبوا حماقاتهم بريشة فرخ اوز. أما أنا فقد انتهت مهمّتي. ولا أريد أن أُسخِّف كتبَ الفروسية. لقد قُضي الأمرُ، وأَنزَل بهم كتابي عن دون كيشوت الضربةَ المميتة. أنا مسرور. وأقول لكَ وداعاً».

• • •

http://www.ithar.com

# فهرس المحتويات




http://www.ithar.com

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|



http://www.ithar.com

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|



• • •

http://www.ithar.com